العَطشُ الأَصفَر

الطبعة الأولى
1444هـ
2023م

اسم الكتاب: العَطشُ الأَصفَر
التأليف: بسمة دجبي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 340 صفحة
عدد الملازم: 21.25 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 25236/ 2023
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 86603 - 87 - 3

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

العَطشُ الأَصفَر

رواية بوليسية

تأليف

بسمة دجبي

دار البشير

أَحداثُ وشَخصِياتُ هذهِ الرِوايَةُ من وَحيِ خيَالِ الكاتبةِ وأَيُ تشابهٍ بينَها وبينَ أَحداثٍ حقيقيةٍ ليسَ سوى صدفةٍ لا غيرَ، مع التَأْكيدِ أَنهُ تم الإِشارةُ لبعضِ الأَماكنِ والولاياتِ المعرُوفةِ للضرُورَةِ الرِوائيةِ فقط.

إِلى أَهَالِي الحَوضِ المَنْجِمِي

القســـم الأَول

١٩٨٨

مسح عدسَتي المنظار ورفعهُ يُراقبُ.

كانَ قدْ تسلل منَ المنزِل بعد العشاء، وفي خطوات صامتة حمل المنظار وخرج دون أَن يفطن إِليهِ أَهلُهُ، فكرَ أَنهُ سيعود قبل أَن يَفتقدهُ أَحد.

مصابيح وأَضواء المنازل تظهر وتَختفي من خلفهِ كلما تَسارعت خطواته صعودًا وراءَ الحزام الأَصفرِ، قبلَ أَن تختفي تمامًا مع انقطاع التيارِ الكهربائِي.

عندَ وصولهِ للمكانِ المُحدد وقع نظره على عددٍ من الزهورِ الصفراء البريةِ بينَ شقيْ صخرةٍ، رُبما يقطفُ البعض منها لـ (عليَاء).. لكنهُ أَجَّلَ الأَمرَ حتى انتهائهِ من المُراقبةِ.

ظل جاثمًا في مكانه كخنفسة نصبت قُرون استشعارها، ينصتُ بكلِ انتباهٍ لأي حركة حولهُ "السرُّ في رهافة السمع". هكذا نُصح.

كان الموقعُ الذي اختارهُ ليتصيدَ الطيرَ بين عدة صخورٍ كبيرةٍ على جانبيهِ، يبعدُ عنهُ طيرُ (الحجل) بمسافةٍ غير قصيرة، كانَ قد شاهدَ منذ أُسبوع قطيعًا من أُمهات الحجل تتبختَرُ بأَبنائها في هذه الأَنحاءِ، الليل محفوف بالمخاطرِ، فما بالكُ إِن أَضيفَ إِليهِ الحشراتُ والأَفاعي والعقاربُ التي تتسللُ منَ جحورها باحثةً عن البرودةِ.

لأَسابيع ظل يُطاردُ القوارضَ في كل مكانٍ حتى يسيلَ عرقهُ، هذه المرةَ استعانَ بالمنظارِ، حرصَ على أَن يكونَ بعيدًا عن جُحورها، فقط عليه أَن يتحينَ الفرصة المثلى للقبضِ عليها، تحتَ ظلالِ الجبلِ بين الصخورِ، أَخبرهُ صديقهُ أَنهُ شاهدَ بعضها قربَ المنجمِ القديمِ من الجهةَ الشرقيةِ.

عوت الريحُ، فجفلَ.

رفعَ رأْسهُ مُثبتًا المنظارَ على عينيه، لم ير غيرَ نباتاتٍ شوكية، الحلفاء تتراقص مُصدرةً صوتَ صلصلة خفيفة، وأَكوام من الحجارة المُتفرقة. توقفت عيناهُ على جسم أَبعد يَتحرك، أَمعنَ النظرَ أَكثرً، هل يُمكنُ أَن يكونَ ذئبًا؟ فزعَ لهذهِ الفكرةِ، لَولا أَن ضوء القمرِ كشفَ له هيئةٍ بشرية.

كانَ رجلًا بكلِ تأْكيدِ.

مسح الطفلُ بعينيه المكانَ لعلهُ يرصدُ رجالًا آخرين، سدد منظارهُ نحوَ المشهدِ، حتى تبينَ فعًلا وجود رجلين؛ بل ثلاثة رجال، حيث أَن أَحدهم بدا يستندُ على الآخر، فكر "لعلهم عمال أَو صيادون".

غضب هنا عندما صور له ذهنه أَن هناك من يعلم بمكان الطيورِ أَيضًا وسيسبقونه إِليها.

لكن كان هذا أكثر إِثارةً من تتبع الطيورِ، جرَّ الرجلين الرجلَ الذي بدا كالعاجز عنِ السيرِ أَو المريض، توقفوا عندما انحنى أَحدهم حتى صار على ركبتيهِ، أَدركَ أَنهم يتكلمون، وربما يتجادلونَ، استطاع الطفلُ أَن يرى أَحدهم وهوَ يلتقط شيئًا من حقيبة ظهرهِ، قارورة ماء؟ لا.. شيء آخر، شيءٌ أَكثرَ طولًا، عصا أَو قضيب حديدي، راحَ يتقدم ببطء نحو الراكعِ، هوى بالعصا منتزعًا منه صرخةً قذفت به للوراءِ.

ارتمى يتلوى فوقَ الأَرض، ابتلَعَ الطفلُ لعابهُ وهو يُشاهدُ الأَمر، نقلَ بصرهُ نحوَ كلا الواقفينِ اللذَين ظلا لا يفعلانِ شيئًا، صدمَ المشهدُ عيونَ الطفلِ لكن ليسَ إِلى حدِ جعلهِ يَتركُ مكانه.

لم يرد أَن يفكرَ في رد فعلِ والدهِ إِن عرفَ بتسللهِ ليلًا، بالتأكيدِ سيكتفي بربطه بجذع نخلةٍ وتركه لوحوشِ جبال المظيلةِ، يدقون عنقه؛ لكن الآن ودَّ

لو يصرخ.. لو يسمعه والده، لكن كل ما فعله طفل الحادية عشر هو أَن تجمد كتمثالٍ جليدي في مكانه، لثوانٍ طويلة بطولِ الليلِ وظلامِه ظلَ واقفًا غير قادرٍ على إتيان أية حركةٍ، فقط بؤبؤاه المُتسعان ما كانا يتحركان ذعرًا.

-"هذا لكي لا تتكلم!".

صرخَ القصيرُ منهما وهو يلوحُ بالعَصا، اقتربَ منَ المُسجى على الأَرضِ. انحنى وقد قبض على شعرهِ.

كانَ رأسُ الرجلُ المغمى عليهِ مشدودًا للأَعلى وقدْ غطت الدماءُ شطرًا من وجههِ وجبينه.. وضحَ الطويلُ بغيظٍ "لقدْ أُغميَ عليهِ بسببِ لكماتكَ وضرباتِكَ.. ونحنُ الآنَ مُجبرانَ على حملهِ وتحملِ ثقلهِ.. لمَ لم تنتظر حتى نصلَ إلى منزلهِ؟".

أَغلق الطفلُ فمه بيديه كاتمًا صرخته.. سقط المنظارَ.

أَفاقا مما يفعلانهِ على الصوتِ غيرِ البعيدِ.

رفعَ أَحدهُما رأَسهُ ناحيةَ الصوتِ من الجانب الشرقِي، ابتلعَ لُعابهُ وأَنصتَ أَكثرَ لكنْ لا يبدو أَن هناكَ نيةٌ لتكرارِ ما حدثُ.. تركَ الذراعَ المسبولةَ تسقطُ، فلا يُمكنُ أَن يتهيأَ لشخصينِ نفسَ الأَمرِ.. لقدْ بلغهما صوتٌ ما.

هل يُمكنُ أَن تكونَ صرخةُ حيوانٍ ليلي؟ أَو مُجردُ صدى لعجلاتِ شاحناتِ نقلِ الفوسفات؟

صافحَ النحيفُ ببَصرهُ كومةَ الصخورِ التي غشيَها الظلامُ.. كانَ الصوتُ قادمًا منها، كانَ متأكدًا من خلو المكان من أَي سائرًا يسيرُ أَو طيرٍ يَطيرُ؛ لكنْ لا يبدو كلامهُ مُقنعًا حتى لنفسهِ المُكذِّبةِ.

أَسرِع الطفلُ للخلف حتى اصطدام ظهره بالصخرةِ، ارتعشت يداهُ وهيَ تتلمسُ عين المنظارِ.. حبسِ أنفاسهُ ولو كان بيده لمحا وجوده أيضًا، أَسندَ ظهره إلى صدر الصخرة، وأحنى رأسه حتى كاد أَن يغرسه في الرمالِ.

زحفَ ساحبًا جسمهُ للأَمام قابضًا على المنظارِ بين أَصابعهِ.. أفلتت كفه المنظارَ ليسقط على الرملِ، بينما ظلَت عيونهُ مشدودةً للأَمامِ.. تراجعَ، تسحبَ بعيدًا مُحافظًا على انخفاضهِ، أَلقى نظراتٍ وجلةٍ للوراءِ، لقد انتبها لوجودِهِ.

هنا فقط تمكَّن من تحريك ساقيه؛ بل كل جسمه، وفرَ، عندما ابتعدَ بما يكفي ليأخذَ شهيقًا طويلًا تذكر أَنه نسيَ المنظارَ هناكَ.

***

«يلزمنَا صوتٌ عالٍ لكَي يَسمع الأَصمُ».

بهغت سينغ

المَنسية – ولايةُ قفصة[١]

جوان ٢٠١٣

سارت الشاحنة بسرعةٍ لا تُناسبُ وعورة الطريقِ الريفيةِ، رغم المطباتِ التي جعلت رأس (أحمد الغزواني) يرتطمُ بالسقفِ في كل مرةٍ

– أَقلتَ أنكَ ابن العجوزِ الطاووس؟

تساءل السائقُ من جديدٍ، دونَ أَن يبعِدَ عينيهُ عن الطَريقِ، كانتْ سيارةُ الغزواني قد تعطلت قبلَ وصولهِ للمظيلة[٢] بعدةِ كيلومترات، دفعهَا وتركهَا في مُتسعٍ من الأرض بعدَ أَن وعدهُ راعٍ منْ أَولادِ المطيري كانَ يرعى ماشيتهُ بِأَنهُ سيرسلُ لها من يُصلحُها من أَقاربهِ، ودلالةً على صدقِ قولهِ رفعَ هاتفهُ واتصل بأَحدهم، وأَكدَ عليهِ أَن يَمرَ بهِ عاجلًا ليصلحَ سيارةَ شرطي من العاصمةِ.

لم يتركهُ الراعي إِلا بعدَ أَن سقاهُ ما يبرِّدُ جوفهُ، ولقنهُ ما يُريحُ بالهِ، حتى أَنهُ اقترحَ عليهِ أَن يوصلهُ ابن عمهِ لدارِ والدتهِ بشاحنةِ نقلِ الشياهِ، كانَ ابن العمِ رجلًا يُقاربهُ في السنِ، يدعى (حمزة)، جرى بينهما حديثٌ قصيرٌ فاض

---

(١)ولاية بالجنوب التونسي.

(٢)مدينة تقعُ بولايةِ قفصة بالجنوبِ التُونسي.

بالأَخبارِ؛ عن البلدةِ والطقسِ الحارِ والرائحةِ القويةِ القادمةِ من مداخنِ المُجمعِ الكيماوي، حتى وصلَ إلى أفرادِ عائلته وأُمِه، سأَلَهُ مرةً أُخرى

- أَقلتَ أنكَ ابنُ الطاووس؟ أَليست قابلةَ بلدةِ (المنسية)؟

-نعم، هيَ بنفسها.

-يا خبر.. لقدْ وُلِدْتُ على يديها وكلُ أُخوتي. الله يطول في عُمرها!.

-تعيش.

قاد حمزةَ الشاحنة بصمتٍ بينما تطلع الغزواني لما حوله، ازداد عدد المنازلِ الحجرية كلما اقتربوا من المنسية، لم يجاهد كثيرًا كي لا يرى من بلدته المنسية سوى مكانًا اختاره له القدرِ ليولدَ فيه، لا لكيْ يعيشَ فيهِ حياته كلها.

***

أَطلتْ بسرعةٍ على المَشهدِ الخارجِي منَ المُستشفى، ثمَ تراجعتْ معَ اندفاعِ أَشعةِ الشمسِ، تأَففتْ وتأكدت من أَن ستائرَ نوافذِ الطابقِ الثاني كانتْ مُغلقةً، لتضفيَ على الغرفةِ نوعًا من العُزلةِ.. دارت (علياءُ) في المَساحةِ الضيقةِ ذاتَ اللونِ الأَبيضِ، عاكسةً بسهولةٍ ملابسها الداكنةِ، سروالًا من الكتانِ البنِي الفضفاضِ، وقميصًا بلونِ الخروبِ، وحذاءً صيفيًا أَضفت عليهِ أَظافرُها الورديةُ المُعتنى بها بعضَ البريقِ.

يبقى المُكيف يعملُ طوالَ الوقت، باعثًا نسمةَ هواءٍ خفيفةٍ أَنعشتها، وحركتْ بعض خصلاتٍ من شعرها البني القصير؛ بينما بدا المُستلقِي على السريرِ خاليًا من أَي فكرةٍ تخطرُ ببالِ بنتِ أُختهِ، كما بدا في عينها، وكأَنهُ استردَ بعضَ الوزنِ الذي فقدهُ بالشهورِ الماضية، رغمَ أَنهُ يظلُ ستينيًا هزيلًا بمقاييسِ من هم في مثلِ عمرهِ

-تُسلم عليكَ أُمي يا خالِي (ضوء).

انحنتْ علياءُ فوقَ سريرِه، وعدلتْ من وضعيةِ وسادتهِ ثمَ تفحصتْ مؤشراته الحَيويَةَ بعينيها، جذبتْ يدهُ العاجزة المدسُوسة تحتَ اللحافِ الأبيضِ، كانتْ مغطاةٍ بلاصقٍ طبي.. وضعت كفها على ظهرِ يده.

لم يبقَ له سوى النفس.. شهيقٌ وزَفيرٌ.. دستْ اليدَ داخلَ اللحافِ وتوسدتْ كتفهُ الضامر كما كانتْ تفعلُ في طفولتها عندما كانَ يَنامُ أَصدقاؤها، بينما يُغادرُ النومَ جفونها، كانتْ تتسللُ زاحفَةً بجانبِ خالها الذِي يبتسمُ

«لماذا لم تَنامِي؟ هل خفتِ من الأَفاعي يا طِفلتي؟».

«يا ليتَكَ ترى هذهِ الطفلةُ التِي أَصبَحتُها!»

لا يُمكن لأَحد أَن يتوقعَ أَن تلكَ البائسة الراضية بحالةِ السكونِ، والتي تُطلُ على العالم بكل براءة من خلالِ عيُونِ خالها، أَصبحتْ فاتنةً شَهلاء على حد الوصف الشائع لأَهل البلدةِ، فقد كانت تملك قدًّا رشيقًا يُضاهي رشاقة جسم (هند رستم) في فيلمها (صراع في النيلِ).

ابَتسمتْ وقالَتْ:

«أَتعرف؟ هناكَ أَخبارٌ جديدةٌ هذهِ المرة».

لم يسمعها ليسَ بسببِ حالةِ الصممِ، رغمَ أَنها كانتْ تتمنى ذلكَ.

***

لم يكن للمنزلِ حوشٌ مسيج، إنما هو مجردُ منزلٍ يتوسطُ باحة واسعة تزينتْ ببئر قديمةٍ ذاتَ جدار دائري بنيٍّ من الحجارةِ البيضاء، على الأَقلِ كانت بيضاًء اللونِ عندما بناهَا ووالدهُ قبلَ أَكثر من ربع قرنٍ، الآَن أَصحبتَ مصفرةٍ غزتها الطحالبُ في قاعدتها، فمنذُ وفاةِ والدهِ لم يعتنِ بها أَحدٌ.

جاور الغزواني والدتهُ على مائدةِ الطعام بغرفةِ الجلوسِ التي تتفرعُ عن غرفةِ نومها، كانت مُغطاةً من الأرض للسَقفِ سجاجيدَ حاكتها أصابعها قبلَ زواجها.. بينما يؤدي الباب الثاني إلى غرفةِ نومهِ، كانَ قد اغتسلَ بينما أعدت والدتهُ الطعامَ:

-كانَ عليكَ إبلاغي بقدومكِ، أَأَطعمُكَ الدجاجَ في لحظةِ وصولكَ؟ خسئتِ يا الطاووس!.

بدت له أُمهُ أَسنَ مما كانتْ عليهِ قبلَ شهرين، عندما رافقها في زيارة المستشفى الجامعي بالعاصمة من أَجلِ إزالةِ الماء الأَبيض من عينها اليُمنى. والدته التي تركت مدينة سوسة وراءهَا لتتبعَ مزارعًا من المظيلةِ شغفها حبهُ، حتى بعدَ موتهِ ظلتْ حبيسةَ ذكرياتهِ بينَ الجدرانِ التي بناها بيديهِ وذراعيهِ وعرقَ جبينه والكثيرَ من حُبهِ.

أَخذَ الغزواني كفها بينَ يديهِ وقال:

- كلُ شيءٍ من يديكِ عسلٌ يا يَما!.

ارتبكتْ حتى تجعدَ الوشم ما بين حواجبهَا ثم ابتسمتْ بخجلٍ:

- تأدب يا ولد، ثم ماذا أَتى بكَ إلى هُنا؟

-أَلا يكفي أَنني اشتقتُ إليكَ؟!

-دعكَ من هذا اللغو، اشتقتَ إليَّ؟ أَفصح.

أَرخى عَضلاتهُ وتنهدَ:

-جئتُ لأُحققَ في قضيةِ مقتلِ (عادل).

شهقت، فتحت عيناها بتأثر قبل أَن تطفرَ منهما الدموع، انتهت صدمتُها سريعًا:

- حان للأَسرارِ أَن تُكشفَ!.

***

انتصب مركز الحرس الوطني بالمظيلة في قلب المدينة بواجهته البيضاء. كان في القَديم (مُستوصف الطليانِ)[1] قبل أن يُحول إلى مقرٍّ أَمني بعد الاستقلال. دلَتْ جمهرة الحرس الواقف على بعد أمتار من الباب الرئيسي أَن خطبًا ما قد حدثَ:

- ماذا حصلَ؟

سأَلَ الغزواني رئيسَ المركزِ (أَنور الحامدي)، وهو يُسلمُ عليهِ في مكتبهِ:

- لا شيء يُمكنُ أَن لا نتعاملَ معهُ.. لقدْ أَحرقَ بعضُ المُحتجينَ إحدى سياراتِ الشرطةِ.

قالَ ذلكَ وهوَ يُشيرُ إلى كرسي بجوار المكتبِ، رفعَ رأسه نحوَ أَفرادِ الشرطة المتجمهرينَ بالمكتب وحولهِ:

- هذا المحقق أَحمد الغزواني، الغني عن التعريف، جاء من أَجل فتح إحدى القضايا المُجمدة التي عرفتها البلدةُ..

كيف لا وخبر إعادة فتح التحقيق انتشر كالنار في كلِ ربوعِ قفصة منذ أَشهرٍ. أَلقى المُقوٌ نظرةً على الأَرجاءِ قبلَ أَن يردفَ:

- سأتجول بالمكان قليلًا بعد أن أَخرج من هنا.

ضحكَ رئيسُ الشرطةِ وقد التمعَ وجههُ من أَثرِ العرقِ الذي صبغَ جلدهُ:

-لا تُتعب نفسك، لم تتغير الكثير من الأشياء هُنا.

يبدو هذا صحيحًا، وما رئيسُ الشرطة إلا دليلٌ على أَن كلَ شيء يَخطو خُطو السلحفاة، فقدْ تذكرهُ جيدًا.. كان أَحَد ضباطِ الشرطةِ الذين حققوا بالقضية قديمًا.

---

(١)الإيطاليين.

-سي (أَنور).. بالتأكيد قدْ بلغكَ في مُراسلة رسمية أَنني مبعوثٌ من قبل إدارةِ شرطةِ العاصمة قسم القضايا الباردةِ لإعادة فتح تحقيقٍ في جريمةٍ محليةٍ؟.

-بالتأكيد بالتأكيد.. بلغنَا الأَمرُ.. أَرجو أَن لا تفكرَ أَننا قصرنا في التحقيقِ في القضية سابقًا.

تنَحنحَ وقد اختفت ابتسامتهُ:

- كنتُ نائبَ الرئيسِ في ذلكَ الوقتِ.

-نحنُ لم نأتِ لهنا لتصيُّدِ أَخطاء إدارة التحقيق السابقةِ.. أَرجو أَن يكونَ هذا واضحًا.. أُريدُ طبعًا تجهيزَ ملفِ التحقيق الأصلي وما احتواه من تحقيق أولي، استجوابُ الشهود، مسرح الجريمة، الصور، أهم المعلومات والأدلة التي جُمعت.. تقرير الطبيب الشرعي، والأَغراضِ التي عُثرَ عليها مع الضحيةِ.

-بالتأكيدِ

أَخذَ رئيسُ المركزِ قلمًا وكتبَ شيئًا في ورقةٍ وصاحَ فجأة مناديًا فردًا من الأَمنِ بالزي الرسمي:

- أَحضر ملفَ القضيةِ ١٠٧-١٩٨٨..

ثم التفت إليه قائلًا:

-اعذرني.. لأَن الملفَ لا يزالُ في غرفةِ الأَرشيفِ، كان بعلمنَا أَنكَ ستحضرُ بعد أُسبوعٍ منَ الآن لذلكَ لم نكن مُستعجلينَ بتجهيزهِ وهذا الأَمرُ ينطبقُ على صندوقِ الأَدلة.. يحتاجُ إلى بضعِ ساعاتٍ.

-لا عليكَ.. سأُرسلُ من يستردهُ من فريقِ عملي.. هل كانَ هناكَ مشتبهٌ بهِ بالقتلِ في ذلكَ الوقت؟.

تنهدَ الرئيسُ كمنَ يتذكرُ:

– نعم.. إنني أَتذكرُ الآن، في ذلك الوقت كان لدينا مشتبه به بالفعلِ لكننا اضطررنا إلى الافراج عنهُ لعدم كفاية الأدلة ضدهُ.. (سعيد القفصي)، أَعتقدُ أَن هذا اسمهُ.. كم عَددكم؟ أَقصدُ فريقَ العملِ؟.

–سيدعمني فني حاسوب من العاصمة، وسيأتي مُحققانِ الليلة أو الغد.. وطبعًا كما قررَ سلفًا ستدعمونَ فريقي بأَحدِ الضباطِ المحليينَ الذينَ شاركوا في التحقيق السابقِ.

–بالطبع.. سيرافقكم (عمادْ الفرشيشي)، كانَ من الأفرادِ الذينَ شاركوا بالتحقيقِ السابقِ.. أَظنكَ على معرفةٍ بهِ.. كما أَخلينا عددًا من المكاتبِ في المبنى المُلَحقِ التابعِ لمركزِ الشرطةِ.. تفضل هذه المفاتيح.. يُمكنُ أَن تعتبرهُ بناءً مُستقلًا رغمَ أَنه يفتقرُ إلى العديدِ منَ التجهيرات.

بدا محرجًا ولكنهُ أَكدَ:

– لكننَا سندعمكم بكلِ ما تطلبونهُ!.

***

خرجَ الغزواني من مركز الحرسِ وهو يحملُ الملفَ في حقيبتهِ، وسارعَ نحوَ بلدةِ المنسيةِ.. رصَدَ جمعًا من الشبابِ بوجوهٍ مُتغضنة أمام جدرانِ المحلاتِ، بعضهم كهولٌ تجاوزوا عتبة الخمسينَ. من الصعب أن تتغير الأشياء بسهولة في هذه البلدة، فلو عادت روحه بعد مائة سنة من الآن فالأغلب أَن عينيهُ ستتعلقانِ بنفس هذا المشهدِ: المسنُونَ يَسترخون على المقاعدِ.. على الأرضِ وَتَحت جدَران المَتاجر بسحناتهم السمراء يحمون رؤوسهم بطرابيش بيضاء تقيهم ضربة الشمس، وقد رصفت أمامهم كؤوس الشاي والقهوةِ.

رفعَ السلام مُتجاوزًا النظراتَ الفضولية للبعضِ، تفحصَ مليًا الورقة الكرتونية المثبتة فوقَ قطعة صفيح في واجهةِ بابَ أَحدِ المَتاجر (إعلان تسريح) من قِبلَ الشركةِ المتوسطيةِ للفوسفات.. سَلمَ عليهم وتَجاوزهم، تعرفَ على بعضهم ولم يتعرفوا عليهِ.. سارَ على طولِ الطريقِ التُرابية المحاذيةِ لما بقيَ يُسمى بالـ (حي الأُوروبي).. كاد يغمضُ عينيهِ بسببِ أَشعةُ الشمس التي أَصبحت أَكثرَ قوةً. اتصلَ به (حمزةَ) في الأَثناءِ ليعلمهُ بأَن سيارتهُ قد تَمَ إصلاحها وسيوصلها لمنزلِ والدتهِ الطاووس.

أَخطأ رئيسُ الشرطةِ، لقد تغيرت الكثيرُ من الأشياء.. المكانُ أَصبحَ أَكثرَ بعثًا للإحباطِ.. تذكرُ الآن ما كانتْ تعنيهِ البلدةُ لهُ ولأَصحابهِ (سالم) و(علياءُ) و(عادل).

***

١٩٨٨

كانت القصة قصة بلدة يعرفُ فيها الجارُ عددَ ملاعق الخشب والنعال البلاستيكية بدارِ جارِهم، لذلكَ كانت مراقبةُ الحيِ بالمنظارِ أَمرًا لَيسَ بتلكَ المُتعةِ الكبيرةِ التِي اعتقدها (أَحمدُ).

ضغط بأَصابعه برفق، عبر عدسةِ المنظار، حدقَ بتوتر وبعينين مفتوحتين باتساع ممزوج بحماسةِ الاكتشافِ.. مجالٌ شاسع من المباني، حيث تظهرُ أَسقف المنازلِ أَصغرَ والطرقاتُ أَقلَ امتدادًا والتواءً خلفَ البيَوتِ. في الوسطِ تمامًا ينتصبُ منزلُ المعتمدِ، بكلبِ حراستهِ الضخم، مقابلَ ساحةِ المعتصمِينَ، وهذا منزلُ المُعلم (إدريس) ذو مَحابسِ النعناعَ على نافذتهِ الرئيسيةِ. على الطرفِ المُقابلُ تنتصبُ ورشة نِجارةِ الإَيطالي (مَاريو) ذو الكرشِ والصوتِ العالي، فلا صخب تلكَ الالة ولا أَية مشاجرة يمكنُ أَن تنافسَ حدة صوتهِ.

تشوشت الرؤية قليلًا، مع تعقبهِ لسيارة قادمة يقودها ابن ماريو، وقفتْ أَمام الورشةِ لتنزلَ منها سيدة أَجنبية تشبهُ اللاتي يعرضنَ على أَغلفة مجلات الخياطةِ التي تقرؤها ابنةُ عمتهِ. على طول الأَزقةِ تكونت جموعُ الناسِ من عجائزَ ومزارعين وتجار، وعمالٍ موسميين، بعد قليلٍ ستأتي مجموعة إِضافيةٌ من عُمالِ المناجم ليرابطوا أَمام منزل مُعتمدِ المَنسيةِ.

تقعُ البلدةُ على سفح تل ما بين الملجأ والحي الأُوروبي المُختفي وراء جدران عالية، يبلغها العَابرُونَ عبر المرورِ بطريق تُرابية مُمتدة بنيتْ حولها بعض المنازل الحَجريةِ. كان من المفروضَ أَنْ يتسعَ الملجأ إلى قرابة ١٤٤ بيت يعودُ مُعظمها إلى أُسرِ عمالٍ وموظفي شركةِ الفوسفات والمناجم، كانً من المفترضِ حسبَ توصياتِ الشركة المُتوسطية للفوسفات أَن ينتقلَ

إليها الأَفراد فقط، لكنْ سرعان ما تحول الأَمرُ إلى ما يشبه الهجرة الجماعية لَلعائلاتِ، بين المنزل والمنزل بنى الناسُ بيوتًا ضَيقة أَشبهَ بالأكواخِ والخيام من القصدير والبلاستيكِ.

خيلُ إلى (أَحمد) أَنهُ يشمُ رائحة قلي قريبة، ارتَبكَ.. هل المنظارُ قادرٌ على التقاط الروائح أَيضًا؟ استدارَ ليصرخً لـ (عادل) الأَمهق بهذا الاكتشافِ عندما وجدهُ قَد فتح مغلف طعامهِ وبدأ يقضمُ شطيرة الكبدة والبطاطا، كان يُريدُ أَن يصرخَ «إنها لِي» لكنهُ كتم كلامهُ امتعاضًا، فيبدُو أَن إعارة المنظار له لم تكنْ بالمجان، فقد أكل ما كان مِنَ المُفترضِ أَن يكون غداءهُ بعدَ ساعاتٍ.

استلقى أَحمدُ على ظهرهِ، وترك المنظارَ، يرقدُ على بطنهِ قبلَ أَن يسحبَ حباتِ فول يابسٍ من جيبه:

- هل أَنتَ واثقٌ؟ هل أَستطيعُ الاحتفاظ بالمنظار؟

أَجابَ صديقهُ وَهو يثبتُ نظارتهُ على أَنفهِ:

- نعم

افترش الأَرض برملها، وجلسَ عليها وسط الحشائش المُتفرقة والحشرات، وهو يتَأملُ عدستي المنظار المُتوهجتين تارة، والشطيرة تارةً أُخرى.

تفرَّس أَحمدُ في شكلِ أُذني صديقهِ، كانتا كبيرتين بارزتينِ، كان فتى مُدللًا بمقاييس تلك السنينَ، يتناولُ صباحًا شرائح خبز بالزبدة والبيض مع العسلِ، ومن المُتوقع منه أَن يكونَ مُعلمًا أَو حتى مسئولًا بشركةِ الفوسفات، لما لاَ؟ قال له المعلمُ إدريس أَن بعلاماتهِ المرتفعةِ يُمكنُ أَن يكونَ مُوظفًا مقتدرًا.

أَما هو فقد قيل له بكلِ حيادٍ:

– يا أَحمد، اصنع ما شئتَ فَلن تكونَ أَكبرُ من والدكَ المُزارعِ بكفين مُهترئين وظهرٍ مقوسٍ، يبقى هذا أَفضل من وجه يملؤه السخام!.

نهض الأَمهقُ بنصف استقامة، والتَفتَ وراءه إلى حيث كانَ أَحمد يُراقبُ بالمنظارِ، لقد اختفى كل شيءٍ ليستحيل مُجرد أَشباحٍ غير واضحة المعالم، والألوان تتراقص أَمامه نقاط ملونة.. رفعَ المنظارَ أَمامَ عينيهِ بعدما نزعَ نظارتهُ.

لا يزالُ اعتصَام عُمالِ المناجم قائمًا منذُ أَيام، بعضهم انغرسَ أَمامَ بوابة الشركةِ المُتوسطية فَي مدينةِ المظيلةَ، والآخرونَ فَضلوا أَن يعتصموا أَمام منزل المعتمد، رغم أَنَ مبنى البلدية لم يبعد إلا مسيرة دقائق، اعتصموا بصخب في أَول الأَمر حتى أَمرهم كبيرهم بالتزام الصمتِ والهدوء، وقلةٌ قليلة انضمتْ كُرهًا أَو فَضولاً.

خرج المعتمد، الذي لم يكنِ أَبدًا سيخرج إليهم لولا أَن توقف عَمليات استخراجِ الفوسفات يُمكن أَن يُهدد مستقبله الوظيفي، ولكي يؤكدَ على جدية الأَمر دفنَ قلمًا وراء أُذنه، وحمل كتابًا عن النقابات العُمالية.

يذكرُ أَحمدُ أَنهُ صرحَ لوالدتهِ بسرهِ عندما أَعلمها بكلِ جديةٍ أَنهُ سيتركُ المدرسةَ ليعملَ بالمنجم، يومها ولبرهةٍ ظنَ أَنها ستحضَنهُ وتَشكرَ حُسنَ تفكيرهِ؛ خاصةً بعدَ أَن وضحَ لها:

– (حسن) ولد عم الغالي، صارَ عاملًا في المنجم، ولم يتم عامه الثاني عشر، لم لا أَستطيعُ؟

عندها فقط لطمتهُ على قفاهُ قبلَ أَن يكملَ سؤالهُ:

-لأَنكَ لستَ ولد الغالي.. أَنتَ ابن المُنجي، ولن تستطيعَ فعلَ ذلكَ قبلَ أَن أَقطعَ رقبتَكَ.

سكتَ مرغماً فقدْ كانَ ممانعًا لقطع رقبته!.

العملُ بالمناجم حلمُ الكثيرينَ، فَبسببِ طبيعة الطقسِ الحار والرياح الجافة تندرُ المياهُ بيَن هذه الهضابِ وتحتَ أَراضي المنسيةِ ولأَنَّ الله لا يخصُ الخيراتِ أَرضًا لوحدها، خصَ المنسية فيما خصَ أَرضَ المظيلةِ بنعمة الفوسفات التي حبلتْ بها جبالُها.. لذلكَ يعملُ معظم سُكانها ما بينَ مناجمِها أَو مجمعها الكيمياوي الذِي انتصبَ منذ أَكثر من ثلاثةِ عقُودٍ.

زحف عادل الأَمهقُ، كما يُناديهِ أَصحابُهُ، للأعلى بجانب أَحمدُ بعد ما أَنهى غداءهُ، وراقبَ.. كانَ من المفروض أَن يمرَ بعدَ المدرسةِ لزيارةِ الجدُ (بوزيد) لتسليمهِ ما أَوصتهُ عليهِ والدتهُ الطاووس:

- هل سأَجدُ جدكَ في المنزلِ العشية؟.

بدونِ أَن يتركَ المنظارَ منْ يدهِ:

- نعم.. إنه في المنزلِ أَو المقهى.. لماذا؟

التفتَ أَحمدُ وأَجابَ وعيناهُ معلقتَانِ على ما خلفهُ:

- لا شيء.

حيثُ ارتفعتْ أَعمدةُ الدُخانِ الخارجةِ من المجمع الكيمياوي التابع للشركةِ المُتوسطيةِ للفوسفات خلفَ جمعٍ من منازلِ المنسيةِ.

-لقدْ تأَخرنَا على المدرسةِ، لنذهب.

خطفَ منهُ المنظارَ ونزلَ المرتفعَ من الأَرضِ بسرعةٍ، تتبعهُ عادل وقد التقطَ حقيبتهُ:

– لماذَا تفتكهُ؟ لقدْ وعدتكَ بأَنني سأُعيرُكَ إياه.

تمتمَ أَحمد وقدْ ابتعدَ عنهُ بمسافةٍ:

– سأُخفيه في حقيبتي ويُمكنكَ أَخذهُ بعدَ المدرسة.. هل ستذهبُ للمسرحيةِ بعدَ ليلتينِ؟.

أَومأَ عادل في سخطٍ مُراقبًا أَحمد وهوَ يحشرُ المنظارَ في حقيبتهِ:

– نعم، مع علياء.. لنتسابق حتى المَدرسةِ.

لم يكنْ يعنيهم مرورَ الزمنِ إلا لكيْ يكبروا يومًا، لم تعنيهم المُشاحناتُ على الأَراضي بين العائلاتِ أَو الاعتصامات أَمامَ المعتمدية، أَو مَن قطعَ طريقَ من، ومَن خانَ من.. كلها بدتْ مُجردَ أَحداثٍ مملةٍ مُقارنةِ بالرغبةِ في المُغامرةَ وتجاوزِ حدودِ الحزامِ الأَصفرِ.

***

«مخطئون فيما قالوه عن الماضي، لقد تعلمتُ كيفَ أدفنه..
إلا أنه دائماً يجد طريق عودته».

عداءُ الطائرةِ الورقية،

خالد حسيني.

كانَ قد مضى قرابة ربع ساعةٍ عندما وصلتْ سيارةُ النقلِ الريفي التي نزلَ منها (نصر الدين) بيدين مشغولتين بحملِ حقيبتينِ، عندها كانت الشمس تتوسط السماءَ، مما جعلَ وجههُ مصبوغًا بالَعرقِ:

- اركب السيَارةَ.

لم يستطع الغزواني أَن يحددَ إن كانت الحقائبُ ممتلئة بالملابس أَو الكتب، فبعدَ قرابة السنتينِ من العملِ سَويًا كانَ قد كونَ فكرةً تكاد تكوِن واضحة عن مُساعده؛ بل سَيكون مُبالَغًا في طمعه إِن افترض أَنه لا يحمل أَي كتاب.

كانَ الغزواني قد زارَ والدتهُ واستلمَ سيارتهُ عندما هاتفهُ نصر الدين ليلقاهُ في محطة النَقلِ، تمتم نصر الدِين:

- كيفَ يعيشُ السكان مع دوي الانفجارات القادمة من مناجمِ الفوسفات؟.

توالتْ الانفجاراتُ القادمةُ من جبالِ المظيلةِ وراءهم، عندما أَجابهُ:

- لقد اعتادوا.

أَوقفَ الغزواني مُحركَ السيارةِ أَمامَ المدخلِ الخلفي للمبنى الملحق لمركز الشرطة حيث تقعُ غرفة عملياتهم.. نزلَ منها مرؤوسهُ مُسرعًا مُتوجهًا لحمامها:

- إِنهُ في آخر الرواقِ.

بينما دوى انفجارٌ آخر.

أَلقى الغزواني التحيةَ على حارسِ المقر، كانَ شابًا صغيرًا حديثَ التخرجِ.. يقفُ أَو يجلسُ بالساعاتِ أَمامَ المَدخلِ، قامَ (أَنور الحامدي) بتعيينهِ هنا على أَن لا تتجاوزَ وظيفتهُ حراسةُ مدخلِ الغرفة. أَطلقَ الغزواني نفسًا طويلًا حارًا ورفعَ رأسهُ ناحيةَ الغربِ، حيثُ ارتفعتْ سحابة الترابَ فوقَ قممِ جبالِ مناجمِ المظيلةِ، وبيْنما كانَ يهمُ بالاتصالِ برئيسهِ مر من أَمامهِ طفلٌ يركَضُ.

كان هناك شعورٌ بالقلقِ يراودهُ كلما شاهدَ طفلًا لا يُرافق أَحدَ والديْهِ.

راحَ الغزواني يتذكرُ تلكَ الطفلةَ ذاتَ الجدائلِ الكستنائية الكثيفةِ، على الأَقل هكذا بدت في صورِ ملفها لأنه عندَما وجدها بعد خطفها كانت بشعرٍ قصيرٍ لا يصلُ حتى لكتفَيها الهزيلتينِ، (غُفران).. لقد مرت سنةٌ منذُ أَنَ شاهدَها آخرَ مرةً مع والدتها (رحمة)، وهيَ تهمُ بركوب سيارتها بأَحدِ شوارعِ العاصمة، أَثناءَ حديثها الخاطفِ ذكرتْ أَنَ ابنتها لا تزالُ ترى الكوابيسَ فيَ منامِها.. كان لقضيتها الفضل الكبير في شهرتهِ وربما حتى بجعلهِ مسئولًا عن هذه الوحدة.. فقد كانتْ صورهُ تتصدرُ الصفحاتِ الافتتاحيةِ لكبرياتِ أَبواقِ السلطةِ الرابعةِ لعدةِ أَسابيعَ قبلَ أَن تتلاشى مع تلاشي الاهتمام بالموضوعِ.

سُحبَ من ذكرياتهِ عندما انطلقتْ صرخة فجأة من غرفةِ التحقيقاتِ.. حيث دخلَ نصر الدِين.

استلَ الغزواني مُسدسهُ ودخلَ بحذرٍ، وجهَ فوهةَ المُسدسِ أَمامهُ.. على الأَرضِ كانَ مرؤوسهُ يتلوى وهوَ يغطيٍ وجههُ.. بينما وقفتَ خلفَ ساقيهِ فتاة.

برقَ الغزواني عينيهِ فيها وبعلبةِ البخاخِ التي تحملُها:

- أَنتِ؟ من أَنتِ؟ وماذا تفعلين هُنا؟

بدتْ الشابةُ أَقلَ فزعًا من الملقى تحتَ قدميها:

- أَوليسَت هذه الغرفة غرفة التحقيق المُستقل؟ أَنا (شوق) أَحد أَفرادِ فريقكَ.. أَلستَ قائد فريق وحدة القضايا الباردة؟.

قالت ذلكَ وهيَ تحدقُ بفوهةِ مُسدسهِ، بعيونٍ واسعةٍ وساقين طويلتين ووجه دائري، وشعر بلون الفحم مسحوب للوراء ينتهي بكعكة كما لون عينيها.

أَنهى تحديقه وهو ينتظر أَية إِشارة منها على مزحتها لكنها كررت:

-لقد أَرسلني رئيس التحقيقِ (سيف الطرابلسي) لأُعززَ فريقكَ.. لم أَدخل إِلا بعدَ أَن تحققَ الحارسُ من شارتي.. إن أَمرَ تعييني تحتَ رئاستكَ في سيارتي بالخارجِ.. هلاَ أُحضرها قبلَ أَن تطلقَ النار؟.

أَشارَ إِليها بالذهابِ وهو يشتمَ في سرهِ.. كيفَ لم ينتبه لتلكَ السيارةِ الغريبة المُنتصبةِ ليسَ ببعيدٍ عن المدخلِ، يبدو أَن شمس البلدةِ تأْثرُ على قُدراتهِ.. سحبَ نصر الدين ليقف على قدميهِ:

- لا تفرك عينيك.. ستزيدُ الوضعَ سوءًا.

-هذهِ الفتاة رشتني بالبُخاخ مُباشرةً في عيني!.

هتفَ نصر الدين وقدْ احمرت جفونهُ:

- أَوليسَ أَفضلُ من رصاصة؟.

دخلتْ شوق الغرفةَ وهيَ تحملُ وثيقةَ تعيينها رسميًا:

- لقد لمسني من صدري!.

فتح الشاب نصفَ عينيهِ وهو يصرخُ:

– لقد وضعتُ يدي على كتفكِ وليسَ صدركِ.. كيفَ دخلتِ إلى هنا؟! تبًا يجبُ أَن أَدخلَ المرحاضَ!.

بصوتٍ قوي حاولتْ أَن يكونَ ثابتًا وضحت شوق:

– طبعًا، لقدْ مررتُ على المقر الرئيسي وسمحتُ لنفسي بأَن أَطلبَ مفتاحًا بديلًا من رئيسِ المركزِ.. لقدْ كانَ مُتعاونًا.

***

جلسَ أَربعتهم حولَ الطاولةِ وقدْ وزعَ الغزواني عليهم نسخًا من الملفِ الأَصلي للجريمة:

– لنراجع حيثيات القضيةِ.

كانَ نصر الدين يُطلُ بعيون جاحظة محمرةً شبهها عماد، وهوَ يضحكُ، بعيونِ الحرباءِ، بينما ظلت شوق صامتةً طوالَ التجهيزِ لتحليلِ أَوراقِ القضيةِ مُدققةً النظرَ في الشابِ الماثلِ أَمامها بهندامٍ أَنيقٍ وشعرٍ قصيرٍ محلوق بالموسِي، لم يبدُ سيئًا رغمَ جفنيْ الحرباءِ.

مقر التحقيقِ المُلحق بمركزِ شرطةِ المظيلةِ كانَ عبارة عن قاعةٍ واسعةٍ تتصدرُ المكانَ، وقدْ أَحيطت بثلاثِ مكتباتٍ ولوحات كتابة بيضاء من الحجم المتوسط، وثلاجة صغيرة مركونة بأَحدِ الجوانبِ ومروحةِ سقفٍ، امتعضَتْ شوق وهيَ تتفحصُ مكوناتها الفقيرةِ.

تكونَ الملفُ من عدةِ أَوراقِ رسميةٍ وصورَ من التشريح، مضافٍ إِليهِ تقرير الطبيب الشرعي، توقفت نظراتُ الغزواني فوقَ صورِ مسرحِ الجريمةِ، تجهمَ وجههُ وهو ينتقلُ لتقريرِ رئيسِ قسمِ الجناياتِ السابقِ.

-الضحية عادل الصغير ١١ سنة، قتلَ ليلة ٢٣ جوان من سنة ١٩٨٨، عُثرَ على جثتهِ ملقاةً بالقرب من منجم مغلق على بعدِ كيلومترين من آخر مكانٍ شوهدَ بهِ حيًا، وأَقصدُ هنا معقلَ الشهيدِ أَي الساحةِ التي تقعُ خارجَ البلدةِ، ليلتها تم عرضُ مسرحية التأمت على شرفِ الحركة العُمالية.. مسرحية تابعها الحضور ومنهم الضحية.

-وأَكثر من أَلفي شخصٍ آخرين.

أَردفَ عماد.

التقطَ الغزواني تقرير التشريح وواصلَ الشرحَ:

- كانَ الطفلُ مطعونًا، حسبَ الطبيب الشرعي، ثلاثِ مرات: طعنتانِ في الجانبِ الأَيمنِ من الظهرِ وطعنة بالكتفِ الأَيسر.. سببُ الموت النزيف.. تحفظَت الشرطةُ على سلاحِ الجريمةِ بالقربِ من الجَثةِ.. أَمامكم صورِ الأَداةِ المُستخدمةِ.. فأس صغيرة.. لقد تم تمشيطُ البلدة والمنطقة الجبلية المُحيطة منذ العثورِ عليها.

زورت شوق ما بين حاجبيها وهيَ تقرأ ما دوَّنِ في أَحدِ الأَوراقِ:

- لماذا انتظرت العائلةُ ليلة كاملة للبحثِ أَو التبليغ عن اختفائهِ؟! حسبَ ماهو مدونٌ هنا قامَ والده (ضوء الصغير) بالإعلام عنهُ بِمساءِ لَيلة ما بعد الاختفاءِ.. هذا غريب!.

تابعَ الغزواني تفسيرهُ متجنبًا النظرَ إِليها:

- الطفل كانَ يتيمَ الأُم.. والأَب «ضوء الصغير» كانَ مُتغيبًا لعدةِ أَيام عن المنزلِ بسببِ رحلاتِ صيَدهِ، ومن العادة أَن يبيتَ الطفلُ عندَ جدتهِ لوالدهِ أَو أَحَدُ أَقاربهِ.. كما لم يكن من الغريبِ أَن يقضي القتيلُ ليلتهُ عند عمتهِ أَو

عندَ قريب لهم خاصةً في ليالي الأَفراح أَو المهرجانات وهذا ما افترضهُ الجدُ ليلتَها.. هذا يُجيبُ على تساؤلكِ يا شوق.

استكملَ عمادْ الكلامَ:

– لكنه اختفى تلك الليلة، وأنكر الأَقاربُ والجيرانُ رؤيته.. تم العثور على الجثة بعدَ قرابةِ الـ ٤٨ ساعة، بعدها تابعنا نحنُ كأَفرادِ شرطةٍ السؤالَ على أمل أَن يكون أَحدهم قد شاهد شيئًا، رغم أن أَقرب منزل مجاور كان على بُعدِ نصفَ كيلومتر.. لكننا حرصنا على الالتقاء بمن يعيشون قرب الطريق الرئيسية، والمتجولين أيضًا.. تم توسيع رقعة البحث لتشملَ الملجأ والمواقع الأثرية والحي الأُوروبِي، كما تم تغطية المناطق الجبلية القريبة من موقع العثور على الجثة؛ لكن لا شيء.

سحب نصر الدين نفسًا طويلًا وهو ينظرُ إلى صور التشريح:

– مَنْ منَ المُمكن أَن يكون يريد إيذاء طفل؟ من له دافع قوي كفاية ليقتلهُ؟ خلافات عائلية؟ أَو أَحدٌ ما حاقد على والدهِ؟.

هزَ عمادْ رأسهُ:

– وقتها قمُنا بالبحثِ حولَ هذه النقطةِ، أَقصد سألنا عن والدهِ، لم يكنْ على خلافٍ مع أَي أَحَد.. لذلكَ استبعدنا الأَمر مع التقدمِ في البحثِ، «شخصُ مُسالمٌ» هكذا وُصفَ الأَبُ قبلَ أَن يتورطَ في جريمةِ قَتلٍ بعدَ وفاةِ ابنهِ بثلاثةِ أَشهر.

تعلقت العيونُ بهِ مع هذهِ المعلومةِ الجديدةِ، فتحتْ عينا نصر الدين على وسعهما رغمِ آلامهِ، كما تراجعتْ شوق للخلفِ مَصدومةً.. تابعَ عمادْ توضيحَ ما حصلَ

- بدأَتْ أَحوالُ الأَبِ العقليةِ في الانحدارِ يومًا بعدَ يوم خلالَ شهورِ الصيفِ، مُخلفاتُ مقتلِ ابنِه الوحيدِ كانتْ قاسيةً عليه.. شوهدَ عِدةَ مراتٍ وهو في حالةٍ رثةٍ يجوبُ الجبالَ، ويحومُ حولَ مسرحِ الجريمةِ والأَمكنةِ التي كان يترددُ عليها ابنُهُ.. تركَ الصيدَ وسكنَ الجبلَ حتى عُثرَ عليهِ بجانبِ جثةِ أَحدِ الموظفينَ المحليينَ (ياسين الغزي).. خنقهُ في فورةِ غضب.. في الواقعِ أَنا من تلقيتُ اتصالًا ينبئنِي بمكانِ (ضوء).. كانَ المشهدُ من أَسوأ ما يكونُ.. المهم حكمَ على ضوء بالسجنِ مدى الحياةِ وقدْ أُفرجَ عنهُ قبلَ ثلاثِ سنواتٍ تقريبًا.

توقفت عيون شوق عندَ رئيسها وقالتْ:

- يَجبُ أَن نستجوبهُ في القريبِ العاجلِ.

-هذا غيرُ ممكن.. إنهُ في مستشفى خاص للعلاج.. حاولَ قتلَ نفسهِ حرقًا قبلَ قُرابةِ السنتينِ.. نجا لكنهُ يتنفسُ فقط.. لقدْ فقدَ ارتباطهُ بالواقعِ تقريبًا.

زفرَ نصر الدين مُحبطًا، بينما بدتْ شوق أَكثرَ إِصرارًا:

- نحتاجُ إِلى تقريرٍ طبي يُفسرُ حالتهُ.

-سنطلبُ ذلكَ.

تمتمَ الغزواني.

تمتمَ الغزواني وهوَ يتفقدُ مُحتوى كوبِ قهوتهِ البارِدِ:

- سنعيدُ استجوابَ الشهود، لن نكتفي بالأسماءِ القليلةِ المُدونة في الملفِ القديم.. كما نحتاج إلى جدولة أسماء كل من اتُّهموا بالعنف أو اعتقلوا بسبب إيذاء الغير.

تململَ نصر الدين وهوَ يحدجُ عماد:

-كان من المفروض أن يكون لنا قائمة جاهزة من التحقيق الأَصلي.

رفعَ رئيسهُ كلا ذراعيهِ:

- كما ترى لا يوجد، لنحاول حصر الأسماء في نطاق زمني مُعين، سنتان قبلَ زمن الحادث، شوق ستتولينَ أَنتِ الأَمر، ركزي على هؤلاء الرجال الذين يعيشون في الجِبال.. خاصةً الذينَ على ذمتهم سجلاتٌ إجرامية.

سأَلت شوق بتشاؤمٍ:

- هل تظن أننا سنجد السجلات الإجرامية لكل من ارتكب جريمة في ذلك الوقت؟.

-جربِي الأرشيفَ.. آه، وأيضا يجب أن تمرَي أيضا على نقابة الشغلِ.. ابحثي فِي سجلاتهم عن العمال الذينَ يطابقونَ المُواصفات التي نبحث عنها.

-لماذا عُمال؟

-أَغلبُ الذينَ كانوا مُتواجدينَ في ساحةِ معقلِ الشهيدِ هم من العُمال الذينَ قدموا مِن كل أَحياءِ المظيلة، وحتى من كلِ نواحي قفصة، ليُتابعوا المَسرحيةَ.. كما أَن سلاحَ الجَريمة فأَس يستعملُ في المَناجم.. نصر الدين تولى مهمة الحصولُ على الفيديو التوثيقي الذي سجلته هيئة التلفزيون والإذاعة التونسية عن المسرحيةِ، يُمكن أَن يفيدنَا في حصر الأَسماء المشكوك فيها.

-حاضر.

التفتَ ليمينهِ وقال:

- الشرطة المحلية من خلال زميلنا الجديد السيد (عماد الفرشيشي) ستُحدد طريقة الاتصال بالشهود وأقارب الضحيَةِ.. هم أكثر دراية بذلكَ.

-طبعًا.

دوَّنَ رئيسُ الفريقِ بعض الكلماتِ على لوحِ الكتابةِ وهو يوجهُ كلامهُ لشوق:

- بالنسبةِ لاستعادة الأدلة، تواصلي مع مكتبِ الأَرشيف بمركزِ الشرطة المحلي، هناك أَمرٌ بتزويدكِ بصندوقِ أَغراضِ الضحية ومتعلقاتهِ سأَتصلُ لإعلامهم بقدومكِ.. هذه الكثير من التخمينات والافتراضات من الأَفضل الانطلاق من الأَدلة ومواصلة البحث المجدي.. لذلكَ لنبدأ بتقفي مصدرِ السلاح.. على كلُ هذا أَولُ ما سنفعلهُ بعدَ الغد.

اعتصرَ الغزواني المسحة بين أَصابعهِ قبلَ أَن يُعاودَ مسحَ سطحَ اللوحِ:

- ما هذا؟ هل كتبتُ بقلم لا يمحَى؟ نصر الدِين من أَينَ أَتيتَ بالأَقلامِ؟!

رفعَ الشابُ كتفيهِ:

- هذا ما وجدتهُ من أَقلام في المكتبة.. أَليس من المفروضِ أَن توفرَ الهيئة عن طريق الشؤون المالية سيولَةً كافية لصرفها على المُستلزماتِ العاجلةِ؟

أَغمضَ الغزواني عينيهِ مستاءً:

-وهل ترى شيئًا هنا يؤكد أَن الهيئة مهتمة بنا؟ تدفعنا إلى إعادةِ فتحِ ملفٍ قديمٍ بدونِ أَن تكلفَ نفسها حتى بتوفيرِ قلمِ تلوين مُناسب!.

رمى القلم في أَحدِ الأَركان:

- نحتاجُ إلى سلةِ مهملات أَيضًا.. على كلٍّ يُمكنُ أَن تُغادروا.. عطلة سعيدة.

غادرَ عماد المقرَ بعدَ أَن أَخذَ الإذنَ، فبعدَ كلِ شيءٍ كانَ من المفترضِ أَن يبدؤوا بمراجعةَ معطياتِ التحقيقِ السابقِ يومَ الإثنينِ القادم.

كانت شوق أكثر فاعلية مما اعتقدَ رئيسُها، فقدْ رتبتْ مُحتوياتِ الملفات من تقارير أَولية إلى نهائية إلى إفاداتِ الشهودِ والعائلةِ والأصدقاءِ، ونظمتْ

قُصاصاتِ الجرائد التي كُتبتْ عن القضية، تقارير الأدلة والتحقيقات التي لم تسفر عنِ شيء، معَ قائمة بجميع الأفراد الذين عملُوا بالقضية في تلك الفترةِ.. كلَ ما فكرَ فيهِ الغزواني وهوَ يُراقبُ مُحاولاتها هوَ أَن يستنزفَها بالكاملِ إِن كانَ يريدُ منها أَن تعود أَدراجها بسرعة لصفاقس.

بينما كانت تُجهزُ المكان قبلَ المُغادرةِ تجولَ نصر الدين في الغرفةِ الواسعةِ وهوَ يتفحصُ مكتبهُ، أَغلقَ وفتحَ الأَدراجَ الفارغةَ، عبثَ بأَزرارِ جهاز الراديو القديم الذي يشبه ما كانَ على ملكِ جدهِ، تساءل إِن كان يعملُ؟

- كانَ لأَبي

ردَ الغزواني مُحتجا كمنْ كان يقرأ أَفكارهُ:

- جلبتهُ معي من بيت الوالدة.

تخلَى نصر الدين عن حُلمه أَو أَجلهُ بعدَ أَن أُصيب بخيبة أَملٍ كبيرةٍ لصعوبةِ فتح دارٍ للقصصِ المصورةِ، وما يُرافقُ ذلك من تعقيداتٍ إِدارية وعراقيلَ مالَية:

- نصر الدين، ماذا حلَ بسلسة الكوميكس التي كتبتها؟

استحسن المُساعدُ تعاطفهُ، تنهدَ وهزَ كتفيْهِ:

- لقدْ رفضتْ من قبلِ ١٣ دارِ نشرٍ تواصلتُ معها عبرَ البريدِ الإلكتروني، ثمَ أَخبرتُكَ أَنها مانغا.. حتى أَننيَ لم أَعد أَعرفُ ما تُسمى.

خفت الحماسةُ في صوتهِ وقدْ عانقَ العُبوسُ وجههُ فقد كان من السيء أَن تكون أحلامه مقيدةً برد يُشفي غليله:

- الأَفضل أَن ترافقني دائما فأَنت لا تعرفُ المنطقة وخصوصًا سُكانها. وفقًا للمعلوماتِ الوحيدةِ التي عرفها مرؤوسهُ عن البلدةِ من موقعِ جوجل

أَنها تشهدُ بعضَ الاضطراباتِ منذُ أَيام، فقدْ احتاج إِلى مراجعة خريطةٍ إلكترونية ليحدد مكان المنسيةِ التابعة لمعتَمدية المظيلة، حسب ما قرأَهُ هي لا تبعد سوى عدة كيلومترات عن مركز المدينة، وهي أَقرب للحوض المَنجمي من المَصنع الكيماوِي.

انضمت إِليهما شوق، التقطت الكتابَ واسترخت على كنبة مُنخفضة كالتي كانت فِي غرفتها، ملأ عطرها خياشيمَ الغزواني الذي تململ وقالَ:

-نحتاجُ إِلى طابعة أُخرى على الأَقل وحاسوب آخر وجهاز فاكس وهاتف قار، وقبلَ كل هذا إِلى براد حقيقي.. هذا يبدُو وكأنه سينفجرُ في وجهنا.

أَشارَت عيناهُ إِلى برادٍ قديمٍ مُصفرَ اللونِ.

***

انحدرَ أَحمد الغزواني بسيارتهِ مُتجاوزًا قلبَ المدينة صاعدًا لأَحدِ الشوارعِ الرئيسيةِ، حيثُ انتصبَ فندق الغَدير، ليسَ ببعيد عن كنيسةٍ إيطالية بنيتْ في بدايةِ القرنِ العشرين، أَصبحت الآنَ بالكادِ مَزارًا سياحيًا. كانَ يحفظُ شوارعَ وأَزقةِ المظيلةِ كعهدهِ بالمنسيةِ، فقدْ نشأَ في أَطرافِ هذه البلدة المعزولةِ التي تبعدُ عن العاصمةِ ب ٣٠٠ كيلومتر، بين جبالِ صخرية جافة تميل للاصفرارِ، حفر بها أَقدمُ مناجم الفوسفات التي عرفت أَوجَ ازدهارها في فترة الاستعمار الفرنسي، وهاهيَ الآنَ تحتضرُ بعد أَن تم استنزاف أَحشائها وأُغلقت عدة جبوب منها. بلدة أعتم لونها بسبب غازاتِ المُجمع الكيماوي.

تجاوزتْ الساعةُ السابعة مساءً عندما خطا الغزواني أَولَ خطَواتهِ في بهو فندق الغدير، أَرشدتهُ عيناهُ مُباشرةً إِلى مقعدِ عماد.. لمَ يكنْ وجودهُ هنا وفي هَذهِ الساعةِ من الزمنِ غريبًا عليهِ، فلطالمَا سمعَ أَخبارًا عن مجُونهِ وتوقهِ لتحقيقِ ملذاتهِ.

بادرهُ الخمسينِي باندِفاع ليخففَ من إحراجِه:

– فلتتفضلْ معي.. خذْ نفسًا وتوجه بجسمكَ نحوَ ما تبثهُ المُكيفاتُ.. إنِ هواءها مُنعشٌ كإعلان فلوريدا(١).

انحَنى وهمسَ وقدْ انشرحتْ ملامِحهُ:

– في الليلِ يُمكن أَن تتحصل على مَشروباتٍ مَجانية منَ البارِ إن كنتَ محظوظًا، والنساء.. آه من النسَاءِ إنهنَ شيء آخر.. ملاكٌ أَبيض!.

قالَ ذلكَ بدونِ أَن يمنعَ عينيهُ من تتبع حزمةٍ منَ الشقرواتِ الأُوروبياتِ.

تمتمَ الغزواني بعدَ ما رأى ما لا يُعجبُهُ:

– أَليسَ من المُفترضِ أَن تكون الآن في منزلكَ تعمل على إصلاحِ ما بينك وبين زوجتكَ؟ أَلم تخبرِني أَنكما متخاصِمانِ؟

زفرَ عمادْ ثُمَ حشر في فمه قطعة مقرمشات:

– أَنتَ حقًا منغصُ نعمة.. أُحدثك عن كائنات تشع لحمًا أَبيض وأَنتَ تحدثني عن النكد المَحتوم؟!

أَخبرهُ الغزواني عن سرِ وجودهِ هنا بعدَ أَن سألهُ عماد الذي أَطلقَ على الفورِ ضحكة تشبهُ الشخيرَ:

– ستلتقِي بسالم؟ أَقولُ هذا وأَنا أَعرفُ أَنه صديقُكَ أَو أَنهُ كانَ كذلكَ.. إنهم لا يحبونه.. لا أَحدَ هُنا يُحبه.. أُراهن أَنَ أُمه كذلك.. يحبون ماله وهذا كَفيل لوحده بأَن يُرددوا مبتسمينَ صباح السيد مساء السيد إِن اقتضى الأَمر ذلكَ.

---

(١)عصير برتُقال.

-أَنت مُتحاملٌ جدًا ضدهُ

انساب خيط من النبيذِ من زاويةِ فمهِ وسقطَ مُباشرة على صدر قميصهِ:
-مُتحامل؟ سوفَ ترى.. اتركنَا من هذا الأَمر.

ربتَ على كتفهِ بقوةٍ فجأَةً:

- من الجيدِ أَنَ ابن بلدتنَا يتولى إِحدى قضايانا.. يبدو أَن الأَسياد الحاليين راضيين عنك يا أَحمد يا غزواني!.

لم يكنِ يستسيغ هذا التَقاربَ غيرَ الجدي بينهما وإِن كانَ مأْلوفًا، حتى لو كانَ الأَخيرُ لا يراهُ سوى طفلٍ من المنسيةِ كبرَ ورجعَ لبلدته الأُم إِلا أَنه يظلُ رئيسهُ في العملِ. رغمَ ذلكَ لم يجد نفسهُ إِلا يضحكُ متسائلًا هل كانوا يسأَلونه؟ من عينوهُ.. عليه اللعنة إِن كانوا فكروا ولو قليلا بذلك فقط هم أَعلموه «ستقود الوحدةِ» لماذا سيسأَلونه؟ لا أَحد يرفض منصبًا أَفضل وإِن كان مستحدثًا، وراتبًا أَعلى من راتبه الحالي وامتيازات لم يرى منها سوى الحبر على الورقِ.

فضل أَن ينظرَ للجزء الممتليء من الكأس، فكرَ إِنها صفقة جيدة عليه أَن يمضي قدمًا فيها، كانت الخيوط واضحة، يفتحُون تحَقيقًا.. يستجوبونَ بعض الأَسماء التي لا تزال حية.. يتناولونَ بعض التمر ويرجعونَ، ما أَقلقه فقط هو ذلك السؤال لماذا هو؟

أجاب عماد في عدم راحة:

- لا أُخفي عنكَ الأَمر.. لقد فكرتْ لماذا هم هنا؟ لم قسمنا؟ في الواقعِ وجودكمْ يجعلنا وكأَننا قد قصرنا في عملنا.

استغرق الغزواني بضعة لحظات قبل أَن يُجيب:

-إلقاءُ نظرةٍ أُخرى يُمكنُ أَن يفتحَ الأَبواب لمراجعةِ قضايا سابقة.. قضايا لَم يتجاوز أَحدٌ مخلفاتها للآن.

أَغمضَ عينيهِ وقدْ قفزَ من ذاكرتهِ صورةُ أَربع جثثٍ لفتياتٍ في شاحنةٍ مقلوبةٍ.. حادثةٌ هزتْ الرأيَ عامَ التونسي قبلَ سنواتٍ وكادْ تُطيحُ بعدةِ رؤوسٍ مع فشلِ الكشفِ عن الجُناةِ.. أملَ فقط بعدَ قبولهِ لمنصبهِ الجديدَ أَن يتمكنَ من فكِ طلاسمها.

نفض عماد بعضَ القطراتِ عن صدر قميصه:

- الأشخاص الذين عاصروا القضية منذ بدايتهم أَغلبهم توفوا أَو سافروا.. مثل المحقق الرئيسي وفريق التحقيق ومُدير المنجم الفرنسي، لم تَبق إلا عمةُ الضحية وابنتُها علياءِ.. هذا يعني أَنهُ ليس هناك الكثير من الشهود الباقين أَحياء من تلك السنوات.

التفتَ إِليهِ وسأَلَ:

- بالنسبة لذلك المُحقق الذي حققَ في القضيةِ ماذا كان اسمه «العفاسي» شيء مثل هذا؟

صححَ عماد:

- (العياشي)، لقد توفيَ منذ سنتين أَو أَكثر.

-كيفَ كان؟

-كانَ نزيهًا لكنه أَيضًا كسول، لم يرغب أَن يبذلَ أَي جهدٍ إضافي في التحقيق، صبَ جميعَ جهودهِ على أن تكون الجريمة مناسبة تمامًا للقفصي،

لم يتابعِ بعض الخيوط الرقيقة التي يمكنُ أَن تحولَ وجهة القضية.. أَذكرُ أَنها كانت أَيام عصيبةِ علينَا: جريمة قتل، طبيب مات محترقًا.. قاطرة فوسفات انقلبتْ.. تلكَ الأَيام لم تكن لطيفة أَبدًا.

تركهُ مع كأسهِ بعدما لمحَ سالم قادمًا من بعيدٍ.

***

القاعة الرئيسية للفندق اليتيم في المظيلة كانت شبه خالية من الضيوفِ، حتى في موفى فصل الربيعِ:

- المالك يفكرُ ببيعِ المبنى.

أَخبرهُ سالم عندَ جلوسهِ عندما لاحظَ نظراتِ الغزوانِي الذِي رد مازحًا:

-من المؤسفِ أَنني لا أَملكُ سيولةً كافية!.

كانا جالسينِ على كنبةٍ واسعة قربَ النافذةِ المُطلةِ على جانب من معلم يعودُ للفترةِ الرومانيةِ في الجهة المعاكسة من وهج الشمس، نافذة مغلقةً تحاصرُ نسمات المكيف الرطبة.

إِنَه هو، كما يتذكرُ تمامًا لم يتغير فيهِ شيءٌ، الوجهُ، الشعرُ المُجعد والبشرة السمراءُ الزيتيةِ وإِن اكتسب القليلَ من الوزن في منطقة الورك والكرش والذراعينِ.. لقد نَما عرضًا وليس طولًا:

- لقد تغيرت كثيرًا.

-للأسفِ، أنتَ كما أنتَ.. كيفَ تُحافظُ على رشاقتِكَ؟!

-بالركضِ وراءَ اللصوص!.

بدا سالم بأنفه المعقوف أَكثر شبابًا وصحةً بملابس رسمية أَنيقةٍ وأَكثرَ اسمرارًا مما يذكرهُ أَحمد الذي رفعَ عينهُ لشعر صديقهِ المُجعدِ، كان صديقَ

طفولتهِ قدْ حافظ على لهجة سكان المنطقةِ التي يحنُ إلى سماعها دائماً، كما حافظ على تلك النظرة الحادة الذكية.

خفَ التوترُ بينهما بعدَ عدةِ دقائقٍ استرجعَ فيها بعض إحساسه بالانتماءِ إلى هذا المكانِ وارتباطهِ بهذا الصديقِ الذي أضحى فيها المدير التنفيذي للشركةِ المُتوسطية للفوسفات، راح فيها سالم يقصُ عليهِ ما عاشهُ خلالَ هذه السنوات.. نقلَ الغزواني نظراتهُ للخارج حيث عادت ذاكرتهُ المشبعة بالبهجة إلى ذلكَ اليومِ الذي تشجعَ فيهِ على القفز من أعلى الجرفِ بعد عدة محاولاتٍ فاشلة، انتهت بتراجعهِ وهو يرتعشُ رغم ذراعِ سالم التي كانت تدفعهُ بلطف وتحثهُ «جرِّب جرب».

–يبدو أَنَ الزواجَ قد ناسبكَ.. لقد ازداد وزنكَ.

ضحك سالم و ربت على بطنهِ بقوة:

– مَن في عمركَ يستعدُ ليصبحَ جدًا بعد عدة سنواتٍ!.

–تتكلم كأُمي يا سالم.

–إذن ألَم تشعر بميل لإحداهن بعدُ؟

–ربما كانت هناك لحظات، نعم شعرتُ بشيء.

–سمعت أَنكَ مكلف بإعادة التحقيق في مقتل عادل.

–نعم.. يبدو أَن الجميعَ بلغهُ الخبرُ

اعتبرَ رئيسهُ الطرابلسي أَن معرفتهُ بالمدينةِ وسكانها ميزةٌ ستُساعدهُ دونَ شكٍ على حلِ أَسرار القضيةِ المُجمدة.

تقدمت مجموعةٌ منَ الأَجانب وحيتهُما من مسافة.

سأَلَ الغزوانِي بعدَ أَن لم يتعرف على أَيِ واحدٍ منهم:

- من هؤلاء؟

ضحك سالم مُستهزئًا:

- على رأي أَبي، إن كان المالُ صديقكَ فهؤلاءِ هم أصدقائي الجُدد!.

أَومأَ المُحقِقُ ضاحكًا للتشبيهِ لكنهُ فهمَ أَنهُ تغيرَ.. في الماضي لم يكنْ سالم سيضع الصداقةَ والمالَ في نفسِ الجُملةِ.

نهضَ سالم وزررَ سترته:

- ينتظرونني، إنه اجتماع مدراء تكتل الصناعات في قفصة بعد ربع ساعة في إحدى الغُرفِ.

لم يكن للغزواني على علم بذلك:

- آه تفضل.

صافحه سالم:

- ضيافتك على حسابي، فلنلتقِ قريبًا ونتحدث عما مضى.

قالَ لهُ بعدَ أَن أَمعنَ فيهِ النظرَ:

- اقبض عليهِ يا أَحمد.

تركه وتوجه برشاقة يحسده عليها نحو المصعدِ.

***

برزَ عاملُ مكتب الأَرشيفِ وهوَ يحمل بيده لائحة الأدلة:

- إذن أَنتِ أَحدُ أَفرادِ الوحدة الخاصة القادمة من العاصمة؟

استدارت شوق وأَجابت بارتباكٍ:

- نعم!

كان فارعَ الطولِ والهزالِ، جدارُ مكتبهُ الصغيرُ مُدججٌ بمكيف يبعثُ نسماتٍ قويةٍ تَكادُ تطيرهُ.. كان الموظفِ، ويدعى (سمير)، شابًا أَسمر:

-ماذا كنت تنتظرين؟ مُسنًّا بعظامٍ يابسة وظهر مقوس؟!

ضحكت للوصف:

- شيء مثل هذا!.

ابتسمَ الشابُ:

- آسف لكن ليس من السهل أَن نلتقي بأَفراد شرطة ينقبون في قضية قديمة.

-نرجو تعاون الشرطة المحلية معنا.

أَدارت عينيها في المكانِ مُرددةً:

- المكانُ يبدو نظيفًا وجديدًا، أَقصدُ أَنني رأيتُ غرف أَرشيف من قبل، لكنني لم أَلمح هذه النظافة قبلَ اليومِ.

-ملاحظة جديدة، لقد أُعيد ترميمُ المكانِ وتهيئة المخازن والرفوف بهذه الصورة الجديدة بعد احتراق قسم من مركزِ الشرطةِ بسبب احتجاجات العُمالِ في الأَيام الأُولى من الثورةِ.. لقد جهزتُ صندوقَ أَدلةِ قضية عدد ١٠٧-١٩٨٨، تفضلي.

بدأ يقرأ ما دوّنَ في لائحةِ الأدلةِ: (نظارةُ الضحيةِ،ملابسهُ، أغراضه القليلةُ، حذاء، منظار.. كل ما صودرَ في موقعِ الجريمةِ).

-شكرًا.

قطعتْ شوق ختمَ الصندوقِ.. وحدقتْ مبتسمةٍ قبلَ أَن تسألهُ بغتة:

- أَظنُ أنكَ قد نسيتَ تزويدي بأَداةِ الجريمةِ!.

١٩٨٨

حصل وأَن هزمهُ عادل الأَمهقَ مرة.

كانَ ذلكَ بعدَ أَن سُحبَ (حمدي) سحبًا لمركزِ الحرسِ الوطنِي بالمظيلةِ، وقبلَ أَنْ يُوصلَ منزلُ والديهِ بالتيارِ الكهربائِي.

كانَوا في عهدِ الطفولة المُبكرةِ التي لم يعرفوا فيها إلا بعضَ الكدِ والجهدِ وكُلِ الضحكِ واللهو، وكانَ في لَهوهم القليلُ من الحدة التي لا تضرُ وإن تلوثَتْ ثيابهم بطينِ المُستنقعاتِ وقلعت أَسنانهم في أَوقات غيرُ قطافهَا. اسمهُ الفعلي كان (عادل الصغير) لا يذكرهُ أَحمد إلا بصعوبةٍ، ولا يَظنُ أَنَ أَحدًا من سكانِ المنسيةِ المُهملة يناديهِ بغير (الأَمهقِ)، ولا يعتَقدُ أَنَ أَحد الأَترابِ قدْ فطنَ إلى غرابة الاسم الذي يطلقُونهُ عليهِ، وإن كانَ لا يخلو من صدق، فقد كانَ جلدهُ يُنافسُ لونَ الشمعةِ في بياضهَا، لا يَشوبه إلا كثرةُ التجاعيدِ حولَ فمهِ وعينيهِ على صغرِ سنهِ.

وَ قدْ أُحبهُ أَحمدُ كما يُحبُ أَيُ طفلٍ مُرافقهُ في خوضِ طريقِ المدرسةِ ذي الثلاثِة كيلومتراتٍ.

لكنْ في العُمقِ.. حسدهُ.. ليسَ لتفردهِ الشكلي المُطبع بالغرابةِ، فقدْ كانَ يفوقهُ فهماً واتقانًا للفرنسية، يُغريهِ إعجابُ (مسيو مانويل)، فتزيدُ ثقتهُ بنفسهِ الطامحة، ولا لعددِ رؤوسِ الماعز التي يَملكُها أَهلهُ ولا يَملكُ والدهُ منهَا شيئًا، حتى لو عملَ في المزارعِ أَلفُ سنةٍ، وبالتأكيدِ ليسَ بسببِ الحذاء الأَحمرِ

الذي ظلَ يتكبرُ بهِ عليهم طوالَ أَشهرِ الربيعِ قبلَ أَن يجدهُ فجأة محروقًا في جوفِ فرنِ عائلتهِ الطيني... بل لأَنهُ شاهدَ ما وراءَ حدودِ بلدتنَا المعزُولةِ.

شاهدَ ما لم يحصلُ أَن شاهدهُ هو بنفسِهِ من قبل، رأَى ذلكَ الكائنِ الأَزرقِ الممتدِ إِلى ما نهايةٍ.

البحرُ..

زارَ عمةً لهُ في العطلةِ الصيفيةِ وعادَ مُتحمسًا بعدَ شهرٍ وهوَ يحملُ كيسًا من الأَصدافِ:

- إِنها تحفظُ في أَحشائها صوتَ البحرِ.. أَتسمعْ؟.

أَيواجهُ العظَمةَ ويأتي بحفنةٍ منْ اللاشيء؟ جاءَ ليُثقلَ كاهلهُ بعبء الفقرِ ويوقظَ مواضِعَ الكُرهِ في نفسهِ.

أَحبهُ.. لكن فِي العُمقِ، ولأَنهُ لا يستطيعُ حرقَ البحرِ، حسدهُ، ثمَ كرههُ.

وهنا هزمهُ عادل الأَمهقُ مرةً، وقد كانتْ هذهِ آخرُ مرةٍ.

وفي سن العاشرةِ لم تكن هناك سماء لترفعهُ ولا أَرض لتحصره.. كانَ شديدة الملاحظة والانتباه لمن حولهُ من الناس والأَفكارِ، إِن رفضَ يَرفض بقوة وإصراره على موقفهِ لم يكن أَقل من إِصرار متشدد على جهله.

أَحيانًا لا يفهمُ أَحمد ما يُفكر فيه، فتصرفاتهُ الغريبة بالنسبة لأصدقائه وغيرَ العاقلة بالنسبةِ لسالم تبدو أَكثر من اللازم، يَفهم أَنَ الأَمهقَ يُحب الغناء وكِتابةَ المسرحِيات، لكن أَن يُغافلَ عائلتهُ ليلًا ويَهرب للأعراس ليَرقص رقصاتٍ خرقاء أَقرب لرقصات المهابيل الذين رآهم في زردة سيدي

عيش[١]، أَو يطلبَ الغناء، هذا شيء حتى أَحمد لا يمكن أَن يتجاهلَ جرأته، فَحياةُ صديقهِ بل أَفكارهُ النشيطة لطالما أَوقعتهُ في مشاكل لا تحصى.

-لماذا تكررُ الأَمر كل مرة وأَنت تعلمُ مغبة صنيعكَ؟!

ضحكَ وهوَ يتلمسُ موضعَ ضربِ عمتهِ:

- الأَمرُ يستحق ذلك.

***

---

(١)ولي صالح.

«اليقين مُريح؛ لكننا لا نتعلم إلا بالشكِ»
مَتاهةُ الأَرواح،
كارلوس زافُون.

مع بداية التحقيق في أول جريمة تُسند إلى الوحدة الأولى، أصبحت أمنية الإجازة الصيفية في خبر مؤجل على أقصى تقدير، فالله وحدهُ يعلم متى سينتهي البحثُ في قضية قتل طفلٍ تعود إلى ربع قرن من النسيان وموت الشهود واختفاء الأدلة وبطء النظامٌ، ليس هذا فقط ما يثير غربانَ القلقِ في نفسِ رئيسِ وحدةِ التحقيقِ في القضايا الباردةِ، بل مرؤوسه الغزواني.

ليس بِصفتهِ كمحقق، فهو يقظٌ متمرس؛ لكن ارتباطه بماضي الطفل المقتول وعلاقاته مع أهل بلدته هو ما يقض مضجعه، رغم رفضه إسناد القضية لهُ إلا أن أعضاء الهيئة، المؤثرينِ الحقيقيين، كان لهم رأي آخر «إنَه الأجدر والأقربُ». بينما اعتبرَ البعض أنَ إنشاء الهيئة التأسيسية والوحدة ليس سوى تبديدٍ للمال العام، والأولى صرفهُ في ما يقلل من نسب الجرائمِ المُسجلةِ خلالَ سنتيْ ما بعدَ الثورةِ، والتي تزايدتْ وتيرتُها بصفةٍ جنونيةٍ.

استحداث هيئة الملفات المجمدة كونت فريق تحقيق برئاسةِ الغزواني، تم تسميتها من قبل الهيئة بوحدة (القضايا الباردة)، وخصصوا ميزانيةً ضعيفة للأمر، وإن لم يحددوا القضايا التي تندرج ضمن هذه التصنيف هل هي الأكثر قدمًا؟ أم الأكثر شهرةً؟ الأقل تعقيدًا؟ الأكثرَ تأْثيرًا في الرأي العام.. أم فقط هيَ التي تناسب توجهاتهم السياسيةِ؟

رغم أَنها وحدةٌ وطنية إلا أَنها ستتبعُ اداريًا إِدارة العاصمةِ، لكن في المُقابل سيكون هناك دعم محلي للقضايا التي تقعُ خارج حدود العَاصمةِ.

رفعَ الرئيسُ (سيف الطرابلسي) سماعة هاتف مكتبه، وهو يفكر هل كان من الأَجدرِ تعيين الغزواني على رأسِ الفريق، وهو الذي كان يُحققُ معهُ حولَ إطلاق النارِ على مشتبهٍ بهِ وقتلهِ قبلَ أَقلِ من سنتينِ من صدورِ أَمرِ تعيينهِ على رأس أَول وحدةٍ للتحقيق في القضايَا البَاردةِ؟ قتلَ مشتبه بهِ لم يتمكنوا أَبدًا من سماع إفادته.

رغمَ تبرئتهِ وإِعادتهُ للعملِ واعتبار ردة فعله أمرًا ضروريًا لحماية نفس بشرية إلا أن الاتهامات كانت ولازالت تطارده بسببِ استعمالهِ العنف غير المبرر، رغمَ ذلكَ لم يجد مجالًا إِلا بمُحاولةِ إقناعهِ بتولي رئاسةِ الفريقِ من خلالِ قولهِ:

- أَنتَ منهم، تفهم لغتهم، تعرف أسرارهم.. ما لهم وما عليهم.. كما يمكنك أَن تزور والدتك.

طلبَ الرقمَ قبلَ أَن يصرخَ مصدومًا:

- ماذا تقصدُ بأَن سلاح الجريمةِ مفقودٌ؟!

***

جعد نصر الدين ورقتين ورماهما مُباشرة وراء الباب قربَ القلم المُلون:

-تبا.. كانت أَداةُ الجريمةِ ستُمكننا من حل نصف ملابسات القضية، الدماء، الجلد، أَي أَثر، والآن لا شيء، خسرنا نصف رهان القضية!.

شغل الغزوانِي جهاز الحاسوبِ المَحمُولِ الموضوع على سطحِ مكتبهِ:

-ربما احترق السلاح عندَ اندلاعِ حريق ٣ جانفي ٢٠١١.. أَو أَن هناكَ من أَخذهُ؟!.

وضحتْ شوق:

- ختم صندوق الأَدلة ليسَ مكسورًا لقد قطعتهُ بنفسي.. لم يسرقهُ أَحدٌ.. ليسَ بعدَ الختم.. كما أَنهُ كانَ مع بقية الأَغراض في نفس الصندوق لو كان قدْ احترق كانت كلُ الأَغراض قد احترقت.. لقدْ اختفى قبلَ الحريق.

دققَ الغزواني في اللائحتينِ التي مدهُ بها موظفُ الأَرشيف، اللائحة الأُولى تعودُ إِلى لائحة جرد ١٧ مارس ٢٠٠٨، واللائحة الثانية للجرد الاستثنائي لما بعد حريق ٣ جانفي ٢٠١١، كانَ السلاحُ موجودًا في لائحةِ سنة ٢٠٠٨ لكنهُ غيرُ مدونٍ بلائحة ٢٠١١ إِنه ليس في قائمة الأَغراض التي أُستعيدتْ من الحريق لأَنه فقدَ قبلها..

- ماذا قال موظفُ الأَرشيفِ يا شوق؟

سأَلها بدونِ أَن يرفعَ رأسهُ إِليها، فقد شعرَ أَنَ عينيها تخترقانِ وجههُ.

-الموظفُ متأكدٌ أَن السلاح كان موجودًا في آخر عمليةِ جرد لغرفة الأَدلةِ قبل سنتينِ تقريبًا من الحريق، لكنهُ غيرُ موجودٌ بلائحةِ الأَدلةِ عندَ الختم على الصندوقِ، كما أَكدَ على أَنهُم استعادوا جميع الأَدلةِ سليمةً من وسط النيَرانِ، وقد أَكَد ذلكَ بوجودها في السجلات التي أَعقبت يوم الحريق.. أَي يَومَ مارس ٢٠٠٨ أَي أَن جميعَ الأَغراضِ مُسجلة في قائمةِ غرفة الأَدلةِ التي أَمامك ما عدا سلاح الجريمة.

-صندوق الأَدلة لسنة ٢٠٠٨ لم يكن مختومًا.. كانَ من السهل سرقةُ السلاحِ.

-إذن الفأسُ سلاح الجريمة فُقِد منذُ أَكثر من سنتينِ قبل اندلاع الثورة.

دلفَ عماد وهو محمرُ الوجهِ، كانَ الغزواني قد أَرسلهُ ليستفسرَ أَكثر من رئيسِ المركزِ، شربَ بعضَ الماءِ وقالَ:

- تعرَّض مقر الشرطةِ للاقتحام من قبل المحتجين يوم ١ مارس ٢٠٠٨، الأَمر استمر لساعتين تقريبًا؛ لكن في ذلك الوقتِ بالذاتِ تعرضتْ غُرفة الأَدلةِ إلى العبثِ.

-كما توقعنا.. هل وصلَ الاقتحام بالقربِ من غرفةِ الأَرشيف؟

واصلَ كلامهُ:

- أَستبعدُ ذلكَ.. غرفةُ الأَرشيفِ تقعُ آخر المركزِ بالطابقِ الأَول كما لاحظت زميلتكم، وعملية الاقتحامُ لم تشملِ سوى الجزء الأَمامي من الطابق الأَرضي.. لكن موظفُ الأَرشيف رصد أَمرًا.. كان قفلُ غرفةِ الأَدلةِ مفتوحًا على غير العادةِ.. رغم التأكيدِ على أَنهُ كانَ مغلقًا صبيحة ذكَ اليومِ بسببِ الاضطراباتِ.

-إذن.. هناكَ من استغلَ الفوضى وسرقَ السلاحَ.

-أَي إهمالٍ هذا؟ كيفَ يُمكنُ أَن يحدثَ أَن يُسرقَ دليلٌ جنائي من وسط مقرِ الشرطةِ دونَ أَن ينتبهَ أَحدٌ؟ هذا عدم كفاءة.

-لذلك نحن نبحث عن شخص يستطيع أَن يتحصل على مفتاح الغرفة من بين العاملين وإداري مركزِ الشرطةِ.

وضحَ عماد:

- نعم.. هذا ما استنتجتهُ ورئيسُ المركزِ أَولًا، وهذا مؤكد أَن رئيس المركز ومساعده كان غائبين ذلكَ النهارِ عن المقر -وهذا ما يضيق الشبهة- القائمة

تحتوي على اسم تسعة إداريين عملوا خلالَ ساعاتِ الاقتحام، اثنان منهم كانا في جلسة مع المواطنين لفض الإشكال، أَحدهما مقعد يَعمل بالطابق الأَرضي ما يبقى هم ٤ أَشخاصٍ.

تابعَ كلامهُ:

– في الواقع الرئيسُ يشكُ بأَحدِ الموظفينَ.. كانَ سبقَ أَن أُتهمَ منذُ سنةٍ بتسريب معلومات وفقدان أَدلةٍ وأُلقيَ القبض عليه لاحقًا.. طردَ من وظيفته بدونِ توجيهِ اتهاماتٍ.. للأَسفِ إنهُ في فرنسا منذُ أُسبوعينِ.

زفرَ الغزواني مستاءً، ما جمد ذهنه هو هذا السؤال، لماذا لم تتم سرقة كل ملفات الجريمة وجميع الأَدلةِ؟ عليه الآن الاهتمام ببقية الأَدلة فربما توصلهم لشيء، لكن الوقت.. هذا ما يخيفهُ أكثر، الوقت.. لقد مر ما يكفي لتلويث الأدلة وطمس الحقائق التي بالكاد ظهرتْ

–لا نستطيعُ أَن نتجمدَ لأَنَ سلاحَ الجريمةِ مفقودٌ.. نمتَلكُ الصورَ المُلتقطةِ لهُ.

دنا الغزوانِي من شوق مشيرًا إلى جزء من إحدى الصورِ:

– هناك علامة تجارية مطبوعة على ظهر المقبض، نسر؟ صقر؟ اتصلي بمحسن فني الحاسوب فليتحقق من اسم المَصنع الرئيسي رُبما يحتفظ بِسجلات المُزودين قبل ٢٥ سنة.

تذكرَ الغزوانِي ما أَخبرهُ بهِ رئيسهُ عندما اعترضَ على تعيينها في فريقها:

«جربها.. ادفعها.. استفز ما يقضِ مَضجعها.. اضغط على أعصابها ربما ترى ما يُعجبك»..

استَدارَ إِلى نصر الدين:

– خذ من عماد عنوان الشاهد الأَول في القضية، واعد استجوابهُ.. انتظر فلتأخذ سيارة شوق.. أَنا سأُرسلُ ملابس الضحية للطب الشرعي بنفسِي.. انهضوا.

–شوق، دقيقة.

التفتَ إِليها بعدَ خروجِ بقية أَفرادِ الفريقِ:

– هل يُمكنُ أَن تغيري هذا؟

نظرَ إِلى قميصها الأَسودِ المدسوسِ في بنطالها الفضفاضِ.. رفعت حاجبها:

– البنطال أَم القميص؟!

كانت تقف بوضعيةٍ شبه مائلة لليسار، بدا سؤالها تحديًا رغم لكنتها المازحةِ، وهيَ ترمشُ فوقَ عينينِ سوداوين:

–أَنتَ ترتدي ما أَرتديه بالفعل!

كانت قادرة على السيطرة على غضبها:

– هل التدخل في ملابسي من ضمن نطاق تنفيذ أوامركَ؟

–لا تهمنِي ملابسكِ.. لكنني أَعرفُ البلدةَ وسُكانها وعاداتهم جيدًا.

***

بلغَ نصر الدينِ مقصدهِ، متجر صغير يبيعُ كل شيءٍ، بدءًا من الجرائد إِلى المواد الغذائيةِ لأَحذيةِ المطاطِ.. كانَ صاحب المتجرِ بالكادِ بارزًا من خلفِ المنضدةِ بقامتهِ التي لا تزيدُ عن مترٍ ونصف.. بصندوقٍ يحملهُ بين يديهِ، وأُخرى تنتظرُ على الأَرضِ، سألهُ المُسنُ المُساعدة في ترتيبِ لوازمِ المتجرِ.

حمل المُساعدُ الصندوق الكرتوني عنه:

- لا عليك.

كان (نوفل الجريدي) مُسنًا تجاوزَ عتبة السبعينَ، ذا قامةٍ قصيرة ورثها عن والدهُ، والذي أورثها هوَ بدورهِ لبعضِ أَبنائه:

- الشكرُ لله.. أَحفادي أَخذوا جيناتٍ أَفضل.

وضحَ ذلكَ وهوَ يُناولهُ صندوقًا آخر.

في خضم ذلك تذكر المُفتش تلك الأَيام التي كان يساعد فيها في تجهيز أَغراضِ والدهِ قبلَ أَن ينطلقَ لعمله:

- بالنسبةِ لشهادتكَ، قلتَ أَنكَ شاهدتَ الطفلَ الضحيةَ قبل مقتلهِ بيومٍ يكلمُ سعيد القفصي.

-نعم لقد قلتُ ذلكَ.. كما أَتذكرُ التفاصيلَ.. وُجدَ الطفلُ مقتولًا وملقى بأحد سفوحِ المينه القديمةِ[1]، معَ عدةِ طعناتٍ في رأسهِ وجذعهِ.

لاحظ حلقات عرق تتكونُ تحت إبطي قميصِ صاحبَ المتجرِ:

- ما شاء الله تتذكرُ الكثيرَ.

-نعم، لقد كتبت التفاصيل في الجرائدِ.

استعادَ صاحبُ المتجرِ الذكرى عن ذلكَ اليوم الذي يسبقُ الجريمةَ، قال أَنهُ شاهد سعيدًا يحادثُ الضحيةَ قربَ الحنفيةِ العموميةِ، عندما سألهُ ردَ بتلعثم أَنهُ كان يسألُ عن والدهِ ضوء:

أَيُّ رجلٍ يسألُ طفلًا عن شيء يخصُ سكانَ الملجأ وغيرُ بعيدٍ عنهُ محلُ عطارةٍ؟

---

(١)المنجم القديم.

بقدرِ ما تذكرَ المُسنُ كتبَ في التحقيقِ أَنَ الطفلَ كانَ يَحملُ منظارًا أَصفر ويرتدِي قميصًا عاجيًا وسروالًا أَسود:

- لم يتبعه أَليْسَ كذلك؟

سأَلَهُ نصر الدين مرةً أُخرى، وقد أَنهى رصَ علب الطماطم والسكرِ في مكانِها على الرفوف:

- لا لم يفعل، فقد دخلَ لمتجري وطلبا شيئًا وعندها سأَلتهُ بدا عليهِ الارتِباكُ.

لم يعلمْ صاحبُ المتجرِ سببَ ارتباكِ سعيدٍ، لقد كانَ واثقًا من أَنهُ بدا غريبًا أَكثرَ منَ الغرابةِ التي اعتادها منهُ..

- كانَ في العادةِ يمرُ عليَّ مرتين في الشهر للتزودِ بمؤونته.. كانَ غريبًا منعزلًا.. تذكرتْ ذلكَ اليوم، كانَ يعرجُ تقريبًا وكأَنَ فخذيهِ مقيدانِ بقيدينِ حديديينِ.. على كلٍّ كانت تلكَ المرةَ الوحيدةَ التي أُشاهدهُ في غيرِ موعدهِ.. كما أَنهُ فقط اشترى علبة سجائرٍ وغادر.. لم أَره بعدَ ذلكَ إلا بعدَ الإفراجِ عنهُ.

***

نزلتْ شوق متأَففةً وقدْ أَغلقتْ بابَ السيارةِ بقوةٍ، كانَ الجو خانقًا خاصةً في مكانٍ عالٍ مثلَ هذا، حيثُ أَشعةُ شمسِ المنسيةِ تصفعُ مباشرةَ رأْسها، لماذا بحق الله يُقررُ شخصٌ بناءَ منزلٍ والعيشَ بهِ في منطقةٍ لا تُطلُ إلى على المزيدِ منَ الجبالَ؟ وما زادَ الوضعَ سوءًا هيَ سيارةُ الغزوانِي وكأَنها كانتْ تستقل خلاطًا شبهَ معطلٍ موصولٍ بالكهرباءِ.

نظرتْ للغزوانِي الذي اقتربَ من منزلِ سعيد القفصي أَكثرَ، بدا راضيًا الآن، وقد غيرتْ قميصها بآخر فضفاض وطويل يغطي ردفيها.. توقفَ الغزوانِي فجأةً وأَشارَ لها بالتوقفِ.. لم تستوعب الأَمرَ وإِن امتثلت لهُ.

عندها فقط شاهدتْ من وراءِ كتفهِ بندقيةً مصوبة نحوهُما.

وإِصبعًا على الزنَادِ..

***

١٩٨٨

كما بلغهم خبرُ ضياع الطفل ومقتلهِ، بلغَ أَهلُ المَنسيةِ خبرَ القبض على سعيد القفصي، قالتْ الشرطةُ أنَهُ مجرد تحقيقٍ روتيني لكنْ الكلَ عرفَ وآمنَ بأَنه هو القاتلُ.

سارعَ البعضُ للمقهى ليصفَ عمليةَ القبضِ عليهِ، أَعادَ وصفَ صياحَ ابنتهِ وهي تقبضُ على ذراعِ والدِها:

«اتركوه اتركوه، لم يفعل شيئًا!»

زادَ الراوي في كلامهِ وقال أَن سعيد نخَ على الأَرضِ كجملٍ وهم يسحبونهُ لسيارةِ الشرطةِ.

كان أَهل البلدة يحتفون بكل حدثٍ يبعد عنهم ملل القرى النائية حتى لو كان مُجرد حركةٍ احتجاجيةٍ للعُمالِ؛ لكن جريمة قتلٍ، هذا كان يتجاوز رغبتهم في حصول أَيِ شيء يثير الاهتمام، ويطرد ذبابً الملل الذي يحيط بقريتهم الجَبلية.. إِنها صدمة شكلتْ مشاعرَ التعاطف أَكثر من الفضولِ.

***

«لا شئ أَكثر زيفًا من الصور، يظنُ المرء أَنه يُمسكُ بلحظةِ سعيدة إِلى الأَبدِ، في حين أَنه لا يخلقُ سوَى الحنين».

أَنقذني، غيوم ميسو.

رفعَ الغزواني يدهُ، وأَشارَ لشوق بالتزامِ الهدوءِ، بينما صرخَ الأَخيرُ:

-أَخبرتكم ألف مرة أنه لا نية لي في بيعِ المنزل.. كم من مرة عليَّ أن أُكررَ ذلك؟

بهدوءٍ تام ردَ عليهِ الغزواني:

- سيدي أَظنك تقصدُ أَشخاصًا آخرينَ، فَلا نية لنا لشراء منزلك وإِن كنا نرحبُ بترك بندقيتكَ جانبًا!.

-أَلستم من شركةِ التطوير العقاري سيئةَ الذكرِ؟

-لا، نحن منَ الشُرطة.

خفض سعيد القفصي سلاحهُ ببطء، دونَ أَن يزيحَ إِصبعهُ عن الزناد.. نقلَ نظراتهُ بينهما، كانَ يرتجف رغمَ هذا الحرِ:

- الآن قد تبينتُكَ.. صورتُكَ بالجريدةِ.

وضحَ المُسنُ وهوَ ينظرُ لشارةِ المُحقق. لا زالت الصحف تستعملُ تلكَ الصورةَ التي التقطت لهُ عندما كانَ خارجًا من منزلِ بلقايد الخميري قبل سنتينِ ونصف.

صورةٌ بشعة!..

دخلا منزلهُ بعدما أَنزلَ بندقيتهُ وركنها بالقربِ من قارورةِ غازٍ، كانَ سعيد في سن لم تتمكنْ شوق من تحديدهَا: لحية رمادية كثيفة، شكل حواجب كالتي تميز البومَ، جالت بعينيها في المكانِ، دلائل الانعزال والوحدة ظاهرة في هذا المنزل المنقطعِ عن المنسيةِ والمطل على فضاءٍ جبلي بائس.

مطبخ رغم امتداد مساحتهِ قذِر خَاوٍ إلا من بعض الأغراض الضرورية، أربعة علب توابل موضوعة دون عنايةٍ، حلل وطناجر نصفها مُتسخ.

فوقَ مُستوى رأسها تنتظمُ عدة قدور وأَواني القهوة وعدد من الملاعق الخشبية والمعدنية المتدلية على طول الجدار، بعد تثبيتها بمجموعة مسامير، بينمَا تدلت مجموعة من السكاكين مختلفة الأَحجام من العوارض الخشبية، وقد علقتْ أَغراضٌ أُخرى على طول حوامل من اللوح.. برميل ماء مَفتوح مخصص للغسيل، كراسي بالية.. أَجلسها المُضيفُ على إحداها:

- أَتعيشُ لوحدِكَ؟.

سأَلتهُ.

أَومأَ برأْسه:

- نعم منذُ تلكَ القضيةِ.. تركتنِي زوجتِي بعدَ أَن يئستْ من كلامِ الجيرانِ والأَهلِ.

بعدَ وقتٍ ليسَ بالقليلِ صرخَ سعيد وقدْ بدتْ ليهِ ملامحُ الغضَبِ:

- هل سنكرر ذلك مرة أُخرى؟ لقد اتهمتُ ظلماً بقتل الولد واغتصابه، ولولا لطف الله وشهادة (بوزيد) لظللتُ أُلازمُ أَرضَ زنزانة سجنٍ في المرناقيةِ للآن.. لن أُضيفَ شيئًا على شهادتي الأَصليةِ.

-نريدُ الحقيقة.. لماذا كنتَ تسألُ عن ضوء إذن؟

نقلَ سعيد نظراتهُ بين الغزواني وشوق، وقالَ بعدَ تردُدٍ وهو يتلعثمُ:

-كنتُ.. كنتُ أَحتاجُ إلى مرهم خاص.. خاصٍ بتلكَ الأَماكنِ الحساسةِ.. مرهمٌ مصنوع من حشائشٍ طبيعيةٍ.. وعدني ضوءٌ بها.. استحيتُ من إخبار أَحدٍ غيرَهُ، حتّى الشرطة لم أُخبرهم إلا بعدَ أن لقيتُ منهم أصنافًا وأَلوانًا من الضربِ.. سألتُ الطفلَ يومها أَعلمني أنَ والده في رحلةِ صيدٍ.

تابعَ مُسترجعًا ذكرياتٍ قاسية:

- كلُ ما فعلتهُ الشرطةَ أَنها أَحكمتْ طوقها على رقبتِي.. بل كادتْ أَن تضع الكلماتَ في فمي.. حتى أَنها لم تبذل مجهودًا في التحققِ من ذلكَ الرجلِ الذي يرتدي الأَبيض.

-أَيُ رجل؟!

-طبعًا تسألني.. أَنا لا أُهلوس.. ليسَ وكأنني شاهدتُ رهبانًا[1].. كانَ شخصًا يرتدِي الأَبيضَ، رداءً أَو معطفًا أَبيض.. رأيتهُ جيدًا حتى أَنني أَذكرُ وجههُ جيدًا، كانَ ذلك قبلَ ليلةٍ من مقتلِ الطفلِ، بل حتى لعدةِ ليالٍ تسبقُ الجريمةَ.. ولكنْ الشرطةُ اتهمتني بالهلوسة بسببِ الحمى التي كنتُ أُعانيها في تلكَ الأَيام.

تفقدَ الغزواني سجلَ الاستجوابِ رغمَ أَنهُ كانَ متأكدًا أَنهُ لم يمر بهِ الكلامِ عن الغريبِ الذي يرتدي الأَبيضَ تنحنحَ وقالَ:

- إذن شاهدتَ شخصًا غريبًا مارًا من أَمامِ ممتلكاتِكَ قبلَ ليلةٍ من الجريمةِ؟ ليسَ من سُكانِ المنسية؟ أَلا تعرفهُ؟

---

(١)شبح باللهجة التُونسيةً

-ربما أَكونُ رجلًا مُسنا الآنَ.. نصف مجنون وشبه منعزل.. لكنني عرفتُ الجميعَ في ذلكَ الوقتِ.. منِ يمر من هُنا للعمل للدراسة أَو للهو.. محليين وَحتى من خارج المنسيةِ.. أعرفهم حتى من طريقةِ مشيهم.. وذلك الشخص كانَ غريبًا عنَها.. لم يظهر منذُ ذلكَ اليوم.. لقد أَخبرتُ الشرطةَ لكن من الواضح أَنهم كانوا مهتمين بتلفيق الجريمَة لي على سماعي أَو محاولة البحث في أَقوالي.. كما قلتُ لهم أَن شخصًا آخر كانَ يتتبعُهُ.

-يتتبعُ صاحبُ الرداءِ الأَبيضِ؟

-نعم

-من هو؟

-لم أَعرفهُ، وإن كنتُ قادرًا على تمييزهِ، كانَ الوقتُ نهارًا، كانَ يتتبعُ صاحبَ الرداءِ الأَبيض، أَثارَ هذا استغرابي، فبينَ الحين والآخر كانَ يتوقفُ كلما توقفَ الشابُ ليلتَقطَ شيئًا.. إن لم يكنَ يتتبعهُ فلماذَا يبدو مثيرًا للريبةِ؟

-كيف تستطيعُ تميزهُ هوَ أَيضًا؟

-إني أَتذكرهم جيدًا، كان صاحبُ الرداءِ شابًا في مقتبلِ العمر، بينما الغريبُ الآخر كانَ شديدَ الهُزالِ، أَسمرَ اللونِ، كانتْ أَصابعُ يدهِ اليَسرى مقطوعةٌ.

-رأيتَ أَصابعَ يدهِ من بعد العشراتِ من الأَمتارِ؟

-لا، لقدْ ميزتُها في ليلةِ مقتل الطفل، كانَ حاضرًا ليلةَ عرضِ المسرحية، وحينها لمحتُ أَصابعه، الابهامُ بَل الخنصَرُ والسبابةُ مقطوعانِ.. اسألوا تلكَ المنظفة لقدْ كادَ يضربها لأَنها اتهمتهُ بالتحرشِ بها.

-أَيُ منظفةٍ؟

سأَلتْ شوق هذه المرة.

-إنها تلك، انتظر أَتذكر.. زوجةُ (خميس) صاحبُ عربةِ الفولِ الآنَ.. في ذلكَ الوقتِ كانَ عاطلًا عن العملِ.

-هل رأيتهُ مع الطفل؟

-لا، لم أَر الطفلَ أَبَدًا، فقدْ كنتُ مارًّا لمنزلِ بوزيد، فقط أَردتُ أَن أُلقي نظرةً على العرضِ.

لم يرد أَن يستزيدَ الغزوانِي في طرحِ الأَسئلةِ، شكراه لتعاونهِ، نهضا ليُغادرَا عندما استوقفهما.

-ستذهبانِ؟

سأَلتهُ شوق بلطفٍ:

- أَلكَ حاجةٌ نقضيها لك؟

-حاجة؟ لا أُريدُ من أَمثالكمْ شيئًا.. لكنْ من سيعيدُ لي كرامتي؟ هل ستقبضونَ على الجاني الحقيقي؟!

-نحنُ نتأسفُ على السنةِ التي حبستَ بها ظلمًا.

-سنة؟! إنها ٢٥ عامًا من الاتهامات، ٢٥ عامًا من الاحتقار والإنكار حتى من قبلِ الأقرب إليَ دمًا وقلبًا، تركتني زوجتي، كانت فرصة من ذهب بالنسبة لها، طُردتُ من العملِ، خسرتُ كل شيء حتى رؤية ابنتِي.. كان الأَمر أَكبرُ من طاقتي.. يحدثُ ذلكَ يا سيدي عندما لم تجد الشرطة غيرَ الضعيفِ المسكينِ ليلقوا عليهِ شباك شكهم وتخاذهم، هنا لا حاجة لتبرئتِي، فأَنا متهمٌ دائمًا في عيونهم، حتى من حسبتهم أَصدقائي استثقلوا ضيافتي.. أبعدوا عني أطفالهم.. ظلوا حرسًا عليَّ أصبحتُ مُطالبًا بتبرير كل ما أَفعله وما لم أَفعلهُ..

ولو كانوا قادرين على معرفة النيات لفعلوا، لا أَذكرُ أَينَ قرأتُ أَنَ على المرء أَنْ يعيش بشيء من اللامبالاة كي لا ينفجر، وهذَا ما أَفعلهُ.

***

تأخر رد فعل السيارة لدقيقتين كما توقعَ الغزواني قبل أَن ينطلقَ صوتُ مُحركها المُزعج، كمن كانَ يلفظ ما عَلقَ ببلعومهِ المعدَني، سيارته عتيقة الطراز بالإضافة إلى قِدمها، اشتراها مُستعملةً في أَولِ فرصة وجدها مناسبة، كانت بلون الخراء حسب تعبير والدته، لا تعمل إلا بالبركة لا يقع تنظيفها إلا على يدِ مياهِ الأمطار.

احتلتْ شوق الكرسي الثاني بجانبهِ وقالتْ ممتعضةً وهيَ تنهي مُكالمتها

-إنهُ (محسن).

كانَ محسن زميلًا للغزواني بالعاصمة، عملا سويًا على عدةِ قضايا وإن كانتْ مهمتهُ في الغالب تكوَنُ من وراءِ الحواسيب، كانَ من الصعب أَن ينضم إليهِم هنا؛ خاصةً مع ارتباطهِ بقضايا أُخرى لازالتْ دائرة هناكَ.

فتح الغزواني تكييف السيارة الذي أَصدر صوتًا كطلقة بندقية ثم توقفَ.. تعطلَ مرةً أُخرَى..

-كانَ من الأَفضل أن آخذُ سيارتِي.

أَكدت شوق مُتأَففةً.

-لماذا لم يتصل بي؟

-هاتفك مغلق.. لقد توصلَ إلى صانع سلاح الجريمةِ.. الفأسُ صناعة تونسية بخامات محلية الصنع، لم يعد هذاَ النموذَجُ يُصنع منذُ عقدينِ من الزمن.. المزود الرئيسِي والوحيد يعيش بالعاصمة الآن لكن المحل الأَصلي

لا يزالُ في قفصة.. تم بيعُ هذا النموذج لعدة شركاتٍ: مَتاجر تعودُ لشركة الحديد والصلب، المُجمع الإيطالي، الشركة المتوسطية للفوسفات.

-فلنتوجه لقفصة إذن.

نظرتْ إليهِ وكأنها تجري تقييمًا لهُ، كانَ أَطولَ منها ومنْ نصر الدين أَيضًا، بملابس نظَيفةٍ لكنها تكادُ تكونُ رثةً، وذقنٍ غيرَ حليقة منذُ أَيام، وشعرٍ مصففٍ للخلفِ دونٍ عنايةٍ، لم تر أَسنانهُ فهو لمً يبتسم.. كانَ غاضبًا ومُتجهمًا في الوقتِ الذي يجبُ أَن تكونَ هي الغاضبةً.

-يَجبُ أَن نتعرفَ أَيضًا على صاحب الرداءِ الأَبيض وصاحب الأَصابع المقطوعةِ.. بدايةُ لا تُبشرُ بخيرٍ.. تذكرتْ من كان الشاهد الذي تَكلمَ عنه؟ (بوزيد) هذا؟ لا أَذكرُ أَنني قرأَتُ اسمهُ في أَوراقِ ملفِ القضيةِ الأَولية.

-بوزيد الصغير جدُ عادل.

***

كان المحل متوسط الاتساع حيث يمكنُ تفحصُ جميعَ الأَرففِ والأركان الممتلئة بنظرة واحدة، نهضَ رجل بدا مشغولاً باللحام من فوق الكرسي، نزع القناع الواقي وتركهُ على الطاولة:

- نحنُ من الشرطة، نريدُ طرحَ بعضَ الأَسئلةِ.

نقلتْ شوق أَنظارها تتفحصُ الأَدواتِ القريبةَ منها: مطارقٌ، معاول، أَدواتُ سباكةٍ.. فؤوس متفاوتة الحجمِ.. أَدواتٌ بصناعةٍ يدويةٍ مُتماثلةِ الصنع، نقش على ظهرها شعارُ طيرٍ.

-إنهُ الباشق.. انظر.. إنهُ شعارُ مصنعي.. مطبوعٌ في كلِ شيء أَصنعهُ وأَبنائي.

-أَتملكُ محلًا آخر؟

-في السابق كانَ المحلَ الوحيد.. الآن أَملكُ محلينِ آخرين يديرانهما ابني وابن أَخي.. هذا بالإِضافةِ إلى المصنع.

بدا سعيدًا وهوَ يدقِقُ في الصور التي رفعها الغزواني أَمامَ عينيهِ وهو يُشيرُ لرقم التصنيع:

- نعم، إنَهُ من صنع يدي.. للأَسفِ توقفت عن صنعِ مثلهِ قبل أَكثر من عشرينَ عامًا.

وقبل أَن يقاطعه بسؤال آخر:

-العيونُ لم تعد كما كانت يا ولدي.. لكنني متأكدٌ أَن الفأسَ الذي في الصورةِ كانَ من ضمنِ شحنةٍ سلمت للشركة المتوسطية للفوسفات.

-متى كانَ ذلكَ؟

-منذُ أَكثر من ربع قرن.. هذا شعار شركتنا، انظرا.. جوان ١٩٨٧ انظر جيدًا هنا ٠٦-١٩٨٧ أَربعة أَرقامٍ تفصل بينهم نقطة، السنة ثم الشهر لا ندون اليوم.

-لماذا أَنتَ مُتأكد من أَن الشحنة قد سُلمت لشركة الفوسفات وكأَنك تُميزُ بين الأَدواتِ؟.

-بلى أُميز بينها.. عندما اتصلت بنا الشركة كنتُ أُعاني في تلك الفترة من حالة كساد فظيعة، في وقت كنت أَستعد فيه لتجهيز أُختي للزواج.. لا شيء يسير جيدًا، وقد عاودني الأَمل مع اتصالهم بي.. طلبوا دفعةً أولَى، وامتنانًا مني لهم كنتُ قد استعملت الفولاذ المقاوم للصدأ في المِقبض، كانت تلك المرة الأُولى التي استعمل فيها هذه النوعية كما كانت المرة الأَخيرةَ.

سأَلتْ شوق بلطفٍ:

– هل يمكنك التأكدُ من هذه المعلومات؟ الأفضل أن نلقي نظرة على السجلاتِ.

ابتعد من أَمامهمَا حاملًا نظراته الساخطة:

– ربما، رأسي ليس بدفتر، إنما أَنا أَتذكرُ ذلك جيدًا، لقد كانت صفقة كبيرة مع شركة، رقم الإنتاج وتاريخه مُدون هنًا على كل حالٍ.

سحبَ من جوفِ أَحد الأَدراج السفلية ما بدا مُجلدًا ضخمًا، فتحه عند المنتصفِ، وبدا بتجاوز الصفحات حتى وصل إلى إحداها، ظل يقرأ للحظاتٍ ثم قال:

– هنا.. إننا نرتب السجلات حسب السنواتِ.. بعض السجلات تضم سنتين أَو ثلاثٍ، هاهو سجل سنتي ٨٧، ٨٨.

أَدار المُجلد ليتمكن المُفتشانِ من تتبع المكتوب

«يوم ٢٤ جوان ١٩٨٧ تم عقد صفقة بيع بيني وبين مندوب الشركةِ، تم خلالها شراء ١٧٥ فأسٍ من النوع الصغير الخاص بالأَماكنِ الضيقةِ».

التقطَ المُحققُ عدةَ صور للصفحةِ، ووثيقة الشراء بكل تفاصيلها، دققَ في صورِ نموذجِ الفأسِ المصنوعةِ يدويًا، وأعاد المجلد لصاحبهِ.

***

صرخَ بصوتٍ غاضبٍ لم يُحاول الغزواني إخفاءهُ:

–لقد حَددَ الشاهدُ شخصًا ومكانًا وزمانًا لكن لم تتحقوا من الأَمرِ!.

كانَ غضبهُ مضاعفًا بعد أَن أَعلمهُ مُساعدهُ بعدمِ وجودِ تسجيل للعرض المسرحي في أَرشيفِ الإِذاعة، رغمَ أَن فرقة مسرحِ الجنوبِ بقفصة كانتْ تُسجلُ كلَ عروضها.

قالَ عماد بصوتٍ حاسم وهوَ يُراجعُ تقريرَ شوق عن إِعادةِ استجوابِ سَعيد القفصي:

– إِنهُ مُسن خرف.. يقولُ شخص بلباسٍ أَبيضَ يشبه الرهبانَ، لمحه مرة بالقربِ من أَملاكهِ.. لا أَحدَ يلاحق الكلامَ الذي يخرجُ من فمهِ.. إِنهُ دائم الشكوى حتى هذه اللحظة من المتطفلينَ!.

فكرَ نصر الدين إِن كانَ قدْ تم التحقق من جودِ هذا الغريبِ حتَى؟ فرك وجهه العارقُ بينما كانتْ شوق تجري بعضَ الاتصالاتِ حولَ الأَسمرِ مقطوعَ الأَصابعِ، لم تكن تعرفُ من أَينَ تبدأ حتى.

كان نصر الدين غاضبًا، فأي تحقيق كانَ قدْ أُجريَ في تلكَ الفترةِ فقد كانَ مليئًا بالتجاوزاتِ والثغرات، هو يفهم مدى ضعف الإمكانيات البشرية والفنية وقتها؛ لكن كان بإمكانهم فعلُ ماهوَ أَفضلُ قبل إِغلاق القضية.

استنطاقُ الشهودِ كانَ غير احترافي وبسيط.. لماذا لم يُذكر هذا الغريبُ في سجلِ استجوابِ المتهم؟ ولا حتى صاحبة الرداءِ؟ جملة من الأَسئلة بلا عمقٍ، البعض لَم تُضفَ الكثير، حتى الشُهودُ الآخرونَ لم يضيفوا شيئًا حقيقيًا.. وضعوا تكهنات بأَنَّ الضحيةَ تعرضتْ للاعتداءِ الجنسي ثم القتل؛ لكن لا دليل على ذلكَ فقدْ مرت الشهور وبالكاد تذكر الناس تفاصيل القضية أَمامَ بروز أَخبارٍ أَحدث وأَكثرَ إِثارةٍ.

غمغمَ عماد:

– ماذا يُمكنُ أَن يكون؟ معلم، عامل بمصنع، طبيب؟ صيدلي؟ هناكَ صيدليةٌ واحدة بالمنسيةِ، ومستشفى المظيلةِ.. أَو أَظن أَنهُ بنيَ فيما بعد كما أَنَ هناك مُستوصف.. ثمَ ماذا عن صاحبِ الأَصابعِ المقطوعةِ؟ إِنني أَعرفُ الجميعَ هُنا لا أَذكرُ أَن هناكَ شخصًا بهكَذا وصفٍ».

–رُبما لم يكنْ محليًا، لا تنس حضرَ المسرحية المئاتُ من ربوعِ قفصة، من عمالٍ وموظفينَ وغيرهم.

خلصَ الغزواني لهذا الاستنتاجِ قبلَ أَن يُغادرَ مع نصر الدين للحديثِ مع رئيسِ المركزِ المحلي.

فكرت شوق وهيَ تُراجعُ صورَ الطفلِ القتيلِ.. «لكن فرصة حل قضية بعد ربعِ قرنٍ تقاربُ فرصةَ العثور على منجم ذهَب ضخم بمناجم المَظيلة، الأدلةُ تكسوها أَطنانٌ من الغبارِ والإهمال أَكثر من ملفِ هذه القضيةِ، الدليلُ الأَكبرُ كانَ عبارةً عن فأسٍ منجم من النوعِ الصغير، ذي مقبض من الفولاذِ، وقد فقدَ من صندوقِ الأَدلةِ والمتعلقاتَ الشخصية رغم ذكره في قائمة الأَغراض التي وُجدت في موقعِ الجريمةِ.. والآن جدُ القتيلِ هو الشاهدُ الرئيسي!»..

التفتتْ إِلى عماد الذي كانَ بصددِ تدخينِ سيجارتهِ:

– هل كنتَ هُناك؟ ليلةَ الجريمةِ؟.

مسحَ عمادُ جبينهُ:

– الكلُ كانَ هناك.. أَغلب سكان البلدة كانوا يحضرون مسرحيةً لفرقة مسرح الجنوبِ بقفصة في تلك الليلة بمعقل الشهيد بغربِ المينه، بينما عُثر

على الجثةِ بالبر الشرقي، لم يكن هناك الكثير من الشهودِ بالطبع، لم يلاحظ أَحد من أَصحابهِ اختفاءه رغم أَنهم أَكدوا أَنه كانَ برفقتهم أَولَ العرض المسرحي.

-من الواضحِ أَنه انسحبَ من المدرجات من تلقاء نفسهِ بالتأكيد لم يُختَطف من هُناكَ.

-أَو أَنه رافق القاتل؟

-شخصٌ يعرفهُ؟

-أَو شخصٌ لا يريدُ القاتلُ أَن يُلاحظَ معهُ.

-هل لوحظ اختفاء شخصٍ آخر من المكان؟

-لا، حسب متابعة الشهود، لكن هناك مُلاحظة، لقد توقفَ العرضُ لمدةٍ قبل المنتصفِ بسببِ انقطاعِ الكهرباء.

-كم المدة؟

-تقريبًا ربعُ ساعة.

-هل يُمكن خلال هذهِ المدةِ الخروجُ من المسرحِ والتوجه للبر الشرقي وقتلُ الضحيةِ ثمَ العودةِ؟!

-هذا صعب.. حسب تقارير الشهود كان سالم آخر من شاهده حيًا كان يجلسُ بجانبهِ.

-سالم؟

-نعم.. (سالم الشارني)، المدير التنفيدي للشركة المتوسطية للفوسفات إنهُ صديق الضحية وصديق الغزواني أَيضًا!.

-ماذا؟!

استدارَ عماد نصف دورة وقالَ مُتعجبًا:

-أَحقًا لا تعلمين؟

-لا أَعلمُ بماذا؟

-رئيسُنا الغزوانِي هوَ من عثرَ على جثةَ عادل!.

***

١٩٨٨

مرَ أَكثرُ من يوم على غيابِ عادل، اقترحَ خلالها سالم أَن يبحثوا عنهُ بالقربِ من المنجمِ القَديم، كانتْ قد مضتْ ساعةٌ من المشي عندما عثرَ أَحمد الغزواني على فردةِ حذاءِ صديقهِ بين تكوينات نباتِ الحلفاءِ، ظلَ يُمسكهُ بيدٍ مرتجفةٍ، كانَ يُريدُ أَن يعودَ به لعم ضوء لعلهُ يقُودهُ بطريقةٍ إعجازيةٍ إلى مكانِ ابنهِ؛ لولا أن علياءَ اقترحتْ أَن يبحثوا أَكثر حول المنجمِ القديم.

لم يكنْ أَبدًا من ضمنِ أَماكنِ لهوهم، فهو موغلٌ في البُعدِ عن البلدةِ حتى أَنهُ يقعُ ضمنَ الحزام الأَصفرِ الذي حُذروا عدةَ مراتِ منَ الاقترابِ منهُ.

تقدمهم أَحمدُ للأَمام، وهو يدعو أَن يجدوهُ سالمًا، وقد وعدَ نفسهُ أَن يعترفَ لهُ بأَنهُ هو الشخَص الذي رمى بحذائهِ الأَحمرِ في الفرنِ قبلَ مُدةٍ.. فقط ليجدهُ أَولًا.

بينما انحنتْ علياءُ لتلتقط شيئًا ما، سقطَ أَحمدُ مُتأوهًا على الحجارةِ، قذفَ الحذاءُ الذي يحمله بعيدًا، مسك ركبتهُ واستدارَ ليرى الشيءَ الذي أَسقطهُ.. نهضَ وهو لا يزالُ شاخصًا بها أَمامهُ.. عيناهُ مُتسعتانِ.. أَنفاسهُ تثقلُ، لم يكنْ قادرًا على الكلامِ أَو النداءِ، حتى شعرَ أَن يديهِ شُلتَا.

لم يكنْ قادرًا على ابتلاع لعابهِ.

نظرت علياء بالاتجاه ذاته قبل أَن تند عنها صرخةً واحدة.. أَخذَ سالم في الاقترابِ الحذرِ منهما.

وقف ثلاثتهما أَمامَ عادل المُستلقي على بطنِه على الرملِ، كانَ يرتدِي سرواله الأَسودُ الفضفاضُ نفسهُ، الذي لطالما ارتداهُ في المُناسَباتِ المدرسيةِ أَو الحفلاتِ. إنهُ هو حتى لو كانَ يوليهم ظهرهُ.

إنهُ هوَ ببشرتهِ الشاحبةِ ومنظارِه المُلقى بجانبهِ.

إنهُ هوَ صديقهم، حتى لو كانَ مُلطخًا بالدماء.

تقدمَ سالم بشجاعةٍ وانحنى.. قلبَ الأَمهق على ظهرهِ برفقٍ.. كانَ ميتًا.. بعيونِ نصفُ مفتوحةٍ لا تطرفانِ.

مستلقيًا بينَ حجارةِ المنجم القديم، بفردة حذاءٍ واحدة وعدة خدوش على وجههِ.. والكثيرِ من الدَماءِ التَي غطت قميصهُ، ويدي سالمِ الذي مدها برفقٍ ليمسحَ عن وجه صديقهِ ما علق عليها من ترابٍ ونملٍ أسود.. ارتعشتْ يَداهُ.

تغلغلتْ بعضُ الخنافسِ السوداءِ لداخلِ القميصِ العاجي لعادل، أَخرج أَحدهم رأَسهُ وقرونهُ قبل أَن يعُودَ للَداخلِ.. صاحَ أَحمدُ بقوة مَصدومًا.

صراخ يقربُ للعويل منه للصراخِ، صاحتْ بهِ علياء.. سكتَ وإن ظلَ شاخصًا، ظلَ سالم ينظرُ لعادل، التفتَ ورفعَ رأسهُ إليهما لاهثًا.. كانا يحدقانِ بعادل.. بجثتهِ.. ثقُلَ تنفسهم وكأنهم يستنشقُونَ الهَواء من وراء جدار بثقب وَاحدٍ.. أَيُ مدخلٍ تركَ في المنسيةِ مفتوحًا حتى أَصابهم هذَا الشرُ؟

قبضتْ علياءُ على يدِ أَحمد وقالتْ وهيَ تُغالبُ دموعها:

- أَحمد، لنخبر خالي ضوء رُبما إن سارعنا بإعلامهِ سيعيش..

لم يتحركْ.. سحبتهُ من يده.. ظلَ جامدًا.. قبضتْ على كفهِ وجرتْهُ، ارتمى على الأرض فاقدًا الوعيَ.

نهضَ سالم وتراجعَ خطوتين، قبلَ أَن يُسَابق رجلهُ نزولًا منَ الجبلِ للمنسيةِ وهو يَصرخ في كل من يُقَابلهُ منْ أَهلها:

- عادل ميت، عادل ميت!

سقطَ عدةَ مرات.. تقلبَ في الرمل، توسختْ جميعُ ملابسهِ، جرحَ جرحًا عميقًا في يدهِ، لكنهُ استمرَ بالركض لِمَدةٍ طويلةٍ، حتى وصلَ إلى بوابةِ الملجأ عندَ متجرِ الموادِ الغذائيةِ، هناكَ اتصلَ البالغونَ بالحرسِ الوطني للمظيلةِ قبلَ أَن يهرولوا صعودًا للمنجمِ القَديمِ.

كانَ ضوء في مُقدمتهم.

***

نزلَ الخبرُ كالغريبةِ على أَهلِ القريةِ، ولم يمر ظهرُ اليومَ إلا وقد توافدَ المعزونَ من كل جهاتِ القريةِ السبعة، ظلَ ضوء واجمًا وقدْ غطى وجههُ بيدِه، بينما أَخذ صدرُ والدتهِ يهتزُ.. علا نَحيبُها، انهالت بقبضاتها على صدرها بقوةٍ.

أمسكتها صاحباتها من النساء قبل أن تغرس أظافرها بوجهها، واصلت مُحاولاتها في انتزاع ذراعيها من أياديهنَ.. حصلَ هذا المشهدُ أمامَ أَحمد وعلياء، وأمام العشراتِ من المتواجدين في تلكَ اللحظةِ؛ لكن لسببٍ ما شعرَ أَنهُ المُلامُ على ذلكَ وقد ظلَ هذا الإحساسُ ينتابهُ حتى كبرَ.

بعدَ ساعة أَخذَ أَفرادُ الشرطةِ إفادتهم ورحلوا.. كتبوا أَشياء على ورقة، سأَلوا بضعةَ أَسئلة.. لكنهم علموا جيدا أَنَ صديقهم لن يعود أَبدًا.. وكانَ من الغريب أَنه لا أَحدَ منهم قدْ ذكرَ شيئًا عن الوضعية الحقيقية التي وجدوا عليها الجثةً!.

***

«لم نعد نَحزن للأَخبار السيئةِ».

أَفراح القبة،

نجيب محفوظ..

أَشارت الساعةُ الأَثريةُ المعلقةُ على جدارِ القاعة الرئيسةِ إلى الساعةِ السادسة والربع مساءً، الحرارةُ في الخارجِ وكأَنَها لهيبُ منتصفِ النَهارِ، لطالما حيره اسم الموقَع الأثري، لم يصل إلى معَناه أَو هو فقط لم يهتم، ليس بقدر اهتمامِهِ الآن بِشوق، كانَ قدْ قرأ في السيارةِ قبْلَ نزولهِ منها ملفها «شوق الهنتاتي، من مواليد ١٩٨١، عملت لسنتين في وزارة الداخلية، مهتمة بقضايا العنف ضد المرأة، متحصلة على ماجستير في علم نفس الطفل» لكن الغريب أَنها كانتْ تنحدرُ من عائلةٍ معروفةٍ «ماذا تفعل فتاة من عائلة مرموقة وذات شهاداتٍ في منطقة خالية منفرة مثل هذه؟»

بطرفي عينيهِ لمحهَا، فضحتْ عيناهُ شوقه لرؤيتِها.

كانَتْ (علياء) قد اتصلتْ بهِ منذُ ساعة، طلبتْ منهُ اللقاء هُنا.. في نفس الفندقِ الذي قابلَ فيهِ سالم.. وهو لم يرد أَن يرُدَ رغبتها؛ بل ربما كان يتوق للقياها؛ فقد كان قبول طلبها بمثابة إعلانٍ صارخ على رغبته المكنونة في قلبه الذي بدأَ يدق دقاتٍ صاخبةٍ مع مرور كل دقيقةٍ ومعَ عبورِ كل شخص من الباب.

قدمت مُختالةً بمشيتها، في حينِ برق سطح نظارتها الشمسية السوداء، وليست ببعيد عنهما اتسعت ابتسامتها من تحت شفاهٍ برتقالية.. كانت تبدو أَنحفُ وأَكثر شحوبًا لكن بدتْ أَطول، ربما هو الكَعب العالِي.. لازالت

تَرتدي السراويل القطنية الضيقةَ في منطقة الخصر والواسعة عند القَدم، تبدو هذه البهْرجة المحيطة بها تُناسبها تمامًا، تجاهلتَ الكرسيَ الأولَ وجلست بجانبه من الطاولة الرخامية في ركن شبهَ معزولٍ عن المكان، لا تبلغه مسامع الجالسينَ.

كانا قد تطلقا منذُ سبعِ سنواتٍ تقريبًا.. زواجٌ دامَ لعدةِ شهورٍ، رُبما جمعتهم الفاجعةُ فقط. جالَت عيناها فيه تتفقدهُ.. منبتَ لحيته بدأ بالظُهور، وهو أمر لم يكن يفوته أبدا في السابق، ازدادتْ سُمرتهُ قليلًا بفعلِ الشمسِ لكنه حافظ على رشاقتهِ.

انحسر طرفُ قميصهَا عن زنودٍ بيضاء، سألَتهُ مُبتسمةً:

-كيف حالكَ؟ كانت والدتكَ تُرددُ أنها تُريد أَن تراكَ زَوجًا ووالدًا.. هل هُناكَ خطبٌ ما؟ أخبرني، إنني طليقَتُك بعدَ كُلِ شيءٍ.

-شكرًا لقلقكَ على سيرِ حياتِي الجِنسيَةِ!.. أَنا بخير.

قالَ:

- كُنا سنتركُ بعضنا على أيةِ حال لو استمر زواجنَا لبضعة شُهور أو عقدٍ من الزمنِ.

-طلاقنا حصل لأنكَ لم تفكر بما احتاجهُ، كنتُ مُستعدة للقتال معكَ لكنكَ فضلتَ غيري عليَّ.

-من سيصغي إليكِ سيظنُ أَنني خُنتُكِ.

-الخيانةِ لا تنحصرُ في امرأةٍ أُخرى وسرير.. أَنت خنتني عندمَا جعلتَ من الناسِ ومَشاغلهم أولويتِكَ، على حسابِي.. من عرفتهم ليسَوا أَفضلَ منكَ

لكنهم يُفكرونَ بي، بسعادَتي وبتَعاستي، وهو أَمر لن أَدَّعي أَنه من صفاتكَ.. غيرُكَ يعيشُ لنفسهِ بينما أَنتَ تعَيشُ من أَجلِ الآخرينَ.. هم قبلكَ.

نفس الكلام الذي قالته في جلسة الطلاَق أَمام القاضي.

أَرادَ تجاهل استفزازاتها، رغم أَنهما لم يتقابلا منذ أَكثرَ من ثلاث سنوات، فركَ عينيهِ حتى احمرتَا وقد بانت الهالاتُ السوداءُ حولها:

– لقد خرجتُ قبل أن أصبح عبئًا عليكِ، أَعلم أَنك ستؤثرينني على نفسكِ، طلاقنا كان أمرًا حتميًا.

كانتْ ملامحُ التأَسُف واضحةً على وجههِ.

ضحكَتْ بعصبيةٍ:

– أَعرفكَ.. لم تنم جيدًا في الليالي الماضيةِ؟ إنهُ ذلكَ الكابوسُ؟ بعض المخاوف تُبقيكَ مستيقظًا أَيضًا.. أَلازلتَ وفيًا للإكسبريس؟.

كانت تعلم أَنها تملك تلك المقاييس الجمالية الملفتة للانتباه أَو الغرائز، لذلك نشأتْ على الامتنان لهذهِ الهبةِ التي وهبها الله لها، معَ ذكاء لم يفدها في حسن اختيارِ شريكهَا السابقِ، أَو ربما هيَ فقط انقادت لما هو أَقوى منهُ.. لطالما كانتْ بجانب الفائز منهُ ومن سالم عندمَا كانُوا صغارًا!.

قال بلهجة حنين:

– كيف انتهى بنا الأَمرُ هنا يا علياء؟ لما لم أَكنْ أَنانيًا؟

لاحظ تدفق الدموع السريع والمفاجيء من عينيها.

–سأَلتُ نفسي هذا السؤال مرارًا وتكررًا.

انتهت حياتهما المشتركة العريضة والسعيدة قبل أَن تبلغ سنتها الأُولى.. تطورت علاقتها الزوجية من غرامٍ إِلى غضب، عتاب واتهامات مُتبادلة

مع تحطيم الأَواني وتمزيق الأَوراق لتستقرَ في الأَخيرِ نحوَ هدوءٍ ميتٍ واستفزازاتٍ باردة من كليهمَا.

جففتْ دموعها وأَردفت وقد ركن صوتها للهدوء قَليلًا مُستعيدة رباطة جأشها:

- هل هناكَ جديد؟ بخصوص القضية؟

-تعلمين، لا يُمكنني أَن أكشفَ لكِ المُستجدات.

التقطَ نفسًا طويلًا.

-أَردتُ أَن أَسألكِ.

مال للأمام:

- في ذلك الوقت لم يكن هُناكَ اهتمامٌ بسؤال الأطفال، أَنت تذكرينَ.. لكن جدتُكِ أَخبرتني أنكِ قابلتهِ قبلَ وفاتهِ بساعاتٍ وسألكِ عن أَمرٍ ما، ماهو؟.

اكتفتْ بهزِ كتفيهَا:

- ليس شيئًا مُهما، سأَلني عن منظاره.. لم يجدهُ.

أَخرسته إِجابتها.. صدمته وقد أَوصلته الكلمة لهذه النقطة من ذاكرتهِ.

***

عادَت شوق برفقةِ عماد للسيارةِ، بعدَ أَن استجوبوا منظفةَ البلديةِ (شهيرة)، التي وصفت الرجلَ الذي تشاجرت معهُ قبلَ خمس وعشرينَ سنة.. كانتْ قد اشتكت لرئيس المنظفينَ في ليلةِ الحادثِ آنذاكَ، واصفةً إياهُ بالوقح سيء السريرةِ.. أَكدَت في أَقوالها أَنها لم ترهُ من قَبل ولا من بعد تلكَ الحادثةِ التي ظلتْ تذكرُها:

- لا يمكنُ لأَي رجلٍ ببلدتنَا أَن يمدَ يدهُ على زوجةِ رجلٍ آخر، لكنه لم يكن من هُنا قطعًا.. ذلكَ الخبيثُ ذو الأَصابعِ المقطوعةِ.. كانَ يريدُ أَن يلمسني بتلكَ الأَصابع البشعةِ!.

انطلقتْ شوق بسيارتِها بينما واصلَ عمادْ تدخينهُ مُتمتمًا:

- كلامها لا يُفيدُنا كثيرًا.. لقدْ مرَ الكثيرُ منَ الوقتِ، من الصعبِ العثورِ على رجلٍ بهذهِ الأَوصافِ الآن.. يمكنُ أَن يكون قدْ ماتَ حتى.

سرى عليهَا الارتباكُ للحظات قبلَ أَن تسترجعَ نفسها أَمامَ هتافات قادمةٍ من خلفِ سيارتها.. مرتْ أَمامهما شاحنةٌ ممتلئة بمناصري فريق (قوافل قفصة)، الذي حافظ على مكانتهِ في ترتيبِ فرقِ الدور الأَول بِالبطولة الوطنية لكرةِ القدمِ.

لكنها استرجعتْ معلومةً بدتْ لها في غايةِ الأَهمية:

- كلامكَ معقول.. لكنْ لا تنس، لقد أَخبرتنَا أَنهُ كانَ يرتدي قميصًا أَزرقَ داكن اللونِ وعليهِ شعارُ اتحادُ عُمال قفصة.. سنبدأ من هناك.

كانَ الهواءُ البارِدُ يتدفقُ من السيارةِ ملطفًا الحرَ الذي يشعرُ بهِ:

-تعتقدين أَنهُ عاملُ منجم؟ المسرحيةُ عُرضتْ على شرفِ اتحادِ العُمالِ وحضرها المئاتُ من العُمالِ من مختلفِ ولاياتِ الجنوبِ.. ليسَ لنا صلاحياتُ واسعةٌ لهذهِ الدرجةِ، كما يُمكنُ أَن يكونَ مجرد مواطنٍ.. الزيُ لا يعني شيئًا.

أَوقفت سيارتها في الوقتِ المُناسبِ، التفتتْ إِليهِ دونَ أَن تبعد نظرها عن مراقبةِ الطريق:

- بالتأكيد هناكَ رابط، إننا نقترب.. أَما بالنسبةِ للبحثِ عن هذهِ الإِبرةِ في كومةِ القشِ فأَعرفُ شخصًا يُمكنُ أَن يستخرجها بسهولةٍ.

تمتمَ غيرَ مُصدقٍ:

- مَن؟

وقدْ بدأ سربٌ من الاحتمالاتِ يراودهُ دونَ أَن ينجحَ في معرفةِ الاحتمالِ الذي تُلمحُ إِليهِ.

ابتسمتْ ظافرةً بثقةٍ تؤكدُ جديتها:

- عميدُ اتحادِ العُمالِ بقفصة!.

***

١٩٨٨

-«لقد اختفى عادل»

انتشرَ الخبرُ منذ ما بعد الظهر في البلدة، لم يبقى لا صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا وقد بلغهُ الخبرُ، كما لم يقصر أَحد في نشرهِ، ملأَ الارتباكُ والقلقُ كلَ البيوتِ وجاءَ دورُ بيتِ عائلةِ الغزوانِي.

كررَ الجد بوزيد كلامه بمزيجٍ من الحسرة والخوفِ:

«لقد اختفى عادل»

سارعت الطاووس بملء إناء ماء لعم بوزيد، العرقُ يصبغُ وجههُ، وأَنفاسهُ لاهثةً حارة، جذبَ المنَديلَ الراقدَ على رقبتهِ ومسحَ جبينهُ.

اكتشفَ جدهُ بوزيد فقدانه صبيحة اليَوم، انتبهَ بعدَ صلاةِ الظهر أَنهُ لم يبت في منزلهِ، ولم يعد من سهرة الليلة السابقةَ، ظنَ أَنهُ نام عند أَحد العَوائل بين دسة أَطفالهم، سأَلَ أَصدقاءهُ سالم وأَحمد عند عودتهم منَ المَدرسةِ، طرقَ بابَ قريبهِ أَب علياء.. كلهم أَنكروا مبيتهُ عندهم.. تفقدَ المدرسةَ، والمينه.. لا شيء.

أخذ يروح ويجيء قبل أَن تمسكه والدة أَحمدُ من يده وتجلسه على كرسي بجانب زوجها المريضِ على السريرِ:

-استهدى بالله يا عمي.

بانتْ عليهِ علاماتُ القلقِ أَكثر، جف حلقهُ وارتجف وهو يحاولُ أَن يقبض على أَصابعهِ المرتعشة:

- لم أَجدهُ في أَي دار بالمنسيةِ.. سألتُ عندَ بقيةِ الجيرانِ لا شيء.. أَتيتكم وأَنا أَعلمُ أَنه لم يبت هناً..

توقفَ عن الكلام وسارعَ بشربِ بقيةِ ما في الإناءِ وأَردفَ:

- لم أَجده.. تركتُ زوجتِي جالسةً أَمامَ باب الدارِ قالت أَنها لن تتزحزحَ إلا بعدَ أَن تراهُ وهوَ عائدٌ معي.. إنني لا أَجدهُ يا ناس.. أَحمد أَينَ تظنهُ قد باتَ ليلتهُ؟ إنه ليسَ عند أَحد.

بعيونٍ حائرة لم يعرف أَحمد كيفَ يُجيبُ جدَ صَديقه، أَتاه صوته وكأنه من الأعماقِ، لقدْ ظنَ طوالَ هذَا الوقت أَن عادل غادرَ قبلَ نهاية المسرحيةِ مع والدِهِ.. فلا شيء سيثنيهِ عن لقاءِ الممثل المسرحي (عبد القادر مقداد)[1] إلا لقاؤهُ بوالدِهِ..

- لا أَعرف!

خفضَ رأسهُ طوالَ هذَا اليوم الدراسي، كانَ يحسدُ صديقهُ على اليومِ الجميلِ الذي يقضيه مع والدهِ، التَفتَ إلَى والديهِ وهوَ يكادُ يبكِي ثم قالَ باندفاعٍ:

- ربما رحل مع الممثلينَ!

افتراضٌ وصفهُ والدهُ بالغبي!.

***

(١) ممثل مسرحي تونسي.

«نحنُ نستمرُ في الحياةِ في ذاكرةِ من يُحبنا»
ظلُّ الريحِ،
كارلوس زافون.

رفعَ رأَسهُ حيثُ بالكادِ، كانَ يلمحُ في وسطِ هذِ الظلمةِ هيكلَ البيتِ.. بيت قديم يُطقطق خشب سقفه أكثر من عظام ساكنهِ.

تأقلمتْ عيناهُ مع الظلام.. أنبأه نباح الكلاب بوجودهَا، تجمعت حوله بعيونها الصفراء وألسنتها المتدلية ولهاثها القوي، تجاهلها وأكملَ سيره، لم يكن الجد (بوزيد الصغير) غريبًا عنهُ، وحتى كلابه، وإن تغيرت أصنافها في كل فترة يزوره، إلا أنه لا يخافها، سلم عليهِ، كان يجلسُ على مصطبة محفورة بالجدار الخارجي لمنزلهِ مفترشًا فوقها حصيرة قش، تحتَ فانوسٍ عملاقٍ يعرفهُ الغزواني جيدًا.

رد بوزيد السلامَ وقد رقدَ بينهما جروٌ، طردَ المُحققُ بعضَ البعوضِ الذي كانَ يتجمعُ بالقربِ من الفانوسِ:

– يبدو أنك فقدتَ أسنانًا جديدة.

جاورته بعض الكلاب برؤوسها المنتصبةِ، بينما بدا المُسنُ الثمانيني كزعيمٍ منسي يدير من مجلسه قافلة منهَا.

أَطبقَ شفتيه سَاخرًا وأَخرج من جيب قميصه بقايا سيجارة مطفأة وأَشعلها:

– لماذا أَنتَ هنا؟ تتبعُ ماضيًا غابرًا؟

انسلت منهُ ضحكت صادقة وهو يَقولُ:

- يبدو أَنهُ هوَ الذِي يُلاحِقُني.

دفعَ بنفسهِ لاستجلاءِ المكانِ، طالتْ هذهِ المرة مدةُ غيابهِ عنهُ وعن المنزلِ.. لم يتغير الجدُ بوزيد، كما لم يتغير شيءٌ هُنا، لازال المُزارعون يستيقظون بالصباحات، ولازالت النسوةُ يَخبزنَ الخبزَ بالفرن الطينِي قبل أَن يتحولنَ إلى شاحنة الهاشمِي التي ستقلهنَ لمزرعة سيد المُعتمد، مع نصف حزمة من أَطفالهنَ، ولازال الديك يوقظهنَ قبل أَن يخرج من بيوتِ المنسيةِ أَي صوتٍ.

-الموت يَهز الحجرَ

قال الجدُ بوزيد كلماتهُ وهو يقذفُ محتوى إبريق الماءِ شاتمًا مَذاق ماءِ البئرِ الذي أَضحى معَ كلَ يومٍ يمرُ أَكثر عفونة.

-سمعتَ بالخبرِ؟

-إنها هبة منَ الله.. أَجلسُ هُنَا بينَ هذهِ الحجارةِ الصماءِ والأَخبارُ تَطيرُ وتلقي بنفسِها بحجري.. كما تفعلُ أَنتَ الآن.

ناولهُ كأسَ شاي بيدٍ مرتعشةٍ

-كَما سمعتُ أَن أَولاد المطيري قد أَغلقوا الطريق المؤديةِ إلى المناجم.

مع سجنِ ضوء ووفاتِ والدهِ أَضحى بوزيد بمَثابةِ الأَب والجدِ بالنسبةَ إليهِ، حتى لوَ كانَ ذلكَ لوقتٍ قصيرِ قبلَ انتقالِ عائلتهِ لمدينةِ سوسة.. أَما والدهُ فلا صور لهُ على جدرانِ غرفتهِ؛ بل فقط في سلسلة صور ذاكرتهِ.. شذرات هزيلة غير سَعيدة، فَلم ير والده إلا مريضًا أَو على وشك الموتِ، لا يذكر إلا شفتيه الجافة المُصفرة وسعالهُ.. لا يبتسمُ.. ليس كوالدِ عادل، وقطعًا ليَس كوالد سَالم، ربما لو أَطال الخالقُ عمر والدهِ لكانَ كلُ شيء تَغيرَ.

طردَ أَفكارهُ وقالَ ملتفتًا للجد:

- هل هيَ من بينِ الأَخبارِ التي تَصلُكَ؟ نعم هذا صحيح.. لقد مررتُ بجمُعِ المُحتجينَ.. عجلاتٌ محروقةٌ ومنعٌ لمرورِ الشاحناتِ التي تحملُ الفوسفات.

-هذا يعني حسابيًا أَن الشركةَ المُتوسطيَةَ بصدد خسارة آلاف الدنانير كل دقيقة.. لماذا يغلقونَ الطريق ويَمنعُونَ نقلَ الفوسفات؟ مشكلتهم مع صاحب الشركة لماذا لا يذهبون ويتبولُونَ أَمامَ بابها وعلى أَصحابها!.

كتمَ ضحكتهُ وردَ:

- هم يدركونَ جيدًا أَن ما يملأ جيوب أَصحابها هيَ المناجم لا الشركةُ.

سقطت نظراته على المُسن المُقرفصِ بينما بدتْ التجاعيد حول عينيه أَكثرَ عمقا وقتامة:

- يا بني هذه الشركات لا تتفاوض ولا تنحني؛ خاصة لكمشة عمال مناجم وقحينَ، حسبَ تعبير أَصحابها.

-ماذا إِذن؟ ثورة المناجم مرةً أُخرى؟ بالكاد خرجنا من واحدة بشق الأَنفسِ.

طغى التوتر على كلماته وهوَ يطرقُ الهواء بأَصابعهِ:

- هُنا.. يجبُ أَن يكون لك صوت قوي لِتُسمع.. لكنْ أَصواتهم مُتجهةٌ للاتجاهِ الخطأ.. خسارة.. وأَنتَ هل أَنت في الطريقِ الصحِيح؟

-أَرجو ذلكَ.. على أَن لا يُحاولَ أَحدٌ عرقلتي.

-هناكَ فئةٌ من الناسِ مُستعدة أن تقف بعيدًا ليس ببعيدٍ كثيرًا عنكَ بل على مقربَة كافية لرؤيَتك تَسقط.. انصت إِلى ما لا يقولونه، إِنَ ضجيج خوفهم أَكبرُ من صرخات أَلسنتهم الزائفةِ.

-لماذا دائماً كلامك مُشفر؟.. هل تعرفُ شيئًا لا أَعرفهُ؟

-إِنني بالثمانين.. يجبُ أَن أُوفرَ أَنفاسي وكلماتي.

رفع أكمامَ قميصه للأَعلى:

- كيفَ حالكَ مع رعيتِكَ وانعزَالكَ؟

ثبتت عيناه عليه:

- إِنهم أَصدقائي وليسَ رعيتي.. بالنسبةِ لحالتِي أَنا بخيرِ.. أَتعاملُ مع المصائبَ وكأنها آخر حسوة في قعر كأس الحياة المر، أَرشفُها وأَحمد الله.. تذكرْ هذا.. يَخالُ الإنسان نفسه منيعًا ضد تقلَبات القدرِ حتى يلقيهِ ويرجعهُ لرشدهِ ويذكرهُ أَنهُ مُجردُ إِنسانٍ يعيشُ بأَرض متشققة جافَة، مثل باطن رجلي!.

ضحك حتى بانت منابت أَسنانه الصفراء الباقيةِ في فكه السفلي.

زمجرَ كلبٌ من فَصيلةِ الراعي الأَلماني:

- لا تغضب، لكن حتى الكلاب لا تحب أَفرادُ الشرطةِ!

طرق رأسهُ لحظة وأَخذ نفسًا قويًا مُراقبًا مَا حوله:

- الهواء ثقيلٌ يا بني.

-ليسَ بثقلِ شايكَ!

أَرجعَ الغزواني الكأسَ للطبقِ النُحاسي وعدلَ جلستهُ منبئًا عن تحولِ المُحادثة للجانب الَرسمي.

-قبلَ أَنْ أَسأَلكَ عن شهادَتكَ حولَ سعيد القفصي.. هل عرفتَ شابًا أَسمر نحيلًا بأَصابعَ يدٍ مبتورة في تلكَ الفترةِ؟

-ذاكرتي لم تعد جيدة كما السابق، لكنْ لا أَذكرُ رجلًا بهذهِ الصفاتِ.. أَصابعٌ مقطَوعة؟..

-»نعم.. أَخبرني القفصي أَنهُ كانَ حاضرًا بليلةِ المسرحية.

تركَ الغزواني الجدَ بوزيد يَمسحُ دموعهُ.. لو كان بإمكاننا أن نعيد الزمن إلى الوراءِ، إلى لَحظات ندمنا عليها، إلى ما قبل كلمات نطقنا بها أو لم نقلها، إلى مواقف لم نخضها كالرجال إلى آلاف من «لو» أطلقناها بحسرة من قلوبنا قبل أفواهنا، عندها لن يكون للقرارات الخاطئة وللندم مكان في قواميسنا أو في ماضينا.. لكنْ لا مجالَ لذلكَ.

-سعيد.. ذلكَ الرجل.. قالَ أنهُ كانَ يبحثُ عن عم ضوء من أَجلِ مرهمٍ ما.. دواء..

-كانَ الكثيرُ من الأَشخاص يسألونَ عنهُ في تلكَ الفترةِ.. صاحبُ المتجرِ، سعيد أَيضًا.. طبيب ما كانَ شابًا.. وأَرملةُ جارنَا كانت تطمعُ في الزواجَ منهُ.. لكنْ الذي أَتذكرهُ جيدًا هو زيارةِ سعيد لي، كانَ مريضًا بعلةٍ ما من تلكَ العللِ التي يستحي الرجالُ أَن يلقيها على مسامع جنسهم حتى.. كانَ ولدي ضوء قدْ وعدهُ بتدبيرِ مرهم خاصٍ بذلكَ يوفرهُ لهُ صديقهُ الطبيبِ.

-قلتِ طبيب مرتين؟ أَيَُ طبيب؟

-طبيبٌ ما ليسَ من أَهلِ المنسية.. يعملُ في الصيدلية؟ لا لا بل بالمستوصف الجهوي؟ لستُ متأكدًا.. ولكنني متأكدٌ أَنهُ طبيب حديثَ التخرجِ.

-تذكرُ اسمهُ؟

تَحسَّس بلسانه حلقه مستذكرًا طعم الشايِ.

-(هلال) أَعتقد.. بل أَنا متأكدٌ من ذلكَ.

-سوف نعرف من فعل هذا يا جدي.

-أَبعدَ كل هذا الوقتِ؟!

رفعَ منديلَهُ إلى فمهِ.. اهتز كل جسمهِ الضئيل من نوبة النشيج هيَ الأُولى منذُ زيارتهِ ختم بكاءهُ بسعالٍ قوي.

لسنواتٍ ظلَ يَتركُ بابَ منزلهِ مفتوحًا كل ليلةٍ لعلَ عادل يَعودُ.. لعلهُ نسيَ طريق المنزلِ.

***

١٩٨٨

من حسنِ الحظِ أَن الليلةَ لم تكنْ حارةً، كانتْ أَكثرَ من مناسبةٍ لإِقامةِ المسرحيةِ المنتظرةِ، شاهدَ الأَصدقاءُ بعضَ ممثلي المسرحيةِ تعرفُوا عليهم من صورهم على قصاصةِ المسرحيةِ، لم يُشاهدوا عبد القادر مقداد بعد.. لكنْ لا يهم، فوالدُ سالم وعدهم بأَن يُخصصَ الممثلُ لهم وقتًا قصيرًا بعدَ انتهاءِ المسرحية للتعبيرِ عن حبهم له.

جلسَ جميعهم بجانبِ بعض من الجهةِ اليُمنى من صفوفِ المَقاعدِ المُواجهةِ للركح: سالم، علياء وأَحمدُ ثمَ عادل الذي بدا واجمًا على غيرِ عادته، كانَ يحضنُ بقوةِ مخطُوطات المسرحياتِ التي كتبها بنفسهِ من أَجَلِ هذَا اليوم.. ذكرهُ أَحمدُ متحمسًا بالأُغنية التِي سيؤديها قبلَ بدايةِ المسرحية، لكنْ عادلَ لم يتفاعل معهُ، نط سالمْ فجأة أمامهُ، رمى يديه على كتفه وطوقه:

– يقول أبي أن الفرنسيُينَ سيبنون لنا عمارات بالحَيِ الأُوروبِي تُطالعُ السحاب يا عادل!

كان سالم يحلم بعالم جديد زينه له والدهُ.

أَومأ صديقهُ برأسهٍ وهو يلتفتُ يمينًا ويسارًا، امتلأت المقاعدُ الخلفيةُ بالكثيرِ من الحضورِ، تعرفَ أَحمدُ على عددٍ كبيرٍ منهم، كانوا عمالًا وموظفينَ وجيرانًا لهم، حتى السيد (ماريو) والسيدة (إِبتسام) والدةُ سالم، والدتهُ الطاووس امتنعتْ عن الذهاب فضلتْ أَن تبقى بجانبِ والدهِ المريضِ.

في تجمعات سكان البلدةِ، يكتشف أَحمدُ تغيراتٍ ملموسة وواضحة، العدوات بينَ البعضِ تتراجعُ خلفَ حاجب واجب العزاءِ أَو الفرح لعرس أَو غيث أَو صابة تمور التي تؤسسها التقاليدُ الجماعيَة المُتعارَفُ عليهاَ، جالتْ عيناهُ في وجوه الخَلقِ: سُكان الملجأ يجلسونَ بجانب سكانِ الحي الأُوروبي الجميعُ مبتسمينَ، منتظرينَ بدء المسرحية، تحضروا قلبًا وقالبًا لَلضحك.. حتى المعتمدُ ارتدى أَفضل ما لديه، لكن مع فزعة الفجرِ الأُولى يعودُ كلُ شيء إلى مكانهِ.

تنهدَ أَحمدُ، كان جدُ مُتحمسًا للأَمر حتى أَنهُ ساهمَ في توزيع قصاصاتِ إعلانِ المسرحيةِ على المُتساكنين من أَولِ البلدةِ إلى آخرها برفقةِ عادل الذِي ظَل يحدقُ في وجوهِ الناسِ.

-ماذا هناك يا عادل؟ تبدو غريبًا هذهِ الليلةَ؟!

سأَلتهُ علياءُ وهيَ تُشاهدُ الاختلاج الخفيف لشفتيهِ

-وعدني أَبي بحضورِ المسرحية ورؤيتِي أَغني.

حدق بها بعينيه الواسعتين كأحلامهِ وأَضافَ:

- لكنهُ لم يأتِ.

تحول قلقه إلى بكاءٍ بالفعلِ، لو لا طمأنة أَصحابه له:

- سوفَ يأَتي.. ثمَ إِن جديكَ هُنا.. ونحنُ معكَ دائمًا.

ابتلعَ غصتهُ وابتسمَ.

لكن سرعانَ ما رِفعَ رأسه في توترٍ كمن يبحثُ عن أَحد أو شيء فقد أَثرهُ بين العشرات من الأَعين والرؤوسِ، أَخفض رأسهُ نحو أَحمد وهمسَ:

-كما أَشعرُ بأَن أَحدًا يُراقبنِي.

فكرَ أَحمدُ وأَجابَ بيقينٍ:

-لا تَخشَ شيئًا.

ابتسمَا.. كانَا في ذلك العمر الذي يظنِ فيه المرء أَنهُ سيبقى عصيًا على ما يخافه البشر البالغين، يخشون السماء إن أَمطرت وإن قمعت ما في جوفها، يخافون تسلط الماضي وغموض المستقَبل، أَما هم فلَم يكونوا يخشون شيئًا؛ حتى والديهم، فقط كانوا يأملون أَنْ يبلغوا البحر أَو أَن يطَّلعَ عبد القادر مقداد على مسرحياتهِ المدرسيةِ.

***

تركَ عادل أَوراقهُ مع أَحمد على أَن يُعيدها لهُ بعدَ نزولهِ وصعدَ الركح.. وقفَ منتصبَ القامةِ وعيناهُ تجولانِ بالمكانِ، قبل أَن يغمضهما ليغني.. بَعد الجلبة التي أَحدثها المتفرجونَ ساد جوٌّ منِ الهدوء.. اشرأبت الأَعناقُ، خرجت من فمه أَولُ كلمة من الأُغنيةِ، أَصغوا له بصمت ثم بانبهار عجيبٍ.. ليسَ في صوتهِ شيءٌ من الروعةِ أَو المفاجأة إنما هو الدفء والرقةُ اللذانِ ينسابانِ في تناغمٍ بسيطٍ وعذبٍ، يعيدُ سامعيهِ إلى ذكرياتهم وحنين ماضيهم.

راقبَ أَحمدُ انفعالات الحاضرينَ بمزيج من الفخر والحسد، فَما يسمعه منهُ لم يكن جديدًا، فلطالمَا أَطلقَ صوتهُ بالغناءِ عند العودة من المدرسة، عند سهره في منزلهم، فِي وكرهم السري.. شيئًا فشيئًا علا التصفيق والصفير مساندة وإعجابًا، أَما هو عندما سألته علياء بعد الغناء وثلاثتهم متحلقين حوله قال بوجهٍ مُحمر أَنهُ حقق الخطوة الأُولى من حلمهِ.

***

كانَ أَحمدُ يتهيأ للبحثِ عن عادل عندما استعجلتهُ علياءُ وهي تسيرُ وراءَ والدها:

- حرك رجليك لنسرع.. الأَغلبُ أَنهُ رحلَ مع عمي ضوء.. يجبُ أَن يوصلكَ أَبي لمنزلكَ.. أَسرع..

جالتْ عيناهُ بالساحةِ التي كادَت تفرغُ من الحضورِ.. لحقَ بها وتركَ أَمرَ البحثِ عن عادل.

***

"إِنما الذاكرةُ هي المرآةُ التِي نرى فيهَا الغائبينَ"

بعيدًا عن القرى،

روبرتسون فريزيرو.

أَصدرَ الغزواني أَمرهُ لنصر الدِينِ بالبحثِ عن هويةِ طبيبٍ كانَ يعملُ بالمنسيةِ في نفسِ فترةِ مقتلِ عادل:

- نعم، (هلال).. لا أَعرفُ اللقبَ.. أَرجو إِبلاغي مُباشرةً.. لا تنس البحثَ حول صاحبَ الأَصابعِ المقطوعةِ.

كانَ الفريقُ مُجتمعًا في غرفةِ العملياتِ صبيحةَ اليوم التالي لزيارةِ الغزواني، عندما استأذنَ حارسَ مقرِ التحقيقِ الدخول وأَعلمهُ بوجودِ زائرٍ.

معرفة الغزواني بـ (آدم) تعود إِلى سنوات عمله بقابس، فهو أَحَدُ أَفضلُ الأَطباءِ الشرعيينَ لمنطقة الجنوب التونسي، الكثيرِ من حالات القتلِ تنتهِي على حاملة جثثه، هو على الأَرجح قاب عقد عن أَبواب التقاعدِ:

- كانَ عليكَ طلبُ حضوري لا أَن تأتي بنفسكَ.

وضحَ الغزواني رأيهُ للطبيبِ وهوَ متلهفٌ لسماعِ أَخبارِ تحليلِ تقريرِ الطبيبِ الشرعي السابقِ.

أَمامَ افتقاد رئيسها لأَساسياتِ الضيافةِ تدخلتْ شوق مُرحبةً بالطبيب الجنائي، داعيةً إِياهُ للجلوس على الكنبةِ الوحيدةِ وهي تسألهُ عن حالهِ وما سيشربهُ.. فطنَ الغزواني للأَمر متأخرًا.. جلسَ بجانبهِ يُداري سوءَ ضيافتهِ، عرفهُ على أَفرادِ فريقهِ، قَبلَ أَن ينتقلا بعدَ دقائقٍ للطاولةِ الرئيسيةِ.

جولَ الضيفُ عينيهُ بالمكانِ دونِ أَن يخفي عدمَ إعجابهِ:

- أَردتُ الاطلاعَ على مقر التحقيقاتٍ الذي تُديرهُ.. إنه حقًا مُخيبٌ للآمالِ فعلًا.. على كلٍّ لنبدأ تحليلَ تقَرير مسرحِ الجريمةِ.

أَجابَ بشفتينِ مزمومتينِ، كانَ يُرتبُ صورَ الملتقطةَ للجثةِ وصورَ مسرحِ الجريمةِ على سطحِ الطاولةِ، بينما احتفظ بينَ أَصابعهِ بالتقريرِ النهائي.. تحلَّقَ حولهُ أعضاءِ الفريقِ ماعدا عماد.

-مبدئيًا، من المؤكدِ أَن شظيةً صغيرة من رأس نصلِ الفأس استقرت في عظمة الكتف اليُسرى للضحيةِ، حسبَ ما جاءَ في التقَرير القَديم.. نعم كانت الضرباتُ قويةً بقدرِ كافٍ ليُكسرَ سنُ نصلِ الفأسِ وينغرسَ في عظم الطفلِ.

نظرَ إليهِ نصر الدين:

- كلٌّ هذا مُدونٌ في التقريرِ القديم؟

-نعم.. تقريرُ الطبيب الشرعي الفرنسي (بيير فون).

سألَ الغزواني:

- كيفَ كانتْ الجريمةُ؟

-من رأيي أَنَهُ تلقى ثلاثَ ضرباتٍ كُلها كانت من الخلفِ، الضربةُ الأُولى كانتْ الأقوى.

أَشارَ بإصبعه لما بدا خطًا بطولِ عشر سنتيمترات في الصورةِ القديمة:

-صدمتْ أَعلى المفصلِ، أَدى هذا إلى كسرها، من دونها لم يستطع القتيلُ أَن يرفع ذراعهُ ليحمي وجههُ، ثم هناكَ الضربةُ الثانية.. كانتْ أَخف لكنها الأكثرَ تأثيرًا أَصابت ما تحتَ الترقوة، أَعتقدُ أَن الطفلَ قدْ توقفَ مؤقتًا عن

الحركةِ وهنا جاءت الضربةُ الأَخيرةُ تحديدًا.

تراجعَ نصر الدين للوراءِ واندفعَ للمرحاضِ.. بينما شحبَ وجهُ شوق:

-أَكمل

قالَ الغزواني دونُ أَن تبدو على ملامحِه أَية تعبيراتٍ.

-حسنًا.. الضربةُ الثالثة كما تُلاحظونَ جاءت بالقربِ من الضربةِ الأَولى.

دفعَ بأصابعه الصورةَ لتظهر صورٌ أُخرى لمسرحِ الجريمةِ:

-نزفَ كثيرًا.

بدا الدمُ في الصورِ باللونِ الأَسودِ القاتمِ مسكوبًا كحبرٍ كحلي على الرملِ..

-أَيُة ضربة قتلتهُ؟

-ولا واحدة منها.. ما قتلهُ هو النزيفِ، لقد استنزفَ جسمهُ بالكاملِ من الدماءِ.. كانَ يُمكنُ أَن يعيشَ لولا هذا النزيف ولو تم العثورُ عليهِ أَسرعَ.

-يعني.. يعني

تلعثمت شوق:

- أَلم يمت على الفور؟!

-لا للأَسف.. ظلَ حيًّا لربعِ ساعةِ تقريبًا أَو أَكثر قبلَ وفاته.. أُريدُكَ أَن تُشاهدَ هذه الصورةَ، أُنظر.. إصبعا السبابة والوسطى في اليدِ اليُسرى متضرران جدًا، الأَظافر مكسورة وشبه مُقتلعة.

صمتَ منتظرًا ردةَ فعلهِ لكنهُ لم يبدُ أَنهُ فهمَ ما يُريدُ قولهُ:

- لقد حاول الطفلُ الزحف على الأَرضِ.

صمتَ أَفرادُ الفريقِ لعدةِ دقائقٍ قبلَ أَن يستأنفَ الطبيبُ:

– هناكَ مدةٌ زمنية مرتْ ما بينَ الضرباتِ وموتهِ، بينهما هناكَ الكثيرُ من الدماءِ.

رفعَ أَمامهما إحدى الصورِ، هناكَ علاماتُ جر.. في الأَولِ ظننتُ أَنَ القاتلَ جرهُ.. لكن.. يبدو أَن الضحية قدْ جرَ نفسهُ باَستعمالِ ذراعهِ اليُسرى قبلَ أَن يستسلمَ لسطوةِ النزيفِ.. على الأَغلبِ أَنَ القاتلَ اعتقدَ أَنهُ قد فارقَ الحياة وتركهُ.

دقيقة وقد خيم الصمت عليهمْ قبل أَن تتجرأ شوق وتسأل:

– أَلم يُقاوم؟

–هناكَ علاماتٌ في الصورِ، رغمَ أَنَ الطبيب بيير فونَ لم يوضح ذلكَ في تقريرهِ، تتفقُ مع مُقاومتهِ قبلَ موتهِ.. جروحُ الركبتينِ والمرفقينِ.. كسرُ في بعضِ الأَظافرِ.. كدماتٌ على الوجهِ..

قالَ بحسرةٍ:

– لكنهُ مُجردُ طفل!.

سأَلت شوق:

– لم يتعرض لاعتداءٍ جنسي؟

–لا.. لا دلائل لذلك حسب التقريرِ.

غادرَ (آدم) بمرافقةِ نصرِ الدين الذي اقترحَ عليهِ أَن يوصلهُ حتى يبلغَ سيارتهُ، توقفَ الطبيبُ خلفَ البابِ وهوَ يُنصتُ للغزوانِي الذي أَمرَ بإفرادِ عدةِ نسخٍ من التقريرِ الجديدِ.

***

أَخذَ نفسًا عميقًا لكنْ هذا لم يَمنع الارتباكُ من التغلغلِ لكلماتِ نصر الدينِ وهوَ يُعلمُ رئيسهُ أنهُ لم يتوصل لأية معلوماتٍ عن هويةِ الطبيب (هلال)، لا في المشفى الجهوي بالمظيلة، ولا مستوصفِ المنسية، بل أَنهُ وسعَ دائرةَ بحثهِ لتشملَ الصيدلياتِ بكلِ المعتمديةِ.. لكنْ لم يتعثرَ على أية معلومةٍ تثبتُ أَن طبيبًا شابًا يُدعى هلال قَدْ عملَ بالمنسيةِ أَو المظيلةِ خلالَ الفترة الممتدةِ ما بين بداية الثمانيناتِ لنهايتها:

-ليسَ وكأَن اسم هلال شائعٌ هنا

غمغمَ نصر الدين وهوَ يحكُ رأَسهُ.

تجهمَ الغزواني، هاهو طريقٌ مسدودٌ آخر أَمامه، لقد بدا الجدُ بوزيد متأكدًا من اسم هَلال كما كانَ متأكدًا من صفتهِ.. فلماذا لم يعثروا على شيء؟ انتبهَ لُمساعدهِ الواقفِ أَمامَ طاولةِ مكتبهِ:

– لماذا مازلتَ هنا؟.. غادر وأَعد البحثَ في قائمة الاطباءِ الذين سكنوا في المنسيةِ خلال تلكَ الفترة، احصر الصفاتِ حول طبيبٍ شابٍ.. ربما يكون (هلال) لقبهُ.

تنحنحَ نصر الدين وهرشَ صلعتهُ مرةً أُخرى بارتباكٍ:

– في الواقع لقدْ وصلَ تقريُر الشرطةُ الفنيةِ والعلمية حولَ الاختباراتِ على ملابسِ القتيلِ.

ناولهُ التقريرَ وهوَ يقول:

– للأسف لا يمكنهمْ حصد أَيُ حمض نووي منْ أَغراض الضحيةِ وملابسها.. كاللعاب أَو العرق والشعر، بعدَ مرور كل هذه السنواتِ.. لو كان السلاح مَوجودًا لكانَ هناكَ إمكانيةٌ لاستخراجِ البصماتِ.. لذلكَ قالوا

أَن ما يمكنهم التأكيدَ عليهِ الآنَ أَنَّ كلَ الدماءِ مطابقةٌ لدمِ الضحيةِ فقط.

الطب الشرعِي في ذلك الوقتِ لم يكن في أَفضلِ حالاَتِه، حتى اختبارات الحمض النووي لم تكن دارجة، ظنَ أَنهُ يمكنُ الآن الحصولُ على شيء.. استذكرَ نصر الدين ما جاءَ في تقريرِ الشرطةِ الفنيةِ الذي أَكدَ على أَنَ قميص القَتيلِ احتوى على أَليافٍ زرقاءَ من نَسيجٍ كتان.

-أَليافٌ زرقاءَ من الكتانِ؟

-يمكنُ أَن يكونَ أَيَّ شيء.. إِنهُ يستعملُ في الكثيرِ من المنتجاتِ.

دقَقَ الغزواني نظراتهُ بالكلماتِ، إذن اختباراتُ الدماء التي وجدتْ على القميص والسروال كانتْ كلها تعودُ للضحيةِ حسبَ الوثيقةِ الأُولى، لواها للخلفِ مُتفحصًا الورقة الثانيةَ، حيث سجلت نتائجُ اختبارات الترابِ على باطن الحذاء والذي أَكدَت على احتوائها على بعضِ الطينِ والرملِ.

ظلَ عمادْ عابسًا متقوقعًا في زاويةِ مكتبهِ وهوَ يُتابعُ حديثَ نصر الدينِ معَ قائدِ الفريقِ، ساعاتٌ من البحثِ وأَيامٌ في انتظارِ نتائج المخبر الجنائي فيما يخصُ رفعَ البصماتِ والحمضِ النووي انتهى بجمعِ أَدلةَ لا تُساعدُ في شيء.

راقب المحققُ المحلي علاماتَ الرفضِ التي أَظهرها الغزواني، لم يعنهِ الأَمرُ؛ فبالنسبةِ له انتهى التحقيقُ المبدئي، وإن كانت الحربُ مع أَهالي البلدةِ ستهددُ سيرَ التحقيق، واجهَ عماد طوالَ سنواتِ عمله، عندما كانَ أَصغرَ سنًا، قضايَا مُشابهة حيثُ يثورُ الأَهالي ضدَ اتهامِ أَحدِ منهم؛ خاصةً في تلكَ القضايا المُرتبطةِ بمناجم المظيلةِ، والتي تظلُ بعضَها في أَروقةِ المحاكم عمرًا بطولِه، حافظَ على جلستَه المُريحةِ وهو ينتظرُ تعليقَ الغزواني الذي يكادُ يلتهمُ الأَوراقَ بعينيهِ، سأله بعدَ أَنهُ لم يتكلم:

-وجدت آثارُ طين في باطنِ حذائه؟ لم تسجل أَية قطرة مطر في تلكَ الأَيام.

-الكتانُ الأَزرق.. إنهم يحللونها الآن، في السابق لم يملكوا تقنيات مُتطورة للتعرف على مصدرِ الأَنسجةِ والأليافِ، الآن يُمكنُ أَن يصلُوا إلى شيء سيثيرُ اهتمامنا بالتأكيد.

سارعَ إليهِ نصر الدين قَائلًا:

- أَلا يمكننا استخراج رفاتهِ؟

ضحكَ الغزواني:

- أكدَ آدم، الطبيبُ الشرعي، أَنهُ لا يُمكنُ الوصولُ إلى أَية نتائج بعدَ كلِ هذا الوقت، كما أَنَ الأَمرَ لهُ تعقيداتٌ إدارية، قَالَ أَنهُ لَا يمكنُهُ فعلَ الكثير دون جثة حديثةٍ.

كانَ محبطًا، رغم ضحكهِ؛ خاصةً وأَنهم لم يتوصلوا إلى أَية معلومة مفيدةٍ حولَ الرجلين اللذين يبحثانِ عنهما.. مازادَ الأَمرَ سوءًا أَنَّ عماد أَكدَ أَن لا أَحدَ من الأَفرادِ الذينَ كانوا في القضيةِ السابقةِ قدْ عرفَ هويةَ صاحبَ الأَصابعِ المقطوعةِ.

مضى اليومُ بطيئًا، حارًا.. قبلَ أَن يعودَ الغزوانِي إلى منزلِ والدتهِ.

***

غاصَ (سالم) في المقعدِ الجلدي؛ لكنه لم يستطع الاسترخاء أَبدًا، منذُ انعقاد الجلسة العامة للشركةِ للثلاثية الثانية من السنةِ مساءَ البارحةَ، الشركةُ التي يُديرُها في أَزمةٍ، الشركة المُتوسطيةِ للفوسفات، ثاني منتج ومصدر للفوسفات بعد الحكومة التونسية، كانت إدارتهُ لها تُشعره بالفخر والخوف والحرص أَيضًا، كان عملًا ومنصبًا أَشبه بالحلمِ.

كررَ المُديرُ المالي (صادق عُكاشة)، على مَسامعهِ مرةً أُخرى نفسَ الكلامِ بعدَ أَن بدا لهُ المُديرُ التنفيذي غير مهتم:

- أَقولُ أَنَ الأَحوالَ لا تَسير كما هو مأمولٌ، الصادراتُ لم تتوقف بالكامل لكنِ النسق قد شهدَ تراجعًا واضحًا، الشاحناتُ تخضع للصيانة الدورية، لا شكَاوى ضخمة من العُمالِ لكن يبدو أنَّ احتجاجات الشبابِ تتسببُ في بعضِ التأخير والضررِ.

كانتْ الشركة المُتوسطية قدْ سبقتْ الشركة الوطنيةِ في اعتمادِ الشاحناتِ لنقلِ الفوسفات لوحداتِ الإنتاج؛ لتلافي خطورةِ توقفِ الصادراتِ بسبب قطعِ المحتجينَ لسيرِ القطاراتِ والتلاعبِ بالقاطراتِ، وهوَ أَمرٌ تعاظمَ منذُ اندلاعِ الثورةِ.

لوحَ المديرُ المالي الخمسينيِ بمقررات الأَبحاث المالية الحالية والمستقبلية موضحًا:

- ما يقلقُنا هو تزايدُ بؤرةِ الاحتجاجاتِ سيد سالم، يجبُ أَن تَتَصرف وإلا سنخسرُ ليسَ المُستثمرينَ فقط بل هذهِ الشركةَ.

صادقتْ (علياء) مُديرةُ العلاقاتِ العامةِ على مَخاوفِ مديرِ الماليةِ لكنَ طلبها كانَ مُختلفًا:

- عدهمْ بفتحِ عددٍ من الوظائفِ في القريبِ العاجلِ في الشركةِ والمُجمعِ.

صرخَ صادق وقد احمرَ أَنفهُ:

- أَهذهِ نصيحتكِ؟ لا نستطيعُ توفيرَ أَية فرصةِ شغلٍ الآن!.

وضحت علياء:

– كما لا نستطيعُ خسارةِ هؤلاءِ المُستثمرينَ.. همْ دعمنا المنتظر الحالي ولسنواتٍ قادمة.. يا سالم لا يمكنك فتح جبهة قتال الآن مع المحتجينَ.. أَسكتهم بأَيِ شيء الآنَ.

أصغى المُدِيرُ الشابُ لمخاوفهما بصمتٍ.. كانَ سالم يُكافح من أَجلِ توطيدِ حضورِ الشركةِ في سوق الفوسفات في الحوض المتوسطي؛ خاصةً بعدَ الاضطراباتِ السياسيةِ والاقتصاديةِ التي تضربُ البلاد منذ أَكثرِ من سنتينِ، كانتْ علياء أَكثرَ إِصرارًا:

– الأَمرُ لا يتعلقُ بمعجزة، سالم أنت واقع تحت ضغط الاحتجاجات، الدعاوي، تراجع الصادرات، المستثمرين، والآن قضيةُ مقتلِ عادل.. أنت تحتاج إلى شيءٍ أَكبر من معجزة، فلتقبل مقترحَ المُستثمرينَ الَروس كحركةٍ لإنقاذ ما يمكن إنقاذهُ.. وهناك أَعلنْ عن فتحِ المجالِ لموجةِ انتداباتٍ استثنائية في ظرف شهرينِ.

ابتلعَ المُديرُ المالي لُعابهُ، وقد خف احمرارُ أَنفهِ مع تراجعِ علاماتِ انفعالهِ..

– أَنا أُوافقها من جهةِ المستثمرينَ الروس.. سيدي المَستثمرون يهددون بالتحويلِ استثماراتهم المُرتقبة لمدينة اساف المغربية، ووحدات انتاجنا ستتوقفُ تمامًا مستقبلًا بسبب الاحتجاجاتِ، لقدْ تراجعت الأَرباح بنسبة ٤ بالمائة عن الثلاثية السابقة و١٧ بالمائة عن السنة السابقة، كل هذا بسبب الاضطرابات التي نواجهها منذ جانفي ٢٠١١، لا شيء يسيرُ كما يجبُ.

كانَ (عكاشةَ) رجلًا مثيرًا للإعجاب، استطاعَ أَن يقفزَ بنفسهِ وعائلتهِ من مُستنقع الفقرِ باجتهاده ودهائه ملتحقًا بأَبرزِ الجامعات في البلادِ مع بدايةِ الثمانيناتِ، قبلَ أَن يلتحقَ سريعًا بالشركةِ دونَ وساطة أَحدٍ، كانَ فخورًا بأَنهُ أَولُ فردٍ في عائلتهِ بل أَول شابٍ في بلدتهِ يتخرجُ منَ الجامعةِ.

محاولًا تمالك أَعصابه بعد أَن أَفقدها مديره برودتها:

- إذن إننا في طريقنَا للخسارةِ؟.

قال سالم بامتعاض.

أَومأ صادق عكاشةَ موافقًا أَخيرًا بعدَ أَن لمحَ تأثيرَ كلامهِ على مديرِ الشركةِ:

-يا سيد سالمِ.. لا يُريدُ المستثمرون رمي نقودهم في مشروع غير مأمون.. نحن ننتج بضاعةً يا علياء، نحتاج إلى سوق تقبلها بأقل التكاليف؛ وقبل هذا علينا إقناعهم أن التعامل معنا في بلد رأسه بالأسفل أجدر وأَربح لهم من الاستثمار بمدينة اساف المغربيةِ.

بعدَ مُغادرةِ عكاشة وتوجهِ علياء لمكتبها لتصلحَ زينتها، فضلَ سالم أَن يظل وحدهُ في مكتبهِ حتى تهدأَ أَعصابهُ، شعرَ وكأَنهُ مخنوقٌ، وكأَن هناكَ من يضخُ هواءً فاسدًا داخلَ رئتيهِ.. نهض وتقدمَ باتجاهِ النافذة الخارجية لمكتبهِ الذي يقعُ بالطابق الثالثِ من مقرِ الشركةِ بوسطِ المظيلةِ.. من وراءِ الزجاجِ كَانَ بإمكانهِ مُشاهدةُ نصفَ المبنى المُشيدِ بالحجرِ والصلب.

حملَ حقيبتهُ وخرجَ مغلقًا بابَ مكتبهِ، انفتحتْ أَبوابُ المصعدِ، دخل، في أَثناءِ نزولهِ فكرَ، سوفَ يُحاولُ جذبَ رؤوسَ الأَموالِ الروسيةِ لصالحِ الشركةِ ليسَ لأَن علياء كانتْ صادقة فقط؛ بل لأَنهُ لم يعد أَمامهُ الكثيرَ منَ الخياراتِ الأُخرى، وعلياء لطالمَا ساندتهُ في أَحلكِ الظرُوفِ بنصائحها وتوجيهاتها، ولم تبخل يومًا عليهِ بشيءٍ حتى حُبها وجسدها، فتحَت الأَبوابُ عندَ الطابقِ الأَرضي ليجدُ علياءُ تنتظرهُ بابتسامةٍ.

***

أَرخى الغزواني كتفيهِ، ومالَ برأسه ليتأملَ تلك الخربشات التي نقشها وعادل على جانبَ من حائط الغرفةِ.. بالأعلى قليلًا ثبتَتْ بمعجونِ الأَسنانِ أزواج من الصور غيرَ المؤطرة، مُعلقة منذُ ربع قرنٍ.. كما هي لم تذبل رغم رحى السِنين التي مرتْ عليها.. في إحداها طَوقتْ ذراعه رقبةَ عادل، بينما جلسَ سالم بابتسامته المَعهودةِ بجانبه، وقد أَحاطت ساقاه المَضمومتان بالكرةِ، كانت علياء الأكثر بروزًا وتأَلقًا، كان يمكنه تحديدًا رؤيةُ البريقِ الذي ظهرَ لحظتهَا كومضة خَاطفةٍ.

لا يجرؤ على استذكارِ الماضي.. يشعرُ أَنهُ مجرد متلصص يتطلعُ لما مضى عبر فجوة زمنية بعيون مذعورة، نظرةَ المتفرج الذي يُدركُ مسيرَ الأَحداثِ ويعلم على تلك الثواني التي ستفصلهُ عن تعثر حذائه بجثة صديقه.. تشنجت أَصابعهِ الممسكة بكأسِ الماء.

-كيف حالكِ يا يما؟

كانَ يجلسُ بجانبها على الكليم العربي، بينما رقد بقرب ركبتها حفيد جارتها (يامنة)[1] ذو التسع سنوات، كان يوليه ظهره وقدْ بان جزءٌ من جسمهِ عاريًا.. كانَ قد تعبَ من اللعب ونامَ بعريهِ وقذارةِ رجليهِ رغمَ محاولاتِ الطاووس إيقاظه من أَجلِ الطعَامِ.

-كي حال الكرموس في العديلة[2]

استبدلت همهمتها غير الواضحة بمثلٍ قديم، استعرضَ بعينيه قوامها الهزيلِ، يكسو جلدَ وجهها المُترهل تلك الصفرة الخفيفة التي بدا يُلاحظها

(١)أمنة.

(٢)تقصدُ أَنها مُنهكة.

منذ قدومه للبلدة.. وجد نفسه يبتسم رغماً عنه، نقل الملعقَةَ إلى يُسراه.. أَحاطَتْ يُمناهُ برأسها من الخلفِ مُقبلًا جبينها:

- متعك الله بالصحةِ!.

تعيشُ أُمهُ بِمنزلٍ لم تستبدل به آخر، وحياة ليست أفضل ولا أَسوأ مما تعيشه جاراتها، قنعت بحياتها ومظاهرَ التقشفِ، لم تتبرم من الحر ولا من قساوة الليل وظلم الوحدة التي لازمتها لسنواتٍ بعدَ وفاةِ زوجها وتفرقِ أَبناءِها وبناتها.. أَنفقتْ أيامها في خلوةٍ، عبادة، أو مسامرة البرامج التلفزيونية.

ما إن رفع قطعةَ الخبز حتى بادرته بالسؤال:

- هل زرت أَهل عمكَ؟

-بقدرِ يكفي ليشاهدوا وجهي.. معَ أَنني أُراهنُ أَنهم أَحصوا عدد الشيبات الّتي في رأسي.

-هل رأيتَ ابنة زَوجةِ عمكَ.. إنها جميلة أَليسَ كذلكَ؟!

لقد عرفَ حقًا إلى أَينَ يُمكنُ أَن يجرهُ هذا الحديثُ أَو حتى مُجردِ وجودهِ في المنسيةِ:

- لم أَتفرس في وجهها.

-لماذا لم تفعل أَيها اللعينُ؟! ماذا ستخسرُ إن أَلقيتَ نظرةً صغيرةً؟!.. أَحمق.. لماذا تنظرُ إليَ هكذا؟! هيا كل.. كل!.

-يما.. إنني بصددِ التحقيقِ في قضيةٍ.. لا يمكنني أَن أَحومَ في البلدةِ أَبحثُ عن مجرمينَ وفي نفس الوَقت أَسأَلُ إن كان عندكم فتاة للزواجِ؟

-يُمكن لماذا لا، يُمكن.

-العائلةُ تقرؤكِ السلامَ ويسألونكِ عن البناتِ.

-غير الموضوع.. غير.. أُختاكَ يُردننِي أَن أَزورهنَ بالساحلِ.. لا أُريدُ الذهابَ.. ثمَ إِنهن يشتكينَ منكَ.. لماذا لا تزورهن؟!.

-إِنني مشغول.. أَليسَ عليكِ الذهاب؟ غيري المشهدَ.. الوجوهَ.. ارتاحي قليلًا من لونِ المرضِ هذا.. لماذا أَنتِ مُصرةٌ على البقاءِ هنا؟ لا أَعرفُ لم مازلتِ عاشقةً لهذهِ الأَرضِ الجافةِ التي لا تفطحُ سوى صديدًا؟!.

-أَنتَ كوالدِكَ الله يرحمه.. لم يحب العيشَ والعملَ بهذهِ البلدةِ.

صادقة هيَ، فقدْ ورث عن والدهِ سمرته المحببة، وانحناءات وجهه الحادة، وجبهته العريضة وتفضيلهِ العملَ بالساحلِ.

-يما، كيف مات أَبي؟

-أَنت تعرف.. من داء الرئةِ

-لكنه لم يعمل بالمناجم، كان مُجرد مُزارع كما لم يكن مُدخنًا وفيًا.

هزت كتفيها:

- لا أَعرف قال الطبيب أَن رئتيهِ تُشبهان قاعدة القدرِ من السخام.

حركت والدته يديها فوق الطبق، ودفعتْ أَمامه بقطعة لحم الغنمِ، ظنتْ دائمًا أَنهُ لا يتناولُ كما يجب وما يجبُ، تغلبُ الدهون والزيوت وأَطعمةِ الشارع على طعامه، خضت قارورة اللبن الطازج وسكبت بعضهُ بإِبريق فخاري كبير.. نظرت إِليهِ وهو يأكل بصمت.. فكرت أَنَ هناك متسع للقلقَ والتفكير في قادمِ الأيامِ.. تريده الآن أَنْ يرتاحً فقطْ.

***

اقتحمَ الكابوس مرةً أُخرى أَحلامهُ.. سارعَ الى الحمامِ ووضعَ رأسهُ تحتَ ماء الحنفية لدقيقة..دقيقتين.. لازالت المشاهد المُرعبةُ عالقة برأسهِ،

أَوتراها مشاهد حقيقية؟ هل اختلطَ عليه الأَمرُ لهذه الدرجة؟ عاد لغرفتهِ، أَنارها وجلسَ يستردُ أَنفاسهُ.. الكوابيسُ ليسَ غريبةً عليه، أَغلبها مرتبطٌ بما يُشاهدهُ من جرائمِ مروعةٍ أَثناءَ عملهِ.. أَولُ قضية صادمة شارك فيها كانت لأُمٍ رمت ابنتيها فيٍّ بئرٍ بعيدة عن بلدتها بقابس، ليلتهَا ولليالٍ أُخرى جفاه النومٍ واستحوذَت عليهِ الكوابيس حتى بوضح النهار، لقد مرت أَكثر من ١٣ سنة ولكن ذكرى الأَمرِ لازالتْ تُؤرقُ مضجعهُ.. لكنْ هذا الكابوسَ مختلفٌ.

حاولَ أَن ينامَ مرةً أُخرى لكنْ يبدو أَن النوم قدْ غادرَ مقلتيه، بينما كان هدير شاحناتُ نقلِ الفوسفات من وراء المنسية يقطعُ سكونَ المنزلِ ويخفف وطأة الظلمة التي يُخففها ضوء القمر، حتى القمرُ بالكادِ يظهرُ من نافذتهِ بسببِ تغولِ البناءات وتمددها على حساب الأَرضِ والهدوء.

نهضَ ورفع رأسه، بطرف أَصابعهِ التقطَ صورتينِ.. كانت عيناه محتقنتين مع جفونٍ ذابلة نصف مغمضة وكأنه مخدر، دفعَ بالصورتين أَمامهُ يتفحصهُما.. في إحداهما كانَ عادل يبتسم وكأنه سيعيش للأبدِ بقميصه الترابي نفسهُ الذي قتلَ عليهِ وساقينِ حافيتينِ.. الصورة الثانية ملتقطة في خلفية منزلهِ بوجهٍ مشرقٍ يحتضنُ تحتَ ذراعه الهزيلة عجلتهُ.. كانتْ آخر صورةٍ لهُ، وضعَ الصورتين بعناية على حجرهِ، كانتْ والدتهُ قد قالتْ لهُ منذُ ساعاتٍ كلامًا أَوجعهُ، وربما غرسَ الرعبَ في خطواتهِ

«هلِ تعتقدُ أَنكَ سترى شيئا لم يبد لسابقيكَ؟ وجودكَ هُنا يذكي جرحًا فكرتُ أَنهُ اندملَ ويزرع أَملًا في تربة مالحةٍ».

***

رفعَ رأسهُ، كادتْ أَن تفلتَ من شفتيهِ سبةٌ في هذا الصباحِ.

تفننت شوق في تزيين حيطان المقرِ بشتى أنواع اللوحات، قطط صغيرة ملونة، خريطة الولاياتِ والأَقاليم بالبلادِ التونسيةِ، شلالاتُ نيغارا في منطقة جافة كالمنسيةِ أمر مثير للسَخرية والغثيان، فكرَ الغزواني بنزعها ورميها في القمامة «أتظنها غرفتها الخاصة؟!» لكنه فضل أن لا يصعد من علاقتها المتوترة سلفًا.

حياهما وجلسَ.. لاحظَ أَنَهُ تم تغييرُ الثلاجةَ، من حسنِ الحظِ أَنَهم سارعوا بذلكَ وإلا انفجرتْ قبلَ انتهاءِ تحقيقاتهم، تناولَ كوبَ ماءٍ باردٍ وتنهدَ، كانَ بحاجةٍ لهذا الانتعاشِ.. استرجع صورة الحذاء والحجارة والدماء والجثة المُستلقيةِ على ظهرهاَ، أَغمض عينيه وفتحهما ليس هناك، لا طفل ولا حذاء مفقود، إلا في غمرة ذكرياته المسجونة بقتامتها وبراءتها.. أَدارَ رأسه وعاودَ مُشاهدةً لوحةَ التحقيقِ.

أَسرعتْ شوق إلى جوارهِ وقالتْ:

– كنتُ أُنظمُ المقالاتِ التي تحدثتْ عن جريمةِ المنجمِ القديم.. لكنْ بالصدفةِ وجدتُ هذا الخَبرِ.

«مقالٌ صغير في ظهرِ إحدى قصاصاتِ الجرائدِ القديمةِ عن حادثة وفاة طبيب نتيجة اندلاعِ حريقٍ بمقرِ سكناه بالمنسيةِ» كان ليكون مجرد خبر لو لا أَنهُ أَثَارَ انتباه شوقٍ.

–اسمهُ هلال!

دققَ الغزواني وقد انضمَ لهما نصر الدين قائلًا:

– هل يُمكنُ أَن يكونَ من نبحثُ عنهُ؟

-فهمتُ الآن لماذا لم نجدهُ في قائمة الأَطباءِ الحكوميين بكلِ المظيلةِ.. إنه طبيبٌ بالشركة المُتوسطيةِ للفوسفات.. نصر الدين اتصل بمحسن ليبحثَ عن معلومات حولهُ.

ما أَغضبهُ حقًا أَنهُ كانَ أَمامهم طوال هذا الوقتِ ولم يروه!.

***

جلسَ نصر الدين حاملًا الورقةَ التي أَرسلها محسنَ بالفاكس:

- للأسف عائلةُ هلال ليست مقيمة هنا.. إنها من جهة جبنيانة(١).. كان في إعارة بالمظَيلةِ من أَجل التجهيز لشهادةِ الدكتوراة، وفي نفسِ الوقتِ عملَ كطَبيبِ متدرب بالشركة، كما كانَ ناشطًا بيئيًا.. لكنْ عمهُ يعيَشُ بالمظَيلةِ.

-يُمكنُ أَن ننظرَ في أَمرهِ لاحقًا، ماذَا أَيضًا؟

-نعرفُ أَنَ أَخاهُ الأَصغر يَعمل مُمرضًا بإحدى المصحات الخاصة في صفاقس، وأخاهُ الأَكبر يعمل سائق أجرة في فِرنسا، ولم يعد للبلادِ منذ سنواتٍ، يتواصل مع عائلته عبر السكايب.. الأَب مُتوفى منذُ عشرينَ سنةٍ تقريبًا، والأُم تزوجتْ بعدَ حادثةِ موتِ هلال بسنتينِ.

أطرقَ الغزواني للحظاتٍ قبلَ أَن ينهضَ:

- سأَمرُ على فَرعِ المَواردِ البشريةِ بالشركة المُتوسطيةِ، وأَبحثُ في الأَمر.. نصر الدين ابحث في أمرِ تقريرَ الطَبيب الشرعي للحريقِ بالتأكيدِ يُوجَدُ واحد، فليُساعدكَ عماد والتق بعمهِ لنرى ماذا يقول.. وأنتِ شوق كبِّري صورةَ الضحيةِ في الجريدةِ ومُري على عم سعيد، واسألي إنِ كان هو نفسُ الشاب الذي لمحه قبلَ ليلةِ الجريمةِ بيوم.

-هذا يعني الليلةَ التي توفي بها حرقًا.

---

(١)مدينة تقع بولاية صفاقس بالساحلِ التونسي.

١٩٨٨

اختلطت حماسة الصباح مع غُثاء الخرافِ التي يسوقُها راعيها نحو ما اخضرَّ من سفح الجبل، واختلط هدير آلات محل النجارةِ للإيطالي (ماريو) بصوت عربة بائع البيض المسلوقِ على ناصية الشارع المُطل على البلدية، ذات البناء الأَبيض، وجموع العمال المُحتجين الجالسين على الرصيفِ الأَقرب لها وللمعتمديةِ.

كانَ الجوُ مُشبعًا بالتوترِ والنظرات السامة، أَلصقوا ورقةً على الجدار ذكرتْ فيهَا أَسماءُ المُسرَّحِينَ.. كان جميعهم تونسيين وإيطالي واحد، تم إعلان تسريح سبعة عمال آخرين خلال شهرين ثمَ تمَ الاستغناء عن عدد آخر من عمال المنجم.

***

أَيا يكن أَمرُ الاحتجاجاتِ ونهايتها كانَ (يَاسين الغزي) غيرَ مكترثٍ لها، سار باتجاه طاولة المطبخ ببذلته ذات الثلاث قطع، التي أَبرزت طول جسده وعرض منكبيه.. هزَ كتفيهِ بابتهاج وهوَ يتفحصُ قائمةَ العشاءِ التِي أَعدها طاقم الطبخ، ثم صبَ اهتمامه على قائمةِ الحلوى التي تُعدها (سوسو) المختصة في كل ما يمسُ الحلوياتِ التونسية والمغاربية، لحس شفتيهِ وهو يرمقُ قطع البقلاوة التي رُتبت بشكلٍ أَنيقٍ في صحنٍ فضي، وقد تقاطرت قطرات العسل من جوانبها.

كانَ المُشرفَ على هذهِ الأُمسيةِ بأسنانٍ بيضاء يبرزها كلٍ فينة وأخرى، ليؤكد لنفسه قبل الآخرين أَنهُ قادرٌ على إِنجاح السهرية المُنتظرة من قبل

المولين والمدير التنفيذي للشركة المُتوسطية التِي تحتفلُ بثلاثينيةِ تأسيسها، لذلك لم يكن أبدًا من الغريب أن يكون أولَ الحاضرين وآخر المغادرين، كان فقط يريد أن يترك انطباعًا جيدًا في ذهن من يفوقه مَرتبة:

-سوسو، لم صحنُ كعك الورقة[١] يبدو مصفرًا وكأنهُ صُنعَ من رمال البلدةِ؟.

تمتمَ بتذمرٍ وهوَ يرمقُ الصحنَ.

أَقبلت شابة ٢١ ربيعًا وهيَ تتمايلُ بأردافٍ مكتنزة، وخدودٍ حمراءَ:

-سنغيره سي الغزِي.

بدت كالمعتادة على التقريع، كانت تود لو ترميه بالصحنِ في وجهه ولكن ما ذنب قطع الحلوى؟! التقطت صحنًا ثانيًا منِ البلور الأحمرِ الشفافِ ذي طراز إيطالي، فرشت عليه طبقة من الورق الأبيض وأَعادتْ ترتيبَ قطعِ كعك الورقِ عليه.

ترك الغزي المطبخ وتوجه نحو بهو الفندق حيث ستلتئمُ الحفلةُ، طرطقَ كعب حذائهِ على الأرضية الرخامية البيضاء، بلغته رائحة معطر الجو وأصوات العاملينَ وهم ينهونَ آخر التزيينات وترتيبات الدِيكورِ، بينما وقفتْ مُوظفةُ الاستقبال مبتسمة وهيَ تَستقبلُ الزائرين والسياحَ الذين توافدوا على الفُندُقِ، المظيلة في الثمانينات مُختلفة عن الأعوامِ السابقة حتى في طبيعة وجنسيات سياحها.

مسحَ بأَصابعهِ على سطح الطاولاتِ، لا قذارةَ، أَلقى نظرة على النباتاتِ البلاستيكيةِ التِي تُزينُ أَركَانَ الصالةِ، كم يكرهُها، عندَما كانَ يتفحصَ

---

(١) اسم أَحد الحلوياتِ التقليديةِ التُونسيةِ.

الكراسي ذات الجلد المزيفِ أَثارَ انتباهه أَحد العمال الذين لا ينتمون لا إِلى عمال التوصيلات أَو جمع النوادلِ.

كان شَابًا متوسط القامةِ، أَسمر اللونِ بعيونٍ حمراء، وكأنه استيقظ منذ ثوانٍ فقط.. شاهده وهو يَستند على باب المَدخلِ قبل أَن يجر قدمين بتثاقل نحوه.. عرفهُ، كان عاملًا بالمنجم، ماذا يفعلُ هنا بمعطفهِ الأَزرقِ؟ إِنه يفسدُ سُمعةَ المكانِ بمجردِ حضورهِ بهذِه الثيابِ غيرَ المُناسبةِ.

توجه إِليهِ، قطع الممر ووصل إِليهِ وهوَ يتلفتُ يَمينًا ويسارًا:

- أَنت.. ماذَا تفعلُ هُنا؟

أَجفلَ الشابُ قبلَ أَن يستعيد توازنهُ وتعابيرَ وجههِ الجامدةِ، قبض الغزي على ذراعه وهمس وهوَ يَجرهُ:

- أَلم أُخبرك أَلا تريني وجهكَ هُنا أَو في الشركة؟!

سار به خارج بوابة الفندقِ.

في الأَثناءِ غيرتْ صانعةُ الحلوياتِ صحن كعكَ الورق بعدَ أَن تناولتْ قطعةً خلسة، تحسست بطنها وهيَ تلتقط رائحة السمك المشوي، إِنها لا تسمنُ مهمَا أَكلتْ من حلوياتٍ إِلا في منطقةِ الحوضِ، ذكرتْ نفسهَا أَن هذَا أَفضلُ من لا شيء، أَصغتْ لهمهمات العاملينَ وأفراد طاقم الطبخ والتنظيف، رفعتْ رأسها لمديرِ الطاقمِ وهوَ يسأَلُ عن الكؤوس الكريستالِ وفناجينَ القهوةِ.

كانَ رجلًا مُنظمًا دقيقًا في عملهِ، وإِلا ما كانَ تم استقدامهُ للإشراف على تحضيراتِ الطعام هذه الليلَة.. اقتربتْ من نافذةِ المطبخ المطلةِ على المدخل الخلفي من الفندُقِ، وأَخذت تُحدقُ بها حولَ المكانِ، كانَ من عادةِ (ضوء)

الصياد أَن يُوفرَ لمطبخِ الفندقِ بعض طيور الحجل أَو الحبارى، لكن يبدو أَن رحلتهُ هذهِ المرةَ قدْ سَرت بوتِيرةٍ بطيئة فلم يظهر منذُ أُسبوعينِ تقريبًا، شيء مؤسف بعضُ المولين يحبُونَ لحم الحبارى المشوي.

كانت ستلتفتُ لتعودَ إلى عملها عندما لمحت المشرفَ العام سي الغزي وهوَ يُسلمُ أَحدهم شيئًا بالقَربِ من النافورةِ.

***

–سأتولى حل المشكلة ليلة الغد..

كان يجب أَن يكون على استعداد دائم، فلم يعرف أَبدًا متى يحتاجونه للقيام بأفعالهم القذرة.. أَسرعَ العاملُ مغادًرا بعد أَن حشرَ شيئًا تسلمه من الغزي في جيبهِ، بينما حدقت إحدى النادلات فزعةً لمرأى يدهِ ذاتَ الأَصابعِ المَقطوعةِ.

***

القســم الثـاني

«هذا البلد أكثر ثراءً مما يظنهُ الجميعُ، ولكن اللُصوصَ والفاسدين فيهِ أكثر ممَا ينبغِي، وأقوى مما يَجبُ».

كتيبة سوداء،

محمد المنسي قنديل.

«سيدي، تعرَّفَ سعيد القفصي على صاحبِ الصورةِ، لقد أَكدَ على أَن هلال هو من كانَ في الجبل ليلة ما قبلَ الجريمةِ».

أَقفلَ الغزواني الخطَ على إِثر تلقِي هذا الاتصال.. ظلَ واقفًا بمواجهةِ ساحةِ المعتمديةِ، يُفكرُ ويسترجعُ ما علقَ بذاكرتهِ عن المكانِ، الذي كانَ يومًا ما مركزًا لإحدى فرق الجيش البري الفرنسي في الفترة الاستعمارية، كان يحبُ هذه الساحةُ عندما كانت معقلًا لمغامراته وأصدقائه.

فكرَ في أَثناءِ صعودهِ للطابقِ الثاني من مقرِ الشركةِ المُتوسطيةِ أَن يقومَ بزيارةٍ خاطفةٍ لصديقِ طفولتهِ سالم؛ لكنهُ تراجع عن ذلك فلم يكن مُحبًا لخلطِ المهماتِ التي يَتطلبها تحقيقهُ مع العلاقاتِ الشخصيةِ.. بعدَ عدةِ أَسئلةٍ وُجهَ إِلى مكتبِ مُدير المواردِ البشريةِ الذي قابلهُ بوجهٍ عابسٍ تعاظمَ مع تبينِهِ لسببِ زيارةِ المُحققِ لهُ.

استلمَ المُديرُ من عندِ سكرتيرتهِ ورقةً واحدة ضمت معلوماتٍ عن السيرةِ المهنية للطبيبِ (هلال المحمدي)، كان قد طلبها منهُ الغزواني الذِي سأَلَ:

– لماذا لم يقعْ التحققُ من حادثة موتِ هلال.. لقد ماتَ محترقًا؟!.

ثبتَ مُديرُ المواردِ البشريةِ نظاراتهُ وراءَ أَنفهِ جيدًا وأَجاب دونِ أَن يخفِي لا مُبالاته:

- في ذلك الوقت.. أَي في آخر الثمانيناتِ.. كانتْ الإمكانيات المحدودةً، فَليس كلما طار طير يُفتحُ تحقيقٌ ويُجرُ الطبيب الشرعي من رقبتهِ.. الحوادث أَمرٌ شائع هنَا، خاصةً معَ انقطاعِ التيارِ الكهربائي.

تابع الغزواني طرحَ أَسئلتهِ:

- ماذَا تعرفُ عن الضحيةِ؟

رصدَ المُديرُ علاماتِ الخيبةِ على وجهِ المُحققِ:

- أَنا شخصيًا لم أَعرفهُ جيدًا.. كنتُ مجردَ موظف صغير في ذلكَ الوقت، لكنْ يُمكنكَ التعرفُ عليهِ أَكثر لو سألتَ الطبيب الرئيسي الذيً كانَ يعملُ معهُ.

نهضَ قليلًا عن ظهرِ الكرسي، حكَ أَرنبةَ أَنفهِ حيثُ برزتْ علاماتُ الضغط بسبب نظاراتهِ، وبدأ بالبحثِ في أَدراجِ مكتبهِ:

- يُمكنني تزويدكَ بآخر عنوانٍ له.

-بالنسبةِ للمرحوم.. إِنه فتى، كان الطبيبَ المُساعد في الشركةِ، تَم طردهُ بسبب حضوره للعملَ سكران عدة مرات، رغم تحذيره وهذهِ شركة تريد أن تنجح في بلدة محافظة، ادَّعى في وقت لاحق بعد طرده أَنهُ يحمل شهادات أَو وثائق تكشف فسادًا في الشركة، كان مُجردً كلام في كلام. بدت ملامحُ التململ واضحةً في كلامهِ، وهو يُحاولُ أَن يختار كلماته بحرص:

- لكن هذا الأَمرَ لم يمنعه من ابتزازِ الشركةِ، تَخيل.. لو كانَ يملكُ شيئًا لما سكتَ.

-أَيةُ وثائق؟

تحركت شفاهُ مديرِ الموارِدِ البشريةِ بصعوبةٍ، وكأَنهُ ندمَ على تسرعهِ في البوحِ بالمعلوماتِ:

– إنها لا شيء.. مُجردُ كلماتٍ يطلقها مخمورٌ مطرود عن فسادٍ بالشركة، شيءٌ مثَلَ هذا.

–أَو ربما لم يسعفهُ الوقتُ للتكلم.. أَذكر أَحدًا بالاسم؟

أَطل الغضب من عيني الأَخيرِ أَخفاهما بصوتٍ حاولَ أَن يكونَ طبيعيًا:

– لا لا، وإن كان عنده ما يقوله كان قاله، على كل حال أَظنُ أَننا لن نعرف أَبدًا.

تَحرك في عصبية مغادرًا كرسيهُ:

– لم يكن هناك أَدلة أَصلًا، مُجردُ شكوى ضدَ أَحدِ المديرينَ حاول أَن يلتقي بالمدير التنفيذي لكنْ لم يُسمح له بذلكَ.. كان مخمورًا بحقٍ.. تفضل عنوانَ الطبيب الرئيسي.

***

وضعت علياءُ يدها على كتفيهِ وضغطت:

– كُلُّ ما عليكَ فعله تذكيرهم لماذا تهتمُ الشركةُ المتوسطية بمصالح عُمالها.. تذكر استعمل كلمة إخوانَنا وبلدتنا لكن ليسَ بكثرة، ثمَ لا تجعلَ تعبيراتَ وجهكَ باردة وأَنظر باتجاه مقدمةِ البرنامج مُباشرةً في عينيها، لا ترمش، من المهم أَن تبدو صادقًا لكن الأَهم أَن لا تبدَو مُتوترًا.

شعرَ بالاسترخاءِ مع لمساتها الرقيقة، ثقةُ الناسِ به، كانَ هذا جل ما يحتاجهُ سالم في هذه الظروفِ الغريبةِ، خاصةً هؤلاءِ المستثمرين الذينَ يبدونَ مُترددينَ وقلقين من تأثير الأَحداث الجارية..

-لقد تحدثتُ مع مُعدِ البرنامجِ، لن يسأَلكَ عن موقفِ الشركةِ من التحقيقِ الجاري.

جعلت المقدمة صوتها أَكثرَ تأثيرًا:

- هناك أَقوايل عن نوعٍ من الصراع القبلي في المظيلةِ فيما يخصُ قائمةَ التعيينات الجديدةِ ماهوَ ردُكً حولَ هذا الموضوعِ؟

صدرت عن الجمهور صيحات موافقة.

استقرت عينا علياءُ من وراءِ الكواليسِ على وجهِ سالم الذي رمشَ عدةَ مراتٍ، بينما شعر هوَ بكلا كتفيه مشدودتينَ رغم نصائح علياء بأَن يكون أَكثرَ استرخاءً أَو على الأَقلِ أَن يظهرَ للمُشاهدينَ ذلك:

- وهل من صفاتِ الإعلام الصادقِ أَن نستمدَ شكوكنا من أَقاويل منتشرة؟!

لمعتْ عينهُ بلؤم.. ابتسم.. بأسنان متناسقة ببياض طبيعي فقد نصحته علياء بأَن لا يقوم بإجراء أَي عملية تبيض

«كن طبيعيًا وقريبًا من الناس، لا يوجد عمال يصدقون مديرهم ذا الأَسنانِ اللامعة».

استرقت علياءُ النظرَ خلسةً إلى شفتيه وهما تتفوهانِ بما أوصته به وبنظراته الثابتة، لم تحب أحدًا بعدَ أَحمد إلا سالم، حتى بعدَ طلاقِها كانت علاقاتها مع الجنس الآخر مجرد صداقات تشطح بين البراءة والغواية الخفيفة التي لا تضرُ، أَحمد كان رجلها الأول، وسالم كانَ آخرُ صبرهَا، هي قنعت بذلكَ بل شكرت الله بأنه أنعمها الكثير نظير صبرها، فمعه عرفت النجاح والتميز وحتى الشهرة، ابتسمت له وإن لم يلمح ذلك، كان كل شيء يسير حسب توصياتها له ولمعد البرنامج.

من مكانها بلغها صوتُ سالمٍ وهوَ يُجيبُ على مُختلف الأَسئلةِ بصوتٍ قوي مُتماسك، حَاول أَن يكون خارجًا من رجل صادق، أَكَّدَ خلالَها على ضرورة منح المحليين أَفضليةَ العمل بالمناجم، وشدد على أَهميةَ التحلي بالصبر، وفندَ ادعاءات البعض حول فساد ورشاوي قائمة التعيينات الجديدةِ.

بعدَ ساعة أَشارَ المخرج بقطع البرنامج، ظهرتْ خلفيةُ النهايةِ لتظهرَ إعلانات غسيلَ الشعرِ والمياهِ، بينما هي كَانت هناك واقفة وراء المعدين والمخرج شاخصةً بوجهه.

***

رمى الغزواني تقرير الحادثِ على الطاولةِ، ولو كانَ بيدهِ لرماهُ في سلةِ المهملاتِ، لو يَملكُ واحدةً هنا، لم يذكر التقريرُ أَي معلومةٍ تفيدُ تعرضَ هلال إلى جروح أَو طعنات تَثبت تضرر الجسد قبل حَادثة الحريق، فمنْ الواضحِ أَنَ الجثةَ وجدتْ وقد تفحمت بالكاملِ على السَرير، لكن من البشريَ الذي يحترق ويظل راقدًا على سريره؟!

كما أَوردَ التقريرُ أَنَ سببُ اندلاع الحريقِ هو شمعة على الأَغلب، فقدْ انقطعتْ الكهرباء تلك الليلة عن البلدةِ، رجحَ التقريرُ سقوطَ الشمعةِ وتسببِ الخمرِ المسكوب في تسريعِ الاشتغال، معَ التأكيدِ على عدمِ وجودِ مواد مسرعة أُخرى في المَكانِ.. ختمَ التقريرُ بنفي الشبهةِ الجنائية.

أَخذت شوق التقرير بينَ يديها وقالتْ:

– سيدي، أَلا يُمكنُ أَن يكُونَ سكر ونام واحترقت غرفته.. انتهت القضية؟

–لا لم تنتهِ.. هلالْ كان معروفًا بشربهِ للخمر، كما أَكدتْ أبْحاثنا، لكن ليس أَيامِ الجمعةِ.

-ماذا تقصد؟

-كما تذكرينَ.. الحادثة وقعت يوم الجمعة أَليسَ كذلك؟ حسب ما توصلَ إليهِ نصر الدينَ منْ خلالِ عم هلال أن الشابَ المُتوفى لا يتناول مُنْكرًا يوم الجمعةِ.. كما أَكدَ زملاؤهُ على هذهِ الصفةِ.

-إذًن صديقنا المرحوم لهُ ضوابطٌ ومبادئ.. لكنْ كيفَ لم تشك الشرطةُ في الحَادثةِ؟

رفعَ حواجبهُ:

-ربما مبادؤه ستكشف لنا جريمة.. اتصلي بالشرطةِ الفنيةِ أُريدُ قراءةً تحليليةً لصورِ مكانِ الحريقِ والجثةِ.. الأَفضلُ أَن يكونَ خبيرًا بالحرائقِ».

***

لم يمر أَكثرُ من يومينِ حتى اتصلَ بهِ خبيرُ الحرائقِ من العاصمة، اندفعَ صوتهُ من وراءِ الهاتفِ

«إِن كانَ يشربُ هذا النوعُ من البيرةِ فهذا غير ممكن».

فسرَ الخبيرُ في تلكَ المُكالمةِ المُطولةِ أَنَ الضحيةَ حسبَ الصورِ كان يحتسي بيرة فرنسية كانتْ معروفة في تلكَ الحقبةِ، وهيَ منخفضة الكحولِ أو الإيثانيول، أَي أَنها غير قابلة للاشتعالِ حتى وإن احتوتْ فتكون بنسبة قليلة لا تسرع من عملية الاشتعالِ أَبدًا، لذَلكَ أَكدَ أَنها لا يمكنُ أَبدًا أَن تكونَ مُسببةً للحريق.

لكنهُ أَكدَ أَيضًا أَنَ هناكَ دلائل على وجودِ مادةِ مُسرعة رجحَ أَنها الغازولين، لأَن النيران غيرُ قادرةٍ على مسحِ أَثارهِ بالكاملِ

-وبالنسبةِ لِنقطة الاندلاع؟

-الفراش.. بالقرب من طاولة حيث انتشرتْ قوارير البيرةِ ثم باتجاهِ الضحيةِ.. نشب الحريقُ وهو نائم.. ولا يبدو أَنهُ تحركَ أَو شعرَ بالنيرانِ.

الآنَ تأَكد أَحمد الغزوانِي من شكوكهِ، لم يعرف إِن كانَ هذا خبرًا مفرحًا أَو مقلقًا

«كان أَكثر من نائم، كان ميتًا سلفًا».

***

كانَ قدْ تقاعدَ عن عملهِ منذُ أَكثرِ من ثلاث سنواتِ، ولمكابدةِ آفةَ التكاسلِ أَغنى نهارهُ بالتطوع في محل تمرَيض يعودُ لمنظمةِ الهلالِ الأَحمرِ، يقعُ بمواجهةَ مدرسةِ ابتدائيةِ بوسَطِ المظَيلةِ، (علًي القادري)، طبيب عام سابق، عملَ (هلال) لسنةٍ تحتَ إِشرافهِ المُباشرِ في الشركةِ المُتوسطيةِ.

كانَ يرتدي منديلًا أَبيض عندما التقت بهِ شوق في الغرفةِ الوحيدةِ لمقرِ الوحدةِ العلاجيةِ في وسطِ النهارِ.. أَجابها وهوَ يبتسمُ:

- كان هلال يعمل كنحلة طنانة ثماني ساعات في اليومِ، ونصفها في العمل المِخبري، يصل قبل الكل ولا يخرج إلا آخرهم.. في أَوقاتِ فراغهِ ينطلقُ للجبالِ يلتقطُ صورَ الطبيعةِ.

مسحَ رأسهُ وواصلَ بارتباكٍ:

- لكنْ في نفسِ الوقتِ كان يثرثر كثيرًا عن أَننا نموتُ ببطء.

-ماذا كانَ يقصد؟

-لا أَعلم.. هذا ما كان يقولهُ دائمًا دونَ تفسير.. كما كانَ يلمِّح إِلى صعوبةِ إِثباتِ أَمرِ الفسادِ في المظيلةِ.

-أَيُ نوع من الفسادِ؟ لماذا كانَ مهتمًا؟

قالتْ ذلكَ وهيَ تُحاولُ جذبَ قميصها الذي التصقَ بظهرها بسببِ العرق من الخلفِ، كانت الغرفةُ الضيقةُ كفرعٍ من الجحيمِ.

-لست متأكدًا، كان قد قدم شكوى بالشركةِ

-إلى من أَرسلَ هلال الشكاوى؟

-ليس إلى شخص مُحدد، فقط إلى المصلحة العامة للبحوثِ في الشركةِ.

-مَن كان رئيس المصلحة في ذلك الوقت؟

أَخذت شهيقًا قويًا لكنها لم تتنفس سوى هواءً ساخنًا.

-(حسام الجريدي)، كانَ هذا اسمهُ.

دونت شوق الاسم في مفكرتها وواصلت طرح أَسئلتها:

- هل تعرفُ ماهية تلك الصور التي يلتقطُها؟

-إنها مجردُ صور للجبال، أَمكنة خالية، صخور تراب وطيور.. أَنا حقًا لا أَعرَفُ ماذا كانَ هدفهُ من التقاط كلِ هذهِ الصورِ.. بعد وقتٍ قصير من تقديم شكواهُ طُردَ من عمله، قالوا أَنهُ بسببِ السُكرِ والعربدَةِ.. رُبما يكونُ هذا صحيحًا نوعًا ما فقدْ كانَ يترددُ على منزلِ العاهرَةَ (صوفيةَ).

-المعذرة؟

أملت أَن لا يكون قد لاحظ حمرة الخجل تجتاح خديها.

-عذرًا لكن هكذا كانَ يُطلقُ عليها في ذلكَ الوقتِ؟

***

ارتج هيكل السيارة، أَنَّت معه عظام شوق.. التفت للغزواني فوجدته يقود مُركزًا فيما يفعله، من بعيد ظهرت هامة ثلاثة مداخن تنفث دخانًا دون

نار، التقت بهِ في وسطِ المظيلة بعدَ أَن فرغت من مُقابلتها مع الطبيبِ السابق، تحصلتْ على عدة معلوماتٍ قادتها مرةً أُخرى لطرفٍ آخر من القَضيةِ، أَيُ قضيةٍ؟ شعرتْ أَنهم يبتعدونَ عنِ ملفِ مقتلِ عادل.. كيفَ وصلوا للتحقيقِ في موتِ شخصٍ آخر؟ يعلمُ الله أَينَ يُمكنُ أَن يقودهم الأَمرُ.

خففتْ السيارةُ من سيرهَا، العشراتَ من المُحتجين يسدون الطريقَ لمنعِ نقلَ موظفي وعمالِ الشركةِ، رفعَ شارته أَمامهم.. مر.

لا تختلف مظيلة الثمانينات عن مظيلة بداية العقد الثاني من الأَلفية الثالثةِ، مدينة تشتعل لتخبو.. كانتْ جدران المجمع الكيماوي تتزينُ بمعلقات اتحاد الطلبة وإعلانات المسرحيات الجادة واحتجاجات العمالِ، لتغطي نفس تلك الجدرانِ بعدَ رُبعِ قرنٍ مساحةٍ واسعةٍ من الرسم الجرافيتي يعبر عن نفس ما عبر عنه الشابَ التونسي رغم اختلافِ الأَزمانِ، رسوم جدارية مغاليةَ في الأَلمِ والأَلوانِ أَو غارقة في التشاؤم والسوداوية، المنبعثة منَ اللون الأَسودِ الأُحَادي كلون دخان مصانعها.. لكن بعد كل ما وقع وما يقع لن يتغيرَ شيء.

في هذهِ الأَثناءِ كانَ الغزواني يقودُ سيارتهُ المُتهالكة، من العجيب أَن تنبثقَ ذكرياتِ طفولتهِ كالفقاع على أَرضِ أَيبسَ من المظيلةِ ومنسيتِها، تمدُ أَغصانها وتتورقُ منبعثةً من ذكرياتٍ لطَالما اجتهدَ في قمعها، ارتسمت في ذهنه حوادث قديمة، بل انبعثت كما تبعث العنقاء من رمادها.. (صوفية)!.

***

١٩٨٨

حمى أَحمدُ رأَسهُ بصفحاتِ جريدةٍ اتقاءً من حرِ الشمسِ وهوَ يقولُ

- إنهم يبيعونَ الماءَ في قواريرَ

ضحكَ عادل وهوَ يُشيرُ لإعلانات المِياهِ التي تُزينُ الجُدرانَ الخارجيةِ لشركةِ الفوسفات.

في يوم السوق الأُسبوعية؛ وَخاصة عند قرب حلول زردة سيدي عيش، تهب رياح الأَمل في النفوس اليابسةِ لسُكانِ البلدةِ فتخضر، يتركون منازلهم ليسبقوا الريح إلى حضرة المَبارك، حيث تفد العديد من الجموع من أَغلب الوِلايات المحاذِية ليبارك هذا اليوم العظيم، ولا يخفى على أَحد أَن ملاليم الأَمهقِ كانت تزداد في هذا اليوم، حتى أَنهُ كان بإمكانه سماع خشخشة النقود في قعرِ جيب سروالهِ، أَشارَ لهُ سالم وعيناهُ تلتمعان بحماس:

- أَبِي يَقول أَنَ للنقود رائحة.

فكرَ الأَمهقُ بكلامه وهز رأسهُ مصدقًا، رغم أَنهُ كان متأكدًا فقط بأَن لها طعمًا، فقد حدث وأَن ابتلع عشرُينَ مليماً منذ أَشهر لكي يخفيها عن متنمري المدرسة، وهو مبلغ يساوي الكثير، وكان طعمها كالصديد وكالدم.

أَخذَ أَربعتهم المسلكَ الأَقصرَ للتوجهِ للزردةِ[١] مُرُورًا بمنزلِ صوفيةَ.. تذكر أَحمدُ تحذيراتِ والدتهِ وهيَ تقبضُ على نعلها البلاستيكي مُهددة إِياهُ: «لا تُكلمها، لا تمرْ منْ أَمامِ منزلِها إلا مضطرًا».

(١)مثل الوليمة أَو المهرجانِ الشعبي يُقامُ باسم ولِي صالحٍ مشهور.

وكأَنَ هذهِ التحذيراتَ ضربتْ الجميعَ في مقتلٍ، لم يمروا من أَمامِ منزلها إِلا مطأطئي الرأس، وبسرعةٍ.

كانت محط أَنظار وكلام النساء والرجالِ، تُدخن السجائر في وضح النهار وأَمام الناسِ، بشفاهٍ مَصبوغة تنشد الغواية

«النساء لا يدخن إلا لو كن عجائزَ، فسنهنَ يسمح بمَا لا يسمح به جنسهنَ»..

حسبَ كلام والدتهِ، تخرجُ تطوف بمنزلهَا الحجري بملابسها المزركشةِ، تحافظ على غرابة الأَلوان وسيجارتها ولبانها، لم يروها تخبز يومًا، فُرنها الطِيني مهجورٌ خالٍ.

عادل على خلافهم، تفرَّسَ في المكانِ حيثُ تعيشُ، كانتْ نوافذُها مغلقةً، قَالَ والدُهُ «إِنها بائسة وحيدةٌ». كانَ قدْ أَكدَ عليهِ أَن يتركَ على بابها صبيحة كلِ يومين قرصيْ خبزٍ، رغم التذمراتِ التي أَطلقتها العمةُ التي أَكدتْ في كلِ مرةٍ «إِنهَا كَكتابٍ رخيصٍ تفتح صفحاتها لكل متطفلٍ». هوَ لم يرها إِلا كَروحٍ بائسة.. كشبح قبرٍ قديم.

بالنسبةِ لعلياء، وامتثالًا لتحذيراتِ والديها، لم ترها سوى امرأةٍ داعرة تغسل الملابس في يوم عرفة متحدية بذلك المقدسات والأعراف الدينية، تخرج وتدخل متى يحلو لها، تصبغُ شفاهها وأظافرها بحمرةٍ قانية كالدم.

كانتْ عائلتها تكرهُها، قيلَ أَنها المُخبرة التي أَعلمتْ الشرطةَ بتصرفاتِ (حمدي) الأَخ الأَكبرَ لعلياء، عن علاقتهِ بالحزبِ اليساري، وعنَ أَنشطتهِ الهادفة لضمانِ مُستحقات عُمالِ المناجم.. لا تزالُ تتذكرُ جيدًا ذلكَ اليوم.. الليلةَ التي قُبضَ فيها على أَخيهَا بعدَ أَحداثِ ثورةِ الخبز(١).

(١) انتفاضة بشتاء ١٩٨٤ ضد ارتفاعِ أَسعارِ الخبزِ بدأَت من الجنوب التُونسي.

جاؤوا.. عرفوا المنزلَ رغمَ أَنهُ كان من الصعب تمييز منزل عائلةِ عليَاءَ عن منازل جيرانها من سكان الملجأ، نفس لون الجدران الخارجية البيضاء بلونِ الجص، نفس أَشكال الأَبواب التي يميلُ لونها إِلى الأَخضرِ.

لكنهم جاؤوا.. لم يكلفهم الأمر سوى طرقاتٍ عاليةٍ وسريعةٍ على البابِ، ثمَ ركلهِ بقوةٍ.. وتفتيش المنزلِ بغرفهِ الثلاثة، حتى غرفة المؤونة أَفرغوا جرارهَا مما فيها على الحصير: الكسكسي، البرغل، المحمصة، الزيتون والتُمورِ، ضربوا (ضوء).. أَخذوا كل الكتبِ حتى جرائد الحُكومة ومُلصقات المسرحياتِ التِي تخصُ عادل الأَمهقَ، كانَ أَحدهم نفس الرجل الذي لمَحته في مقهى اليحياوي، يتندرُ على صدر المُمثلة المصرية، حشر كلَ شيءٍ في الكيس بعد أَنْ أَلقى منه الخَضراواتَ.

اتهموا أَخاها بإحراق متجر خبز بسبب الرفع في الأَسعار مع مجموعةٍ من المُحتجينَ، وبنشرِ الفوضى والاعتِداءِ على الأَمنينَ وسب الرئيسِ، بعدَ ذلكَ ظهرتْ وحدةٌ من الجيش في القريةِ، وبسبب الوضع المُحتقن عزلت منطقة المظيلة والمتلوي وأم العرائس[1] التي اعتبرتها بؤر توتر، حتَى أَنَ البعضَ دعا إِلى إِعلان الأَحكامِ العُرفية، وصفَ خالها ضوء الأَمرَ بأَنهُ «خارجَ عن السيطرةِ».

كانَ هذَا قبلَ أَن يطرد المعتصمُونَ بدعوى التجمعات غير القانونية، لطالما كانت الساحة المواجهة لمقر المعتمدِ ميدانًا لإضرابهم واحتجاجاتهم، وحتى فندقًا دون سقف إِن اضطروا لذلكَ، ساحة تتحول لرحبةٍ في الأعياد وقاعةٍ

(١) كلها مدن تابعة لولايةِ قفصة.

ترابية في ليالي الأعراس أَحيانًا، وفضاءٍ لتنفيذ أحكام الإعدام بالرصاص كما كانت قبل عقودٍ قليلةٍ.

لكنهم أَخذوا حمدِي، لم يعد للآن، أَكلَ العَثُ ملابسهُ، لكنهُ لم يعد، كانَ ذلكَ منذُ سنةٍ وقد كانَ في التاسعةِ عشرة.. لذلكَ ظلَ الكُلُ يكرهُ صوفيةَ.

***

«هل تعرفُ ما مصيرُ الحكايات التي لانَكتبهَا؟
إنها تُصبح ملكًا لأعدائنَا»

أَعْراسُ آمنة،

إبراهيم نصر الله.

طرقَ الغزواني بابَ المنزلِ، لاحظت شوق وجودَ زوج من العُيونِ التي تراقبهما من الخلفِ، قادمةً من شُباكِ منزلِ الجارةِ الفضوليَّةِ، مرت لحظاتُ ثقال قبلَ أَن يفتحَ البابُ على سيدة ستينيةٍ، بشوشةٍ ومحجبة.. فكرتْ شوق أَنهما أَخطآ الدارَ، فربما اختلطت الأَمكنةُ بالنسبةِ لذاكرةِ الغزواني الذي تأكدَ أَن العاهرةَ لا تزالُ تقطنُ بنفسِ الدارِ المعروفةِ لكلِ أَبناءِ البلدةِ.

–مرحبًا سيدة صوفية.

عجزت شوق عن الفهم للحظاتٍ، قبلَ أَن تستوعبَ الأَمرَ.. صوتُ الغزواني أَيقظها، كانت نفسها السيدةُ العاهرة سابقًا.. التفتت لرئيسِ فريقِها، كانَ مذهولًا أَيضًا بنظراتِ غريبةٍ ومريحةٍ في نفسِ الوقتِ، لم يبدُ عليهِ التفاجؤ لهذا التغيير وإن أَذهلهُ شكلها الجديد.. جلسَا.. كانَ المنزلُ أَقربَ لمنزلٍ عادي، بسجادته وكنباتِ قاعةِ الجلوسِ التي تكفي لدسة منَ الأَشخاصِ، ولوحاتِ سورتي الفلقِ والناسِ، أَثاثٌ قديم، مرتبٌ، مزينٌ بمكتبةٍ صغيرةٍ مطعمةٍ بعدةِ كتبٍ بدتْ لشوق دينيةٍ، على أحدِ الكراسي رقدَ قطٌ فوقَ سجادةِ صلاةٍ.

جلست السيدةُ بعد أَنْ سكبت كأسي ليمون باردٍ، جلسة يعمها الإِحراجُ،

كانت ترتدي حجابًا أَبيض وتنورة تصلُ لكعبيها بأَطرافِ يدٍ طويلةٍ، عيونٌ مرخيةٌ ورأسٌ ينظرُ للأَرضِ..

-تفضلوا.

بعدَ سؤالٍ عن سببِ الزيارةِ وذكرِ بعضِ التفاصيلِ عما عرفوهُ عن هلال، سألها الغزواني:

- كيف تعرفينهُ؟.

انتظر أَن تقول أَن علاقتهمَا تعودُ إِلى مهنتها السابقة؛ لكنها صححت سوء فهمهِ:

- «كما يعرفُ المريض الطبيبَ.. كنتُ أَشكو من داء السكري.. كانَ يوفرُ لي الحقنَ ويُساعدني فيها كلَ مرةٍ.

رفعت عينيها لأول مرةٍ، كانت عيناها بلونِ القهوةِ:

-هل تبحثونَ حولَ موتهِ؟

كانَ سؤالًا مُفاجئًا نفاهُ الغزواني بسرعةٍ، وأَضافَ:

- نبحثُ عن علاقتهِ بقضيةٍ أُخرى تتعلقُ بمقتلِ طفلٍ في العاشرةِ قبلَ ربعِ قرنٍ أَظنكِ تتذكرينهُ، عادل.

لبرهةٍ شعرَ الغزوانِي أَنها مُوشكةٌ على إطلاقِ دموعها؛ لكنها أَجابت بما يُشبهُ الجلدَ:

- نعم.. ذلكَ الطفل.. الله يرحمهُ.. قلتَ أَن لقبه الصغير؟

أَومأ الغزواني موافقًا:

- أَليسَ والدهُ ضوء الصياد؟

لم يكنْ هذَا غريبًا، فضوء لم يكنْ ملاكًا، كانَ أَرمل طوالَ حياتهِ..

-نعم.

سأَلتْ بصوتٍ مُتهدج:

- الله يلطف بهِ.. سمعتُ بسوءِ حالهِ.. رجلٌ كريم من عائلةٍ كريمة.. كانَ لطيفًا معي ومعَ هلال!.

لن تتغيرَ النظرةُ التي يوجهها سكان البلدة للعاهرة التائبةِ، هي مُتهمة دائمًا حتى لو أَصلحت سيرَ حياتها وبنت أَلف جدارٍ مع ماضيها، ربما لو ظلت كما كانت كان أَريح لها «لَكنهُ السعي إلى مرضاة الله»، تابتْ منذ سنواتٍ لكن انعزالها عن العالم الخارجي لم يبدأ إلا منذ سنةٍ، قابلت قبلها عدة شيوخ كانوا في المهجر شجعوها وباركُوا لهاَ نيتها وصنيعها.. حجتْ وعادتْ وقد أَصبحت نظيفةً كالمولود الحديثِ.. حضرت عدة دروسٍ دينيةٍ بالجامع.. جامعٌ بعيدٌ عن المنسيةِ

- لَقد هداني الله، الهداية كانت عسيرة صعبة أَرجو أَن تكونَ صادقَةً.

انحنتْ شوق للأَمامِ، تذكرتْ ما أَخبرها به الغزواني سابقًا في أَنهما يعرفانِ بعضهما مُسبقًا:

- كيفَ كانت معرفتهما ببعض؟

صمتتْ للحظاتٍ وكأَنها تدير في رأْسها كلماتها المُختارة بعناية:

- لستُ عالمة بطبيعةِ العلاقةِ تحديدًا، كانَ ضوء صيادًا أَحيانًا يطلبُ منهُ هلال جلبَ بعضَ النباتاتِ من الجبلِ، حتى أَنهُ طلبَ منهُ التقاط بعض الصور.

سأَلتها المُحققةُ بارتباكٍ:

- صورٌ عن الطيورِ والصخورِ؟

أَجابتْ بابتسامةٍ دافئة أَضفتْ على وجهها المزيدَ منَ الهدوءَ:

- نعم، وعنِ المياه والآبارِ البعيدةِ، كانَ هلال طبيبًا فمن الصعب أَن يقومَ برحلةٍ على الأَقدامِ لأَيام مثلَ ضوء، أَذكرُ الآن أَنهُ حتى طلبَ منهُ جمعَ.. جمع بعض المياه.. كَيفَ يصيغُها الله يرحمه.. آه بعضَ العيناتِ في زجاجاتٍ صغيرةٍ.

نظرتْ شوق بتعجبٍ للغزواني الذي سَأَل

- لماذا؟

-لا أَعرفُ تحديدًا.. كانَ حريصًا أَن لا يعلمَ أَحدٌ بذلكَ.

بدتْ مرتبكةٍ.. شجعها الغزواني لمواصلةِ الكلام:

- تحدثَ هلال عدةَ مراتٍ عن جرائم تقع هنا، لم يتوسع أَكثرَ في كلامه؟.

-عن فسادِ الشركة المُتوسطيةِ؟

-لم يُحدد.. كان يثقلُ بالشربِ أَيامَ العطلِ لذلكَ كانَ أَحيانًا يتحدثْ عن الفسادِ وعن أَنهُ سيكشفهم.. لم أَفهمهُ يومًا.. كانَ يخشى أَن تسرقَ أَوراقهُ من الغرفةِ المُستأجرة لذلكَ كانَ يتركها عندي.

-أَية أَوراقٍ؟

***

تراقصتْ الرُموزُ والأَرقامُ.. تشكلتْ وتفرقت أَمامَ عينيهِ وعقلهِ غيرَ المُستوعب لكلِ هذهِ المصطلحاتِ والصيغِ الغريبةِ، التي احتوتْ عليها الوثائقُ التي منحتهُ إِياها صوفية.. كانتْ أَغلبُ الأَوراقِ باللغةِ الفرنسةِ وبعضها بالإنجليزيةِ، وأُخرى بلغةٍ لم يتعرف عليها وإِن كانَ متأكدًا أَنها

ليستْ أَحدَ لُغاتِ بلدانِ أُوروبا الغربيةِ.

استقامَ وهوَ يُحاولُ طردَ النُعاسِ عن عينيهِ، في وقتٍ واصلتْ فيهِ أَهازيجُ عرسٍ قريبٍ:

- سأُعدُّ فنجاني قهوةٍ.

كانَ نصر الدين يَتذمرُ ساخطًا بسببِ إصرارِ رئيسهِ على وصلِ الليلِ بالنهارِ لحلِ هذهِ القضيةِ؛ بل القضيتينِ.. التي ازدادتْ تعقيدًا في وقتٍ حسدَ فيهِ شوقَ التي عادتْ إلى غرفتِها بالنزلِ بأَمرٍ منَ الغزواني، الذي لا يزالُ يُصرُ على ضرورةِ أَن لا تبقَى فتاةٌ متأخرةٌ عن منزلها أَو غرفتها لساعةٍ متأخرة، حتى لو كانتْ محققة برتبة ضابط.

فركَ الغزواني عينيهِ.. تناول قرصي دواءٍ.. استنجدَ بمحركِ البحثِ جوجل لفك طلَاسمِ مصطلحاتٍ مثلَ (الرمز العلمي)، (الصيغة الجزئية).

PO43 -Phosphogypse -HPO42

ما هذه الأرقامِ والرموزِ؟ عرفَ من خلالِ أَحدِ الأَوراقِ التي تبدو كتقرير باللغةِ الفرنسيةِ أَن الموضوعَ مرتبطٌ بمادةِ الفوسفات، تركيبتها، توزيعهاً الجغرافي، آثارها.. لكن إتقانهُ للفرنسية ليس بكافٍ أَمامَ العددِ الهائلِ منَ المفاهيم والرموزِ.

تركَ هذا على الطاولةِ والتقطَ مفكرةَ (هلال)، قلبها بينَ يديهِ وتصفحَ أَوراقها، بعضها ملتصقٌ ببعض، كانت مكتوبةً بخط اليدِ، سجل فيها أَوقاتًا وفترات زمنيةٍ بعضها متقاربٌ لا يتجاوزُ الساعةَ وبعضها يَمتدُ لأَيام.. بعضَ الحُروفِ جاءتْ غيرُ واضحةٍ أَفسدتْ فهمهُ للكلماتِ.. كانت كلَها بالفرنسيةِ.

أَوراقٌ أُخرى مخيبة للآمال بعضها طلبات لأدوية، وأخرى يبدو أَنها مواد تركيبية لدواءٍ ما بنسب مختلفة، رموز وأرقام، لا شيء خاص ولا مهم.. استعملَ تقويمين أَحدهما يعودُ لسنة ١٩٨٧ والآخر لسنةِ ١٩٨٨، في آخرِ صفحاتِ المُفكرةِ دوَّنَ هلالُ قائمة بِجهات اتصالٍ قديمة، كلها تعُود طبعًا إِلى أَرقام هاتفٍ قارٍ: لمكاتب أَو منازلٍ.

ضمنَ حزمةٍ ملفوفةٍ بإحكام بقطعةِ قماشٍ، عثرَ الغزواني على مجموعةِ رسائل أَرسلها هلال لشخص يبدُو أَنه يعيشُ بسوسةَ حسبَ العنوانِ المُدونِ يُسمى صافي بن جاب الله، تذَكرَ أَنهُ قرأ الاسمَ في قائمةِ جهاتِ الاتصالِ.

لون رقمَ الهاتف بقلم ماركر أَصفر، الذي وفرت شوق دسةً منه، ثم ركَّز كل نظراته على بقيةِ الملصقات التي غطت سطح مكتبه، لم تكن مجرد حروف أَو رموز عشوائية، أَو حتى عادية بالنسبة لطبيبٍ، لم تكن أَنماطًا غريبة أَبدًا.

سقطَ نظرهُ مرةً ثانية على مَجموعةُ عرائض قديمة لا تتجاوزُ أَصابعَ اليدِ الواحدة، لعددٍ من المواطنينَ بصفةِ مُزارعينَ وعمال يحتجونَ، حسبَ وصفِ العرائضِ، حولَ انتشارِ مرضِ الرئةِ في عائلاتهم، ويطلبونَ التدخلَ من شيخِ التُرابِ.. بصمَ كلُ واحدٍ منهم أَمامَ اسمهِ.. تعرَّفَ على بعضهم وإِن كانَ غيرُ قادرٍ على استرجاعِ ملامحِ وجوههم.. إِلا واحدًا، كانَ الجدُ بوزيد.

فركَ الغزواني عينيه وتراجع للخلفِ، رفع هاتفه واتصل بـ (محسن):

«هل أشتت انتباهك عن شيءٍ ما؟ ماذا تقصدُ بأَنني أَيقظتُكَ؟ جيد.. هناك رقم هاتف منزلي من النسخة القديمة.. نعم هيَ.. أُريدُ أَن أعرف هوية صاحبها، وإِن كان هناك رقم جديد له.. كما تحقق من بعضِ أَرقام الهواتفِ الأُخرى إِنها غيرُ واضحةُ سأُرسلُ لكَ صورةً عنها».

أنهى المُكالمةَ وعاد مُتصفحًا الصورَ التي احتوى عليها ملفُ هلال، صور طبيعية ولبعضِ الحيوانات، طيور، لكنْ عجز عن التعرفِ على صورِ أَحدِ الرجالِ، بدت الصورةُ غيرُ واضحة وكأنها التُقطت على غفلةٍ منهُ، من الواضحِ أنهُ لم يكن يصورُ الطيورَ فقط.

وضعَ مرؤوسهُ صينية القهوة بينهما، بينما انتظره أَن ينتهي من شرب الماء، كانَ قد دعاهُ لمناقشة ما وجدهُ وشوق في خزانة منزل صوفيةَ، فبالاطلاع السريع على تلك الأَوراق كان من الواضح أَنَ قضيتهم ستأخذُ منعرجًا آخر مختلفًا تمامًا عن الخيط الذي بدؤوا منه. وضع الزجاجة على الطاولة بينما تابعت قطرات الماء نزولها من شفتيه، أَومأ نصر الدين بعيونهِ الكبيرة:

- أَينَ نحن الآن مع هذه؟.

تراجعَ الغزواني للخلفِ متثائبًا:

- لا أَدري

كانتْ الساعةُ قد تجاوزتْ منتصفَ الليلِ، في وقتٍ لم تلقِ حفلةُ العرس بأَوزارها بعدُ.

تهدلَ جفنا نصر الدينِ ببطء قبلَ أَن يفتحَ عيناهُ فجأَةً، وكأَنهُ مصممٌ على مُعاندةِ النومِ، انحنى أَمامَ الحاسوبِ وقرأَ التعريف مرةً أُخرى المُدونَ في مقالة علمية مَن موقع (كل ما نعرفه عن جسمنا)، كانت بعضَ الرموزِ المُدونةِ بخطِ يدِ هلال تشيرُ إلى ما تم تسميته بـ (ارتفاع مُستوى الإشعاعِ في الماء)، مع عبارة (غير صالح للاستخدام البشري أَو الحيواني).

كل هذه الأَوراق تدور في فلك تحليل المائدة المائية حول منطقة الحزام الأَصفرِ.

***

كان قد سار طويلًا بين ردهات الكلية وأروقتها، حتى وصل إلى الباب الذي تحمل لافتته اسم الرجل الذي قاد لساعاتٍ قاطعًا العشرات من الكيلومترات لمُقابلتهِ.. توقف في مدخل غرفة المكتبِ، بالداخلِ بدا الأستاذ مَشغولًا، لوَّحَ له وهو يُواصل نقاشهُ مع طَالبة تحملُ حاملة أَوراقٍ زهريةٍ، وترتدي لباسًا شرعيًا كُحليًا، صنفًا من الثيابِ كان من المُحرماتِ قبل سنة واحدة من الآن.

استرجعَ الغزواني ما قرأهُ عن الخبيرِ في صفحةِ الجامعة على الإنترنت، تحصلَ على الأستاذية في علوم الطاقةَ المُتجددةِ بالعاصمة في منتصفِ الثمانيناتِ من القرنِ الماضي، ثم الماجستير والدكتوراة بفرنسَا، عاد إلى تونس ودرسَ بعدةِ جامعاتٍ، يملكُ وسامًا فخريًا من أكبرِ جمعيةٍ عاليةٍ في حمايةِ البيئةِ، يعتبر من أهم الباحثين في ميدانه وأكثرهم خبرة أكاديمية.

اعتذرت الطالبة منه، جمعت أَوراقها، ودعتهُ بابتسامة وخرجتْ من أَمامِ المحققِ، تجر أَطراف ردائها وراءها، مد المُحققُ يده متسائلًا:

-الدكتور صافي بن جاب الله؟

صافحه الأَخيرُ وهو يرد:

- بنفسه أيها المفتش

ترك يدهُ وقادهُ بلطفٍ إلى طاولةِ مكتبهِ، حيث استقرت حافظات الكتب وفروض الطلبة وكتب الكيمياء وعلم البيولوجيا.

انتقلا إلى إحدى زوايا المكتبِ، قرب النافذة نصف المفتوحة، سحبَ الأُستاذُ علبَة سجائرهِ:

- أَتسمح؟

-تفضَّل إِنه مكانك.

-تدخن؟.

-لا.

لم يضع على أَطراف فمه سيجارة طوال حياته؛ ربما وفاة والده المُبكرة دفعته لتبني هذه الفكرة منذ مراهقته..

- هذا أَفضل.

ارتفع عمود رقيقٌ من دخان أَبيض قبل أَن يَنثره الهواء الخفيفُ القادم إِلى نافذةِ الطابقِ الثالثِ، المُطلة على حرمِ الكليةِ:

- ذكرتَ عبر الهاتف أَنكم مُهتمون بالتحقيق في قضيةٍ قديمةٍ في الجنوبِ.. كيف يمكن لأُستاذ من الشمال الشرقي أَن يساعدكُم؟

ذكَّرهُ شكلُ الخبيرِ ولطفه بالرسام (زبير التركي) ذي الشعر الطويل المنكوشِ، والحواجبِ الكثيفة مُنخفضة الأَطراف:

- قضيتُنا مرتبطة بطريقةٍ ما بشخص كنتَ على معرفةٍ به بالسابق.. هلال المحمدي.. هل يعني لكَ هذا الاسم شيئًا؟

توقفَت السيجارةُ بين شفتيهِ على وقعِ الاسم:

- بل يعني كلَ شيءٍ.. الله يرحمهُ!

تنهَّدَ ورجع لمكتبهِ مطفئًا بقايا السيجارةِ في المنفضة، دس يديه في جيبه:

- كانَ موتهُ مأساويًا جدًا، ماتَ محروقًا أَليسَ كذلكَ؟ كيف يُمكنني المُساعدة؟.

-قبلَ هذا كيفَ كنتَ تعرفهُ؟ أَقصدُ العلاقة التي كانت بينكما.

-يُمكنُ أَن تقول أَننا كنا زملاء كليِة واحدة، وشريكَي شغفٍ، كنا نتسابقُ ونتنافسُ دراسيًا، هو اختارَ الطبَ وأَنا شغفتُ بعلم البيولوجيا.. أبقينا على أَواصرِ صداقتنا حتى بعدَ أَن سافرتُ لفرنسَا، ظللنا نتراسلُ حتى انقطعت رسائلهُ، لم أُعلم بوفاتهِ إلا بعد أَشهرٍ.

-عمَّ كنتُما تتحدثانِ؟

ابتسم حتى بانت سنهُ المكسورةَ:

- عن الأَقارب، الطموحاتْ العمل.. النساء.. أَيِّ شيء!

-تركَ المرحومُ مذكرةً وجمعًا من الأَوراقِ والوثائق، كتبَ فيها أَشياء ورُموزًا وجملًا عرفنا بعضها وأَغلبُها صعبَ علينَا، في إحدى الصفحاتِ وجدنَا رقمَ منزلِ عائلتكَ القديم، ثمَ عثرنا على رقم هاتفكَ الشخصي.

واصلَ الغزوانِي وهو يدفعُ أَمامهُ بورقةٍ معينة من جملةٍ الأَوراَقِ التي كانتْ معهُ:

- كما تركَ هذه الورقة.. ما حكايتُها؟ تبدو نسخة من تقرير رسمي؟!.

ثبت الجامعيُ نظارة القراءة على عينيهِ، دقق مليًا، تنهَّد وقال:

- في يوم ما، أَخبرني هلال أَنَ هناكَ وثيقةٌ مهمة قد وصلتهُ، وصفها بالدليلِ النادرٍ..

حدَقَ مرةً أُخرى بما في يديهِ وأَردفَ:

- هوَ في الأَصلِ نسخةٌ عن تقرير رسمي لنتائج فحوصات جودة المياه الجوفيةِ بالمظيلةِ، كما ترى عبارة عن مراسلة من لجنة تقصي البيئة والصحة الجهوية للشركة المُتوسطيةِ للفوسفات[١] تعلمهمْ فيها بنتائجِ اللجنة التي أَكدت ارتفاع

---

(١) أَحدُ الثرواتِ الباطنيةِ المهمة في تونس، لهُ استعمالاتٌ صناعية وزراعية.

مُستويات تلوث المياه وتجاوزها المعدل الطبيعي بسبب الفوسفوجيبس[1] الذي ينبعث من مصب الحزام الأصفرِ، أَنت ترى في الأَسفلِ هنا رأي اللجنةِ.

-دقيقة!

تمعنَ بالرُموز التي تحتل جانبًا كبيرًا من الصفحة وأَشارَ لها:

- هذه الرموز تشير إلى (الفوسفوجيبس)، أَي بقايا مادةِ الفوسفات، لم كانَ من المهم جدًا مراجعةَ نوعية المياهِ في المظيلة؟

-نعم.. عندَ تصفيةِ الفوسفات بداخل المُجمع الكيمياوي تتسرب غازاتٌ سَامة بالجَو، ذلكَ الدخان الرمادي الذي يُمكنُ أَن تراهُ من وحداتِ التصفية.. كما يتمُ إفراز مادة الفوسفوجيبس، وهيَ طبعا غير غازية بل سائلة أَو صلبة.. يتم رميها في مصب أَو موقعٍ لدفنِ النفايات.. أَظنُ أَنك تعرفهُ؟

-نعم مصب الحزام الأَصفر.

-جيد.. الذي يحصل أَن المادة السامة للفسفوجيبس تذوبُ ثمَ تتغلغلُ للآبار وتتسرب للمائدة السقوية، يُمكنُ أَن تتخيلَ الباقي إن سُممت الآبارُ والعيونُ، السُكان.. الحيوان.. حتى الزراعة.. يبدو أَنكَ قد كونتَ فكرةً صغيرة عن الأَمر.

-فكرة نعم، لكنْ ليس بالقدرِ الكافي لأَفهم.. أَكمل من فضلكَ.. كيفَ تحصَّلَ هلال على التقرير؟ والأَهم لماذا هوَ مُهتمٌ بهذهِ المسأَلة؟

بنظراتٍ مباشرة حازمة وضحَ:

- بالنسبةِ للنسخةِ من التقريرِ فليسَ لديَ أَيُ فكرة.. ممكنْ بحكم عملهِ كطبيب، مُحاولةُ التعرفِ على طبيعةِ المنطقةِ والبحثِ عن أَسباب ارتفاعِ عدد المرضى شكَّلَ هاجسًا بالنسبةِ إليهِ منذ أَول سنةٍ عملَ بها بالمظيلةِ.

---

(١) مادة تستخرجُ بعدَ معالجةِ مادةِ الفوسفات كما يسمى جبس الفوسفات.

تذكرَ الغزواني دسةَ العرائض التي يشكو فيها الموقعونَ عليها من كثرةِ الأَمراضِ التي بدَأت تُصيبُ أَبناَءَ المعتمديةِ، وهوَ يستمعُ لتوضيحاتِ الخبيرِ:

– ما أَخبرني به هوَ أَنَ التقريرُ، أَقصدُ التقرير الأَصلي –الذي لا يملكه– اختفى مع تغييرِ رئيس مصلحة مراقبة جودة المياه في اللجنة، الذي قبل مقعدًا في جامعةٍ أَجنبية، لكن قبل أَن يخرج احتفظ بالتقرير وسلمهُ لصديق له وهو نائبٌ في البرلمان من الحزب المُعارض الذي باع هذه المعلومة للمُشتري الأَعلى سعرًا، والمؤسف الصادم أَن الشارَي كان مسؤولًا بالشركة المتوسطية للفوسفات.. أَظنكَ تتوقع الباقي من القصةِ.

اتكأ الغزواني على مرفقه وقد مال جسمه للأمام:

– أَتوقعُ أَنهُ تم طمرُ ما جاء بالتقرير.

قالَ بن جاب الله في شيءٍ منَ التَرددِ:

– بل تمَ نفي قيام أية لجنة بإرسال أَية مراسلة لهم عن تجاوزاتهم ضدَ البيئةِ.

***

نظر حوله، كان كل شيءٍ مرتبًا ونظيفًا، القاعة بسقفٍ عالٍ مدعوم بعدة أعمدة بيضاء، يطل جانبها الغربي على حرم الجامعة الذي كانَ يعتبر امتدادًا غيرِ شرعي للكافيتيريا، لاحظ الغزواني أن المطعم مُختلف فهو يضم الطلبة والأَساتذة في نفس الفضاء، هذا لم يكن سائدًا بكثرة في السنوات السابقة، تذكر تلك اللوحة الإعلانية في مدخل المقصف والتي تُذَكِر بتاريخ الوقفة الاحتجاجية التي سينظمها اتحاد طلبة تونس.

شم رائحة البطاطا المقلية حديثًا والقهوة، كانَ جائعًا بحق، ولكنهُ فقط طلب قهوة إكسبرس، بجانبهِ تَجَاور ثلاثة رجال لم يكن يستطيع سماعَهم من حيث يجلس، لكن من الواضح أَنهم طلبة، تابع أَمرهم بعدم اهتمام.

بعد ذلك بوقتٍ قصير عاد مضيفهُ ووضع أَمامه كأسًا ورقيًا يصعد بخار القهوة منه، مع شطيرة تونة فوق صحن:

- هذا من ضيافة مطعم المقصف، تراك جائعًا وقد قدت لمسافةٍ طويلة.

شكره المُحققُ في حرج، جذب الأُستاذُ الكرسي قليلًا وجلس بكلِ راحةٍ: -التونة إنتاجٌ محلي من خليج قابس(١).

توقفت عيونهم على التلفاز، حيث برزت مُقدمة البرنامج الاقتصادي بوجهها البلاستيكي المُشع بفعل المكياج وشدة إضاءة الأستوديو، وسماعتها الصغيرة التي تلقي عليها من داخل أُذنها بالأسئلة المُحرجة.. حولها التفَ ثلة من الخُبراء وقد توسط المائدة الاقتصادية سالم مُرفقًا بابتسامة هادئة.

-المُديرُ التنفيذي للشركةِ المتوسطية؟

-نعم.. صدفةٌ غيرُ مُتوقعة!

محاولة لإذابة الثلج بينهما، التهمَ قطعة أخرى من الشطيرةِ وقدْ انعكسَ وجههُ على سطحِ الطاولةِ اللامعةِ.

رغم أَنهُ في ذلكَ الوقتِ لم يكن قد مضى على عملِ (صافي بن جاب الله) في الجامعة التونسية أكثر من شهرٍ واحد؛ إلا أنه وجد نفسه محل اهتمام صديقهِ الذي كانَ يُجهز رسالة الدكتوراة، قال أَنه يشك في شيءٍ ويريد رأيه كخبير، راقه الأمرِ في البداية، فليس من السهلِ أَن يحتاجه هلال في أَمرٍ يخص الكيمياء؛ لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة ورأيه كلفه كثيرًا.

عقد الغزوانِي ذراعيه أَمام صدره بإحكام، وقال:

---

(١)ولاية ساحلية.

– احكِ لي خلفية القصة.. يدور برأسي سؤال.. أَليسَ من المفروض أَن تقوم مثلًا وزارة الصحة أَو أية هيئة مراقبة عموميةٍ بالمراقبة الدورية لمستويات الفوسفوجيبس في المياه؟

ضحكَ:

– لا، من المفروضِ أَن يتكفل المجمع الكيميائي بالمظيلة بالمُراقبة الذاتية، أَي أَنهم هم مسؤولونَ عن أَخذ العينات والقيامِ بالاختبارات، التي ترسلها دوريًا للوكالة الوطنية لحماية البيئة والمحيط.

–في هذهِ الحالة لمَ كانت هذه اللجنة؟

لف أصابعهُ حولَ وسط قارورةِ المياه المعدنية، ملأ كوبهُ وأَجابَ:

–تشكلت في وقتٍ ما بصفة سريعةٍ وفجائية في منتصفِ الثمانيناتِ، بسبب ضغوطٍ سياسيةٍ لا غير.. تم فضها في أَقلِ من سنتينِ من تكوينها بعدَ ثورةِ السابعِ من نوفمبر.

–إذن، حسب كلامك، تقريرُ اللجنةِ هو التقريرُ الأَصلي والصحيح.. بينما هذا التقرير الذي أُرِّخَ في فترةٍ تسبقُ التقرير الصحيح هو المُزور.. كيفَ ذلك؟

–تم التلاعبُ بتاريخ التقرير المزور ونتائجه.

–تقولُ أَن هناكَ تلاعبًا بالتقارير؟!

خلع الجامعيُ نظارة القراءة:

– أَنا لا أَقولُ شيئًا، هذا ما قالهُ هلال.. وإلا كيفَ تفسرُ وجود تقريرين بنتائج فحوصات مختلفة، غطت نفسَ المناطقَ خلالَ فترات زمنيةٍ مُتقاربةَ؟ النسخَة الأُولى والتي أَعتقدُ أَنها زُورتْ بعدَ صدورِ تقريرِ اللجنةِ الذي تحصلَ عليهِ هلال.

-إذن أَنت هنا تتهمُ الوكالة بالتحالفِ مع المجمع الكيمياوي لإصدار تقرير غير صادق؟

أطفأ سيجارة في المنفضة الزجاجية:

- أَنا لا أَقولُ شيئًا.. هذا ما رواهُ لي هلال.

لم يبدُ الخبير مضطرًا للغوص في ذاكرته للبحث عن قطع ذكرياته، فقدْ كانت تأتيهِ صاغرة سهلةً غير ممتنعة.

-حسبَ تقرير اللجنةِ، التحاليل المخبرية لعينات من الماء والتربة أَثبتتَ بما لا يدع مجالًا للشكِ وجود بقايا مادة الفوسفوجيبس المشعة مُترسبةً بالمياه والتربة بالمناطقِ المُحيطةِ بالحزامِ الأَصفرِ بمستوياتٍ عالية.

ساد الصمتُ للحظات، قبلَ أن يستفسر الغزواني:

- هنا في التقرير الأول المزور، حسب ادعائكَ.. المعدل يبدو آمنًا؛ أَي كمية الفوسفوجيبس في الماء ليست خطرة على صحة المحليين.

-نعم.. حتى إذا صدقنَا صحة هذهِ الوثيقة، وبالتأكيد أَنها مُزورة، فسأَقولُ لك من الهُراء الحَديث عن المعدلَ الآمنِ من السمومِ التي يُمكنُ للفرد أَو المجموعةِ أَو الأَرض والحيوانِ استهلاكُها دون الإحَاطةِ بالفعل التراكمِي، وفهم تأَثيراتهِ.. هذه نفاياتٌ مُشعةٌ يا سيادة المُحقق، حتى لو كانت بنسبة خطرٍ ضعيفةٍ أَو آمنة، حسب ما تدَّعيهِ الحُكومةُ.

ظل يحدقُ بالغزواني، يتأكد أَنهُ كان قد استوعب كلامه وأَن هناك بعض الجوانب التي لا يفهمهَا.

رفعَ المُحققُ حاجبهُ:

- هلا شرحت ما تقصده أَكثر؟

كان بن جاب الله مسترخيًا على مقعده كأُستاذٍ يشرحُ الدرسَ لطالبه:

–الذي أَعنيه هو أَنَ الفوسفوجيبس من المواد التي تحتوي على نسبة إشعاع ضعيفة.. من المفروض أَن تكونَ غير خطرةٍ وغير مُصنفة من المواد شديدةً السمية، وهذا يعني أَنَ كمياتٍ قليلة جدًا لا تفعل شيئًا.. لكن، وانتبه جيدًا هُنا.. مع الوقت حتى قطرة مطرٍ بالمداومة تستطيع أَن تشق الصخرةَ.

غمرتْ الصدمةُ الغزواني، ليس لأَنه لم يعلم بذلك مُسبقًا، بل كان يعلم كما يعلم بقية أَهل مِنطقته، وأَغلب سكان الحوض المنجمي، لكن لم يظن أَبدا أَن الأَمر بهذه الخطورة التي وصَفها الخبير.

سأَل الخبيرُ بتهكمٍ:

– هل تضمن أن هذهِ التونة المحلية التي أَكلتها الآن لا تَحتوي على مادة الفسفوجيبس؟ المادة التي يُمكنُ أَن تكونَ السمكة قدْ تناولتهَا طوال عمرها القصير في خليج قابس الذي يغرقُ بأَطنانٍ من الفسفوجيبس يوميًا؟

ارتعشَ الغزواني لهذه الفكرة وتنهد وهوَ يحدقُ بما تبقى من شطيرتهِ.. فقد شهيته.. أَبعد الصحن عنهُ.

كان بن جابَ الله رجلًا مُتحذلقا، لكن يعرف جيدًا ما يَقوله:

– قِس بهذا، كيف يعيش سكان تلك المناطق من قابس للمتلوي وهم يشربون ويأكلون ويتنفسون وتنمو أَجسامهم وهيَ مُحملةٌ بالسموم.. طوالَ عمرهم وعمر آبائهم.. عندما يتلوثُ الهواء والماء بما يفوقُ المعدلات الطبيعية، يحصلُ كلِ ما هوَ غيرَ طبيعي.. الأَمراض السرطانية تتفشى، تضرر الأسنان وظهور الأَمراض الجلدية وأَمراض الجهاز التنفسي وهشاشةُ العظام.

لم يرد الغزواني أن يبدو مُستهينًا بالقصة، لكن ما رواه جاب الله كان مُبالغًا في وصفهِ، لَكن كمن تذكر مُحادثتهُ مع سعيد القفصي سأَل:

– بلغنا أَن الشركة منذ الثمانينات اشترتْ العديد مَن الأَراضي المحيطة بالمصب بأثمانٍ تبدو غالية، هل للأمر علاقة بالتقرير؟.

أنصتَ إِليه بكل اهتمامٍ، وأَجابَ مُستندًا على اهتمامهِ بالتفاصيل:

– نعم حصل.. اشتروا الأَراضي القريبة من المصبِ لكي لا يطَّلع أَحد على ما يُفعل هناك، مرضت الحيوانات ثم بعض كبار السن والأطفال ماتوا.. تلوث المياه لم يكن يخفى على أَحدٍ، وإِن اجتهدَ البعضُ في تبسيط الأَمر، عندما بدأَ الأَمرُ يتحولُ إِلى سكينٍ في خصرِ الشركة، قامَ مسؤوليها بهذهِ الخطوة المبدئيةِ.. شراءُ العقارات والأَراضي القَريبة من المصب بعدَ أَن وجدوا قبولًا بتفويتها بهدفِ بناء مُجمع عمالٍ.. نجح الأَمر في ذلكَ الوقتِ.

ارتشف قهوته تاركًا ذهنه يفكر ويَغوص في بحر هذه المعلومات:

–هلال كانَ قد تنبه إِلى أَمر بحكم عملهِ كطبيب، ودراستهِ في الأَمراض الصدريةِ.. هذه المادة تسببتً في نشرَ أَمراضِ عديدة بين متساكني الجهةَ؛ كهشاشة العظام، الأَمرُ أَصبحَ أَكثر وضوحًا عند مُقارنة عدد مرضى السرطانِ بالحوض المنجمي بسكانِ أَي إقليم تونسي آخر من الوسط أَو الشمال. حتى الحيوانات، النباتات، تموت.. تقلصت مساحة الواحات واندثرَ بعضها.. كان الأَمرُ واضحًا.. لا تظن أَنَ المشكلة في الفوسفات.. لا لا هي مادة طبيعية ولها جدواها الاقتصادية.. المشكلة في سوء التصرف بنفاياتها التي تتسرب للأرض تختلط بالمياهِ.. منذ متى؟ أُحسب.. عقود وعقود.. الناس لا يتسممون منذ ثلاثين عامًا، بل أَكثر للأَسف، هناكَ ضعفٌ فادحٌ في منظومة التخلص من النفايات الخطرة بالبِلاد.

انتهتْ المُحادثةُ الثقيلةُ بينهُما بعدَ العصرِ.. ارتدى على إثرها الدكتور نظارته وثبتها.. نهضَ. حمل فنجانه الخزفي وخرج بينما ظل الغزواني ينظر لما بدا سُمًّا أَسود في قهوتهِ.

كان مُلمًا ببعض تفاصيل حياة هلال المحمدي، معلومات تحصل عليها من زملائه وعائلته؛ لكنِ لم يعرف أَنه دخل لهذا المكان وسيخرج منه وقد تعرَّف عليه أَكثر، علم أَنه لمدة أَشهر ظل يتوسد خفية قاعة المطعم الذي يعمل به جزئيًا بعد الإغلاق، عندما كان في السنة الثانية من الجامعة، بعد أن لم يجد اسمهُ في قائمة السكن المجاني للطلبةِ، علمَ أَن والدهُ فقد نصفَ عقلهِ بعد مقتل ابنه البكرِ، وظلَ مدمنًا للكحولياتِ حتى وُجدَ مشنوقًا بعدَ جلسةٍ خمريةٍ تَاركًا ولدينِ.

***

لا يزالُ أَمامهمَا نصفُ ساعةٍ على أَقلْ تقديرِ ليبلغَا دَارَ الرعايةِ، وهوَ وقتٌ أَكثرَ من كافٍ لتأخذَ شوق فكرةً أَكبرَ عن الغزواني.

يخيلُ إليها أَنهُ شبيهُ بوالدها، يلوِّحُ برايةِ الطاعةِ كُلما استعصت عليهِ أَو حاولتْ أَن تقولَ لا في وسطِ أَلف من النعم التي توزعُها في كلِ مرةٍ لتسدَ بابَ نقاشٍ يُمكنُ أَن تضرها نتائِجُهُ.. لكنهاَ خبرت والدَها وإخوتها، لكنْ هذا الجبلُ المتينُ الذي يجلسُ بجانبها غيرُ قادر على تغيير سيارتهِ الباليةِ فكيفَ سيغيرُ موقفهُ؟!.. الأَغربُ رنةُ هاتفهِ النقالِ التي تفزعُ الميتَ من قبرهِ، رنةٌ، بل صريخٌ من الموسيقى الحادةِ المفجعةِ.

استرجعَتْ شوق ما قرأتهُ على المواقع التاريخيةِ عن تاريخ الفوسفات بالجمهوريةِ التُونسيةِ.. كان الأمر أشبه بمُعجزة.. تم اكتشافَ الفوسفات في البلاد التونسية أواخر القرن التاسع عشر، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى

تم بعث شركة فوسفات قفصة سنة ١٨٩٧ من قبل مستثمرينَ فرنسيين، على إثرها تم افتتاح عدة مناجم بِالمتلوي والرديف وأم العرائس.. وجاء دورُ المظيلة فيما بعد. فتحَ الأَمر أَبوابَ الرزق والمال، استغلت المادةُ في الزراعة والصناعةِ.. كانَ كلُ شيء يسيرُ بشكلٍ جيد: ثروة طبيعية مكنوزة في باطن الجبال، لماذا لا نستغلها أكثر وأَكثر؟ هكذا فكروا ونفذوا. ظهرت الشركاتُ الخاصة إِلى جانبِ الوطنيةِ، حتى ظهرت انعكاساتُ إفرازات هذهِ المادة: الغازاتَ، وتلوثَ المياه الجوفية وأثرها علِى الصحةِ والبيئة والثروة الحيوَانيةِ.. بدا السكان المتاخمون لوحدات الإنتاج أَو مغاسل الفوسفات أو القريبون من المصبات ومدافن نفايات الفوسفات يَمرضون، تجهض نساؤهم، يصابون بتآكل الأسنان وهشاشة العظام، حتى وصل الأمر للسرطان والموت، يُسببها إلقاء كمياتٍ هائلة من الفوسفوجيبس تصل إلى آلاف الأطنان يوميًا.

أَخذت تُبادلُ رئيسها الحديثَ مع بدايةِ البرنامج الحواري الإذاعي (وجهة نظرٍ):

-إذن كان ضوء صيادًا ورحالةً مُغامرًا؟

سأَلَتْ لتتأكدَ مرةً أُخرى، التقديرُ والإعجاب بالرَجلِ كانا واضحين في كلماتهِ:

- بل أَكثرَ من ذلكَ.

-كانَ مُروضَ أَفاعٍ أَيضًا؟

وضحَ:

- آه، كان ذلك منذ زمن بعيد، قبل مقتل (عادل)، كان عم (ضوء) يبيعُ الأَفاعي حيةً أَو ميتةً حسبَ الطلب للمهتمين أَو مخابر البحث، مستشفى باستور إِنْ وجد أَو لمَ يجد سعرًا مُناسَبًا.

أَومأَت وهيَ تستمعُ إِلى تدخلاتِ الضيوفِ، حصةِ حول قانونِ المُساواةِ المُزمع عرضهُ على مجلسِ النوابِ، خصصتْ المذيعةُ الجزء الأَولِ من الحصَةِ للطرفِ الداعي لإقرار القانونِ، عرفتْ بالضيفِ النائب عن حركة الديموقراطيينَ، أَقفلَ الغزواني مذياعَ السيارةِ، حتى قبلَ أَن يفتحَ النائبُ فمهُ.

اختلست شوق نظرة إليه وقالتْ:

– لماذا أَطفأتهُ؟ إِنهُ لم يتكلم بعد.

تنهدَ الغزواني وهو يُراقبُ الطريقَ:

– أَعتقدُ أَنه ليس من العدلِ إقرار قانون المساواة فقط لإرضاء النخب التنويرية والمنظمات النسويةِ العالميَةِ، أَعتقدُ أَن الكفاءة هيَ المقياسُ الحقيقي، لا يهم إِن كنت رجلًا أَو امرأة، المهم ماذا يمكنُ أَن تضيفَ المرأةُ للمنصبِ، ها أَنتِ هنا، نحن نتساوى في الرتبِ.

ضحكت بقوةٍ وهيَ تُعقبُ على رأيهِ:

– هذه ليست مساواةً، بل نوعًا مخزيًا من الترضية، من المفروضِ أَن أَفوقكَ رتبة، عندما يصل رجل إِلى منصبٍ ما لا يقولون شيئًا، لكن عندما تصل امرأة إِلى منصب مهم يدافعون عنها ويقولون كفاءة.. وكأَنَ وجودَ كلمةِ الذكر في خانةِ الجنس كفيلةٌ لوحدها لارتقائه في أَي منصب بدون أَية غرابةِ.. لكن المرأة عليها أَن تثبتَ استحقاقها للأَمرِ في كلِ فرصةٍ وكأَنَ هذا يرفعُ عنها حرج اختلافِ الجنسِ!.

***

١٩٨٨

عادَ ضوء من رحلةِ صيده بالجنوبِ التونسي عشيةَ ليلة ما بعدَ الاختفاء، ليجدَ ما يشبهُ مجلسَ العزاءِ أمام منزلِ والديه.. ألقى حملهُ وركضَ لمركزِ حرسِ المظيلةِ ليقدمَ بلاغَ اختفاء طفله، عادَ إليهم صبيحةَ اليومِ التالي وقد جافَى النومُ عينيهِ، قالوا لهُ بعدَ أن لاحظَ تقاعسهم:

«لم نسجل شيئًا منذُ يومينِ غيرَ حادثة احتراق منزل الطبيب.. إن وصلنا شيء كنا سنعلمك بالتأكيدِ».

عادَ للمنسيةِ يجرُ قدميهِ وخيبتهِ، وقد تعاظم قلقهُ حتى استحالَ سحابةً سوداءَ فوقَ رأسهِ، تنافسُ دخانَ المجمع الكيماوي.. ارتمى منهكًا على الأرضِ منتظرًا مكالمتهم تحتَ جدارِ متجرِ الموادِ الغذائيةِ، كانَ المحلَ الوحيدَ في الجزءِ الشرقي من البلدةِ الذي عرفت فيه أسلاكُ الهاتفِ طريقها.

ظلتْ عيناه مسمرتان بالأرضِ؛ لكن روحهُ وقلبهُ في السماءِ.. لم يحقق الكثيرَ في حياته، بل لم يشعر أنه زاد ولو ذرة لميزانِ حياتهِ إلا عندما دوَّنَ اسم ابنه الرضيعِ في السجل المدني (عادل الصغير)، يذكرُ ذلكَ اليومَ، كان في صبيحة أحد أيام شهر سبتمبر منذ أكثر من عشر سنواتٍ، كررَ اسمَ وليده بصوتٍ واثق فخور لعون البلدية بالمظيلة،

- (عادل الصغير)!

عاد يحملُ شهادة الميلادِ بين يديهِ، بالكاد يفك حروف الورقة ولكنه تعرف على كل حرف من اسم ولده الوحيدِ.

تمعنَ أَحمدُ في وجهِ ضوء التعبِ المنزوي رغمَ كلِ هذا الضجيج والصخب في ركنه، كانت هذهِ أَولُ مرةٍ يُشاهدهُ على حالتهِ من الكربِ والحَزنِ، فلطالَما اعتبرهُ غيرَ الكُلِ، يحزنونَ للقحطِ فيُشيرُ للجبالِ والطرائدِ الموعودةِ، يتجهمونَ بسببِ ممارسات الشركةِ ضدهم فيربتُ على ذراعهِ، ويقولُ بصوتٍ ثخين خارج من حنجرة داومت التدخين:

-مادام فيه صحة.. فكلُ شيء غير مهم.

كان يدفع بابَ منزلهِ بركبته:

- السلام على أَهلَ الدار

يدخلُ حتى قبل أَن يرد والده السلام، وهو يحمل بذراعيه القويتين سلتينِ.. يعرفون أَنَ واحدة لهم والأخرى لأهلِ بيته

- هذا نصيبك يا أحمدُ

يغمزه، كانَ يخصهُ بالحب دونَا عن أَخواتهِ فهو امتدادٌ لابنهِ عادل.. يضحكُ أَحمدُ ويندفعُ نحوَ القفَةِ ليجدَ طيرَ الحُبارى راقدًا على ظهره وهو لا يزال محتفظًا بريشه.

شعرَ الطفلُ بأنه يرى لأول مرة رجلًا يتحطم إلى قطع، وكأَنَّ أَساس منزله قد سقط على ظهره وكسره، تمعنَ في وجوهِ الخلقِ، هم يواسونهُ، يطمئنونهُ، لكن هل هم أَصدقاؤهُ؟ أَخبرهُ يومًا عندما باتَ عندهم في إحدى ليالي الصيفِ وهو بجانبِ عادل الذي غط في النوم:

- تسقط فلا تجد سوى أَذرع أصدقائك تحتويكَ.. فحافظ على صديقك.

«أَما الأَحياءُ، فقدْ وطَنُوا أَنفسهم على الأَرضِ، في تدريبٍ على المَوتِ مفعمٍ بالاستسلامِ».

أَرضٌ تسيرُ نائمةً،

ميا كوتو.

يقيم ضوء منذ أَقلِ من سنةٍ ونصف بمركزِ رعايةٍ خاصٍ، همستْ شوق دونَ أَن تخفي انبهارهاَ بالمكانِ والتجهيزاتِ:

– أُراهنُ أَن راتبينا مجتمعين لا يُغطيان سعرَ إحدى هذه الغرفِ لشهرٍ واحد!.

كانَ الغزواني بالكادِ يلاحظُ هذا، فكرَ أَنَ كلُ شيء في حياتهِ بدا غيرَ ثابت، دراستهُ، شعورهُ نحوَ عادل، نظرتهُ لبلدتهِ؛ حتى علاقتهُ بوالديهِ، لا شيء ثبت في حياتهِ خلال السنوات غير كلماتِ ضوء ذلكَ الرجل الذي جعلهم يتماهونَ مع النجوم.

اعترضهماَ الممرضُ المُكلَفُ بالاعتناءِ بضوءِ على بابِ غرفتهِ، كانَ شابًا في أَوائلِ ثلاثيناتهِ، طويلًا وعريضًا، عرفَ بنفسهِ كـ (صهيب) الممرض المسئولِ عن حالةِ ضوء الصغير:

–أَظنُ أن عمْ ضوء يمكن أَن يقابلك الآن.

كررَ كلامهُ بكلِ ثقةٍ، وكأَنهُ يسلمهُ مفتاحَ دخولِ الجنةِ!. كانَ الغزواني قدْ اتصلَ بهِ سابقًا للزيارةِ، برقم تحصلَ عليهِ من علياء:

– لكنْ لا أَعتقد أَنه يمكن أَن يخدم قضيتنا أَو ينفعنا بأَية معلومةٍ.

تراجعتْ شوق لتُفسحَ لهُ المجال.

دخلَ أَحمدُ بمفردهِ يسبقهُ شوقهُ وحزنهُ، بينما رمقته أربعة أزواج من العيون تعود إحداها إلى المُمرض الذي أكدَ عدةَ مراتٍ على ضرورة عدم إرهاق المَريض بالحديث، حتى وإن كانَ لا يتجاوب معَ الكلام، كما نبَّهَ إلى أن أيةَ حركةٍ تَصدرُ عنهُ هيَ مُجردُ ردة فعل طبيعية لحالته العقلية. كانَ ضوء يتنفس بمساعدة أسطوانة اكسجين، جلسَ الغزواني.

فتح ضوء عينيهِ ببطء لكنه لم يتعرف عليه.

-كيفَ حالكَ عمي؟

وكأَنَ الله تعالى أَخذَ شخصًا ووضعَ شخصًا أَو مسمى لشيء آخر، تشوهاتٌ بارزة تغطي وجهه، سقط شعر رأسه حتى استحال أَقرع ذا آذان كبيرةٍ بارزةٍ.. لم يعد سوى كتلةٍ من اللحم تخرج الهواء وتدخله، ولا ترد على كلام إلا بهمهمةٍ غامضة مخيفة.. كل شيء غدا من الذاكرة حتى تلك العيون التي كانت تبتسمُ.

وضعَ الغزواني كفهُ على يد المريض، وفكرَ لو كانَ قُتلَ ابنهُ.. ابنهُ الذي لم يحظ بهِ بعدُ، ماذا كانَ سيحدثُ له؟ هل كانَ سيجنُ؟ سيُحاولُ الانتحارَ؟ أَم أَن علياء كانتْ مُحقة؟ هل كان يَخشى أَن يكون أَبا أَن ينجبَ ابنًا يُطلق عليه اسمًا.. يُحبه كما لا يُحبهُ أَحد.. يربيه ويسقيه ويطعمه ويَضعه بين عينيهِ ليُقْتَلَ بطريقةٍ مُؤلمة؟ هل مَا جرى لعادل هو السببُ؟ «أَنت فارغٌ منَ الداخلِ»

هكذا بصقتْ كلامها خلالَ اليومِ الأَخيرِ لجلسةِ الطلاقِ.

ظلَ لدقائق.. أَغلقَ البابَ وخرج.. مر بجانبِ شوق التي ظلتْ تتحدثُ مع المُمرضِ.. توجهَ ضوء لهُ بالسؤالِ

-صهيب.. لماذا ساقهُ اليُمنى مبتورةٌ؟

أَومأ الأَخيرُ بنفاذِ صبرٍ لم يعرف الغزواي مُبررهُ:

- صحيح إلى حدِ الركبةِ.. كانَ البترُ ضرورة طبيةٍ مع تضررِ الساقِ بسببِ مضاعفاتِ الحروقِ.

***

كانت بعض الأَواني في الجلاية لا تزال تقطر ماءً، ربما كان قد بدأ سعيد بتنظيفها عندما أَبلغهُ الغزواني هاتفيًا بأَنهُ سيرسلُ لهُ نصر الدين ليطرحَ عليهِ بعض الأَسئلةِ.

جلسَ الشابُ على كرسي طاولةِ المطبخِ وهوَ يفكرُ أَن المُسنَّ نجحَ في تلافي المشهدِ المُنفرِ السابقِ.. حدقَ ماليًا بالماءِ الذي ينزلُ من الحنفيةِ، كانت نظرة واحدة كافيةً، كان الماء مائلًا للأَصفرِ.

-أَلا يُمكنُ أَن يكونُ لونُ الماءِ مصفرًا بسببِ قِدم المواسيرِ؟

اختفت ابتسامةُ سعيد، تركَ كأسَ الشايِ على الطاولةِ ليبردَ قليلًا، تراجعَ بظَهرهِ للخلفِ وضحكَ:

- أَية مواسير؟ إنها مياهُ الآبارِ، مياهُ المظيلةِ المُلوثة، إننا نشربُ منذُ زمنٍ ماءَ خزاناتِ الشاحناتِ، المياه المُتجولة.

حدقَ بهِ نصر الدين مليًّا ثمَ سأَلَ:

- كيفَ بدأَتْ الحكايةُ يا عم سعيد؟

-القصة بدأَت عندما اكتشفَ أَحد أفراد عائلة (الهنيشري) أن نفوق جزء منِ مواشيهم كانَ بسببِ تسرب إشعاعاتٍ مُضرة قادمة من مصبِ الحزامِ الأَصفرِ إلى مزروعاتهم، من خلال مياه بئرِ السبعِ، ومنها إلى مواشيهم،

اشتكوا، لم يسكتوا، الشركة أنكرت في أول الأَمر، رمتْ شكاويهم على وجوههم.. لكنْ قريبهم كان يعملُ بوزارة العدلِ هدد بإفشاء خطورةِ المصب وتحويلِ الأمر إلى شكوى جماعية ينضم إليها سكان الأراضي القريبةِ، الشركَة هنا أُرغَمتْ على قُبولِ تَسوية مُجزية للعائلة مُقابل التزامهم الصمتِ، كان هذا ببدايةِ الثمانينات يا ولدِي.

-يبدو أَنَ الأمرُ لم يعد سرًا.. كيف عرفت أَنت بالأَمر؟

ردَ بصوتٍ مرتعشٍ:

- «إنها بلدةٌ صغيرةٌ.. لا شيء يبقى تحتَ ظلِ الحجرِ.. الكلُ علمَ بالتَدريجِ.. أَحدُ أَفرادِ العائلة كانَ زلقَ اللسانِ

سأَلَ المُحققُ بدونِ أَن يخفي تعاطفهُ:

- إذن هكذا انتهى الأَمر؟

-لا.. من أَجلِ مداراتِ تجاوزاتها ومحاولةِ لفلفةِ الأَمرِ قبلَ أَن يفضحوا على الملأ، عملت الشركةُ على الاستيلاء على الأراضي المتاخمة للمصب من أصحابها بأسعارٍ أعلى من قيمتها، قالوا أنهم سيبنون تجمعًا لمساكن العمال، السكان صدقوا لم يُبنَ ولا بيت للآن.

-عم سعيد، أَوليسَ من المفروض أَن تكونَ قيمة الأراضي منخفضة بسبب قربها من المصب الكيماوي وَبُعدها عن الخدمات الأساسية التي توفرها المدينة ونوعية تربتها الرديئة؟

سأَلهُ وهو يلقي نظرةً على كأس الشاي الذي بدا أَنهُ أَضحى مُناسبًا للشُربِ، أَخذَ رشفةً صغيرةً قبلَ أَن يَعقبها برَشفةٍ أَكبر.

انقلبتْ ملامحهُ حتى بدا وكأَن التجاعيدَ تضاعفتْ في وجههِ:

- نعم.. لكن كما ترى لقد بيعتْ جَميعها بأسعار كبيرة لا تناسب لا موقعها ولا قيمتها في السوق، وأَقل فلاح هنا يَعرف أسْعار الأراضِي المُتاخمة للحزام الأصفرِ.

بينما كانَ القفصي يهم بإعادة سكبِ كأسَ شايٍ ثانٍ للمحققِ أَضافَ:

- يا ابني.. الكثيرُ طالبوا بإغلاق المصب أَو حتى بنقلِ الوحدة الكيمياويةِ من المنسيةِ لكن لا شيء.. لا يوجدُ جهودٌ حقيقية لذلكَ وأَنا أَتفهمهم.. إنهُ موتٌ بطيء.. مُقنن ومقصود لا يمكن رفضه.. لكنْ أَلا يُقال «قطع الرقابَ ولا قطع الأرزاق؟» هُنا يفضلونَ أَن يموتُوا ببطء على أَن يُفتَكَ منهُم سببَ رزقهم ورزق أَبنائهم المُستقبلي.. لا تُوجدُ عائلةٌ لا يعملُ فيها أَحدُ أَفرادها أَو أَكثر بالشركةِ أَو المنجم أَو الوحدة الكيماوية.. في المُقابلِ من النادر أَن تجد عائلةً لا يشكو فرد منها من أَي مرضٍ.

تلألأت الشمس، حجب أَشعتها عن عينهِ بيده، كان عم سعيد قد توارى عن أَنْظارهِ خلف الطريق المتوجهة نحوَ البلدةِ، حتى عم سعيد كانَ يُمكنُ أَن يسترسل في حديثهِ أيضًا، بينَ رشفاتِ الشايِ المُخمرِ عن المنسيةِ منذ فجرِ تاريخها، عن مُشاركتها في الحضارةِ القفصيةِ، عن الصخورِ التي وجدت في قلب الجبالِ معبئةً بالأصدافِ التي ملأت شاطئ المنطقة عندما لم يكن البحرُ شيئًا غريبًا عنها.

***

مرةً أُخرى وجدَ الغزواني نفسهُ بداخلِ المَبنى المُطلِ على جبالِ المظيلة، جالسًا على كرسي بمواجهةِ رَئيس قسم مراقَبةِ جودةِ المياهِ بالشركةِ المُتوسطيةِ للفوسفات.. كانَ الرجلُ شديدَ الانفعالِ وقدْ زين جيب سترته بشعار الشركة، هتفَ بلهجةٍ جنوبيةٍ صرفةٍ:

- هذَا هراء.. لقد كلفنا لجنة حكومية من وزارة البيئة بمتابعة الأَمر، وقد قامتْ بعملها على أَكمل وجهٍ لتقدم لنا تقرير السلامة.. هل تظن أَننا نمارس نشاطًا رَعوانيًا؟ حتى الأَطباء الحكوميون أَكدوا على أَنَ أَمراضهم لا علاقة لها بمجمعنا الكيماوي ولا بمصبنا!.

تراجع بكرسيهِ مُصدرًا صريرًا مزعجًا.

ظلَ الغزواني محتفظًا ببرودةِ أَعصابهِ، مواصلًا إلقاءَ أَسئلتهِ مُتجاهلًا كومةَ المُستنداتِ التيَ فردها المُوظفُ على سطح المكتب

-وماذَا عن تللكَ العرائض التي رفعها بعضُ المزارعين يشكونَ فيها من نتائج انبعاثات غازات المجمع الكيماوي والمصبِ على صحتهم؟

-لا علمَ لنَا بأَية عرائض.. ثمَ نقص الحديد، ضغط الدم، عدم التوازن الغذائي.. هناك أَلف سبب وسبب لتعرضهم لهذه الأَمراض، ليس وكأن هؤلاء الفقراء يأكلون غذاءً متوازنًا.

-هلال المحمدي زعمَ أن عملية دفن النفايات لم تتم بطريقةٍ صحيحة.. هل أصغيتم إليه؟ هل تثبتُّم من كلامهِ؟ أَقصدُ أَن اتهاماتهُ تسيءُ إِلى شركتكم.

-هناك اجراءاتٌ نتخذها، مثل إعادة الفحص وإِجراء اختبار جديدٍ.. وقد خرج الاختبار سلبيًا، لا صحة لَادعاءاتهِ.

-وهلْ كانَ هذا كفيلٌ بردِ الاتهامات عليهِ؟

أَطبق فكيه المُرتعشين:

- لا، في الواقعِ اتهمنا بِتزوير الاختبارِ والتلاعبِ بالنتائج ورشوةِ أَعضاء المُختبرِ.

خرجَ الغزواني من المكتب والمبنى بحس مُتقدم، يكادُ يكون يقينيًا، أن بعضَ المعلومات يُمكنُ أَن تُشَكلَ قوةً لصاحبها أَو خطرًا عليهِ.. رفعَ رأسهُ يُحدقُ بواجهتهِ الحجريةِ، توقفتْ عيناهُ لإحدى غرف الطابقِ الثالث، وهو شبهُ متأكدٍ من المَخاوفِ التي بدأت تتحولُ إلى أَدلةٍ تُدينُ الشَركةَ المُتوسطية للفوسفات.. عادَ أَدراجهُ لسيارتهِ، وعدَ والدتهُ أَن يبيتَ عندَ عمهِ هذهِ الليلةِ.

***

لم يكن ضوءُ الشمس قد شعشعَ من فوقَ مئذنة جامع بلال، عندما وصلَ الغزواني إلى وسط المظيلَة، أَوقف مُحركَ سيارتهِ وترجَّلَ. سحب نفسًا لا يزالُ يحتفظ ببعضٍ من برودةِ الهواءِ.. مشى متأملًا شارع الشُهداءِ الذي بدأت متاجرهُ تفتحُ أَبوابها، حتى وصلَ إلى مفترقِ طرقٍ قطعَ على إثرها طريقًا فرعيًا بالقربِ من واجهةِ ما كانَ مبنى شعبةٍ للحزبِ الحاكم.

مع خطواتٍ طويلةٍ وسريعةٍ، وصلَ إلى الآثارِ الرومانيةِ.. كتبَ الكثيرُ من الرحالةِ والمحليينَ كتبًا عن المُدُنِ، عن رحلاتهم حولها وعبرها، لا يَستحضرُ الغزواني الآنَ كتابًا تفردَ بالحديثِ عن المظيلةِ أَو سُكانها، لكنهُ يتذكرُ يوميةً سياحَيةً عن تونس في أَحدِ جوانبِ مطارِ شارل ديجول.. كانت مُفعمة بالأَلوانِ، لون بحرِ قرقنة وسيدي بوسعيد حتى كثبانُ صحراءِ دوز؛ لكن لم تذكر المظيلة أَبدًا ولَا حتى قفصة، ربما لو تفحصَ يومية صناعية كانَ وجَدَ نبذةً عنها.

لم تكن شوارعُ المظيلة غريبةً عنهُ، وكيفَ لا والمنسيةُ جزءٌ منها تُشعرهُ دائمًا أَنهُ منبوذ، لقيطٌ.. ظل واقفًا بلا حراكٍ، تاركًا الحركة لجمع المصلين وأَسراب العاملينَ لعدةِ دقائق، حتى خُيلَ إلِيهِ أَنهُ يتحولُ إلى صنمٍ.. وبخفةٍ

وقبلَ أَن تتحولَ خيالاتهُ إِلى وسواسٍ تحركَ وقفلَ راجعًا لسيارتهِ، قاصدًا مقرِ التحقيقاتِ، والذِي وصلهُ مع صرخاتِ شوق المكتومة وهيَ تُفرقعُ بإصبعيها لينتبه الآخرون، بينما حافظت على الإمساك بالسماعة بين كتفها وأذنها، ودونت بأصابع يدها الثانية شيئًا على الورقة:

«نعم نعم، أَستمع إِليكَ.. شُكرًا.. أَرسلها بالفاكس الآن».

أَلقى الغزواني بحقيبتهِ على صدر مكتبهِ، منتظرًا تفسيرًا لهتافاتها، بينما دنا نصر الدين من مكتبها وهوَ يجرُ نفسهُ ناعسًا قبلَ أَن يقولَ:

-أَتمنى أَن يكون لديكِ سببٌ وجيه للصراخ علينا.

أَقفلتْ السماعةَ دونَ أَن تخفي ابتسامتُها:

- لقدْ توصلنَا إِلى هويةِ صاحبِ الأَصابعِ المقطوعةِ، ستصلُنا المعلوماتٍ بتفاصيلها بعد دقائق!.

أَكملتْ كلامها وتوجهتْ إِلى آلة الفاكس التي تحتلُ حيزًا قربَ مكتبِ رئيسها.

بوجهٍ لا يزالُ مرتبكًا تمتمَ عمادُ:

- يبدو أَن شيخَ العُمالِ يَملكُ عصا سحريةً حقًا!.

ضحكت شوق فخورةً:

- نعم أَلم أُخبركَ!

بعدَ دقيقة عادت وهيَ تحملُ أَوراقًا، انظمَ إِليهما الغزوانِي بعدَ لحظاتٍ، تحلق ثلاثتهم حولها.

«حمادي الوحيشي، الشهيرِ بـ (الديك)».

كانتْ الصورةُ قديمةً تُصورُ شابًا في بدايةِ الثلاثينات على أَقصى تقدير، بشعرٍ أَشعث مرفوع وعيونٍ قاتمة، كانَ يستندُ على واجهةِ قطارٍ للبضائعِ بينما استرخت يدهُ الأُخرى فوقَ حزامٍ ثبتتْ عليهِ ما بدا عدةُ حدادةٍ.

في الواقع كانَ عميدُ العُمالِ من لهُ صاحبُ الفضلِ الأَكبرِ عليها.. لم يتعرف عليهِ الغزواني شخصيًا، لكنْ معارفهُ بكلِ ولاياتِ الحوضِ المنجمي كأرجلِ الأُخطبوط ينتظرونَ إشارةً منهُ لردِ أَي جميل، وأَحدهم رئيس عمالٍ مُتقاعدٍ من المتلوي، تعرفَ على أَوصافِ الغريب ذي الأصابع المقطوعةِ.. ولم يتأكد إلا بعدَ أَن تواصلَ مع مدير أَرشيفِ اتحادِ العُمالِ المحلي للمتلوي، والذي أَرسلَ إِليهِ عبرَ الفاكس دسةً منَ الصور الشخصيةِ أَو الرسمية، التابعةِ للملتقياتِ التي كانت تنعقدُ في السابق، وفيها كلها كانت هناكَ صورتهُ، من المؤسفِ أَنها صورٌ قديمةٌ وباللونينِ الأَبيض والأسود، فقط لكنها كانتْ كافيةً لتمييزِ أَصابعه المقطوعةِ.. الخنصرُ والسَبابةُ.

طرقَ نصر الدين للحظاتٍ قبلَ أَن ينهضَ من مكانهِ ويتجهَ للطاولةِ التحقيق الرئيسيةِ، ظلَ يبحثُ عن شيءٍ بينما كانت كلُ العيونِ تُراقبهُ

-أَظنُ أَنهُ المَقصود.

-إِنهُ لا يزالُ حيًا!

تمتمتْ شوق.

نظرَ جميعهم إِليها بذهولٍ غيرَ مُصدقينَ:

- أَنتِ متأكدة؟!

-بالتأكيدِ، إِنهُ بالمتلوي لكنْ لا أَعرفُ عنوانَ منزلهِ بالتحديدِ.

وزعَ الغزواني الصورَ على مرؤوسيه:

- هل تتعرفُ عليه يا عماد؟

ظلَ للحظاتٍ يحدقُ بالصورِ قبلَ أَن يعتذرَ:

- لا، لا أَتذكرهُ.

-نصر الدين، انطلق لبيتِ عم سعيد القفصي.. ثمَ توجه لتلكَ السيدة شهيرةِ.. تحقق جيدًا من تعرفهما على صاحبِ الصورةِ.. وأَنتِ شوق فلترتاحي، أَحسنتِ.

طبقَ الورقة ودسها في جيبه وقال:

- حاضر سيدي!

ابتسمَ وغمز شوق وقالَ:

- سآخذُ سيارتكِ.

رفعَ الغزواني هاتفهُ.. تكلمَ.. أَقفلَ وقالَ:

- عماد، سنتوجهُ الآنَ للمتلوي إِلى أَن يَمُدنا محسن بعنوانِ المنزلِ، يَجبُ أَن نستفيدَ من بعضِ الوقتِ.

***

١٩٨٨

حدقَ (الوحيشي) بيدهِ.

لم يحب أَبدًا ارتداءَ القفازاتِ الجلدية التي تخفي هذه الإعاقةَ، تسببُ له الحكة والاحمرارَ كما أَنها لا تناسبُ هذَا الطقسَ الحارَ.. لو لَم يخسر أَصابعهُ لكانَ حالهُ أَفضل؟ رُبمَا.. لكنهُ لا ينكرُ أَن حالهُ كانَ أَحسن قبلَ قطع أَصابعهِ، لا يزالُ دونَ الخامسة والعشرين، لكنهُ يشعرُ أَن حياتهُ العمليةُ انتهت مع قطع أَصابعه تحتَ الآلة.. لكنهُ اعترفُ أَنهُ صارَ أَكثرَ تركيزًا بما يُريدهُ.. قلَ ارتباكهُ وخوفهُ وكأَن بقطعهما قطع جذور المحنتينِ.

حك أَصابعهُ، كانَ لا يزالُ يشعرُ بمكانِ القطع، يؤلمه رغم مضي سنتين على ذلك، ما يغضبهُ أَكثر هو نظراتُ النَاس التي تتوزعُ بينَ الشفقةِ والتجنبِ وكأنه أَجرب، حتى معَ الساعة الفضية الجديدة لم تتغير نظراتهم له، كانت واسعة على رسغه لكنها أَثمنُ ما يملك، بل ما ملكهُ طوالَ عمرهِ.. طمأنَ نفسه، سيسيرُ الأَمر بكل سلاسة، سهولة قاتلة، ولكن المشكل سينتهي.. روح مقابل عدة أَرواح، حسبة بسيطة.

تنحنحَ وقد لمح شريكهُ: طويلٌ ذو مشية غريبة.. أَطفأ ما بقيَ من سيجارتهِ بكعب حذائه، وقفَ، ثبتَ الفأسَ وراءِ حزامهِ وسار نحوه.

***

«ألسنا نعيش حياتنا و نحن نعلم أن الله سيأخذها؟»

الشَحاذ،

نجيب مَحفوظ

منْ أَمام كشك بمدينةِ المتلوي، اشترى الغزواني قارورتي ماء وشطيرتين.. كللت زيارَتهما لمنزلِ زوجةِ (حمادي الوحيشي) بالفشل.. فقدْ أَكدتْ سهام زوجتهُ على انفصالهما منذُ سنتين، رغمَ عدمِ حصولها على الطلاقِ بعدُ

-هل تظنُ أَنها صادقة فيما تَقولهُ؟

تمتمَ عماد بالكلماتِ وهوَ يلتهمُ قطعةً من الشطيرةِ:

- حسبَ معلوماتِ محسن فقط كانا يعيشانِ بالمتلوي لعشرِ سنوات، ثمَ انتقلا لصفاقس حيثُ عملَ في عدة حانات شعبيةٍ.. اشترى منزلًا ليبيعهُ مرةً أُخرى ويشتري منزلًا آخر بسعرٍ أَرخصَ هُنا بالمتلوي.. كيفَ كانَ بإمكانهِ شراءُ منزلٍ صفاقس أَصلًا فهو لمً يرث شيئًا؟

-نعم.. كما أَنهُ تركَ عالمِ المناجم منذُ عشرينَ سنةً.. سؤال آخر لماذا تركَ المنزلَ لطليقتهِ المُستقبلية؟ أَيُ زوجٍ كريم يفعلُ هذَا؟

-هل نحنُ متأكدَانِ أَنهُ الشخصُ الذّي نبحثُ عنه؟

-لقدْ أَكدَ كل من سعيد القفصي والمنظفة شهيرة على أَنهُ نفسُ الرجل الذي ظهرَ وهوَ يتتبعُ هلال.. كلُ ما علينا فعلهُ انتظارُ ما يُمكنُ أَن ترسلهُ شرطةُ المتلوِي من معلُوماتٍ عنهُ.

-ابتلعَ عماد لقمتهُ وأَعادَ بقية الشطيرةِ إلِى كيسها وهو يُغمغمُ:

- ليستْ لذيذةً، الخبزُ لم يُخمر جيدًا.

قفلَ الغزواني راجعًا لمنزلِ والدته.. لم يغفُ بعدُ عندما التقطَ مسدسهُ ومفاتيح سيارته وقفز من فراشهِ، اتصلَ بهِ عماد ليُعلمهُ بالعثورِ على جثةٍ في المنجمِ القديمِ!.

***

نزلت شوق من السيارةِ، ثلاث سيارات من الحرس المحلي تطوق المكانَ، والعشراتِ من المتفرجين المتناثرين على بعد عدة أمتار متجاهلين حرارة الشمس، دفعت بنفسها للأَمام دونِ أن تشيح نظرها، وقد بدأت قطراتُ العرقِ تتجمعُ فوقَ جبينها، كانَ الفرقُ بينَ حرارة السيارةِ والخارجِ مخيفًا.. دسة من رجال الشرطة كانوا يحاصرون المكان.

جمعت شعرها وربطته في شكل ذيل حصانٍ، كان قد تم استدعاؤها لموقع الجريمة متأخرًا، لاحظت أن الغزواني قد سبقها، شتمت وهيَ تتقدمُ بضعة خطوات، رفعت شارتها مقطبة الجبينَ أَمام وجهي عوني الحرسِ، سمحا لها بالمرور بعد أن أشار لها الغزواني.

انسلت من تحت الشريط، لمحت جمعًا من أَفرادِ الشرطة المحلية يقف على مبعدةٍ من مسرح الجريمة، بينما لم يصل فريق الطب الشرعي، كانَ القتيلُ مُستلقيًا على ظهرهِ بينما تقاطعت عدة جروح في النصف العلوي الظاهر منَ الوجهِ أَمامَ عين الغزواني.

-هل أنتما متيقنان؟

أجابها نصر الدين وهو يمسحُ جبينه بكم قميصهِ:

- نعم إنهُ الشخص الذي نبحث عنه.. الجثةُ لحمادِي الوحيشي.

-لماذا تقفِينَ هناكَ؟ اقتربي.

صرحَ الغزواني بعد أَنْ حذت حذوه:

- إِنهُ مسرحُ الجريمةِ

سحب من جيبهِ فردة القفاز المطاطي الأَزرق:

- ولكنه لا يزال موقعًا ممتلئًا بالأدلة الجنائية.

قلب عينيهِ في الجثةِ، لو كانَ بإمكانهِ أَن يقلبها بين يديه لفعلَ.. تفحصَ الجروحَ على ظهرهِ:

- أَظنُ أَنهُ قُتلَ بنفسِ سلاحِ مقتلِ عادل.

عرفت شوق من نبرة صوته الواثقة وشحوب وجهه أَنهُ لم يكن يمزح أَبدًا

-لننتظر.. الخبراء فقط من يمكنهم الجزم بذلكَ.. أَلم يتم العثورُ على سلاحِ الجريمةِ؟.

-لا

أَجابَ عماد القادمِ من ورائهما، ثمَ أَضافَ:

- كما لم يسرق شيء منه، محفظته كانت بجيبه، ورزمة نقود، القاتل لم يكن مُستعجلًا، لم يكن سارقًا.

-أَنا فضوليةٌ جدًا لسببِ القتل.

تمتمتْ شوق، وقدْ وجهتْ أَنظارها لنصر الدين الذي فضلَ البقاءَ بعيدًا عن مسرحِ الجريمةِ.

رفعَ الغزواني رأسهُ للأَعلى وتنفسَ بقوةٍ:

- كما أَننا في نفسِ مسرحِ الجريمةِ القديم.. بالضبط.

بقيت الشرطية شوق خلفهُ، بينما تقدم الغزواني خطوة وانحنى فوق الجثةِ ليأخذ نظرةً أَقرب، كان من الواضح أَنهُ قُتلَ هُنا، استنتاجٌ أَولي معقول أَمام كثرةِ آثار تناثرِ الدمِ في كلِ مكانٍ حولها، من الواضح أَنه طعنَ بعدةِ طعناتٍ في الظهرِ مُباشرةً، جَرحُ الاختراقِ واضحٌ من تحتِ قميصهِ.. بلطفٍ سحبَ الشيء البارزَ من تحتِ سرواله كان وصلَ شراءٍ يعودُ لتاريخِ البارحةِ.

بدا عمادْ مُتعجبًا:

- يبدو أَن الفريقَ الذي سيستلمُ هذهِ القضية لم ينتبه للوصلِ!.

وضع الغزواني الورقةَ في كيس سلمتهُ إِياهُ شوق، وظل يتتبعُ بعينيه أثار كعب الحذاء المطبوعَة على التُّرابِ، كانت المسافة بين الخطواتِ بعيدةً وفوضوية، بالتأكيد أَنَ أَحدًا ما كان قريبًا من الجثة وهرع هاربًا

-نحنُ من سنستلمُ قضيةَ مقتلِ حمادِي الوحيشي.

بدا عماد مرتبكًا:

- م.. ماذَا؟ لقدْ سمحوا لنَا بتفحصِ الجثةِ فقط، كثر خيرهم.. هذا ليسَ من صلاحياتِنا.. أَليسَ كذلكَ شوق؟ هذا منْ صلاحياتِ الشرطةِ المحليةِ فقط.. لا يُمكنكَ تجاوزُ..

استقامَ الغزوانِي.. شعر بركبتيه تهتزان، ابتلعَ ريقه:

- سأَتحدثُ مع رئيسِ الوحدةِ.. هذهِ الجريمةُ مرتبطةٌ بقضيتنَا.

هنا وجدَ جثة عادل قبل ربع قرن، عندما استلم قضيةَ مقتلهِ عزى نفسه أَنهُ على الأَقلِ لن يكون مضطرًا لرؤية هذَا المكانِ مرةً أُخرى؛ لكن هاهو هنا،

فقط المكان أَصبحَ أَكثرَ بؤسًا.. لكن غيرَ ذلك لا شيء تغيرَ حتى الرائحة التي عششت في أَنفهِ لسنواتٍ قد أَضحتْ أَقوى.. رائحة صديد ودم.

سأَلت شوق:

- أينَ وضعت أَغراضهُ؟

أَشارَ نصر الدين لسلة من سعفِ النخيلِ يحملها أَحدُ أَعوانِ الشرطةِ:

-كانت حافظةُ الأَوراقِ لا تزال في جيبه عندما قتلَ، لا يبدو أَنَ القاتل كان مهتمًا بسرقته.

تفقدتْ المُحققَةُ ما وجدتهُ بها، ساعة، حافظةَ أَوراقٍ سوداءَ بها كلُ وثائقهِ، الكثيرُ منَ النقود وبطاقة بنكية جديدة.. بقايا حباتِ فستق ومفتاح منزلٍ، سحبَتْ بطاقة هويتهِ كان في بداية الخمسينَ من عمرهِ من مواليد المتلوي.

***

كانَ المنزلُ عبارةً عن أستوديو واسع يكفي ليَحتوي على سرير مُتوسط الحجم وحمام ومطبخ مُلحق بما يشبه قاعة جلوس صغيرةٍ، مُقابل تلفاز مثبت بالحائطِ، كانً من الوًاضح أًنَ الأًثاث استُأجرَ معً الغرفةِ.

بالنسبةِ لشوق كانتْ الغرفةُ مثيرةٍ للريبةِ والغثيانِ، القذارةُ تصلُ للجدرانِ، كتلٌ سوداءُ تغطي بعضَ أَجزاءِ السقف ذي الطِلاءِ المُتقشرِ، رفٌ كاملٌ من زجاجات الخُمورِ الفارغة بعضها محلي وعددٌ منها مستورد.. منَ النوعِ الغالي.. شعرتْ بعدمِ الارتياح «رائحة عفنة».

ثَبتَ الغزواني القفازاتِ المطاطيةِ على يديهِ ورفعَ صحنًا يبدو أَن الوحيشي استعملهُ لإطفاءِ سجائرهِ، لم يقع سكبهُ رغم امتلائه بالكامل، التقطَ نصر الدين بعضَ الصورِ في الحالِ لمحتوياتِ الغرفةِ: السريرُ الفوضوي، الأَغراضُ

الكثيرةُ على الطاولةُ ذات الملاءة المتسخةِ، الرفُ الممتليء، أَعادَ المنفضة المزيفة إِلى مكانها وقال بنبرةٍ باردةٍ:

- هناك نوعين من السجائر.. يجب أَن نعرف صاحبَ النوعِ الثاني.. يجب رفع البصمات وتحديد الحمض النووي.

أَلقتْ شوق نظرةً فاحصة على ملابسه، سحبتْ أَحد القمصانِ وتشممته:

-إِنه يستخدم كريستالاً خفيفًا، ماهوَ النوعُ الثاني من السجائرِ في الطبقِ؟

-مالبورو[1].

أَجابَ نصر الدين، ثمَ أَلقى نظرةً على محتوياتِ سلةِ القُمامةِ وقالَ:

-رُبما يجبُ أَن نستعيرها.

دلف في هذه الأَثناءِ عماد الغرفةَ وهوَ يلهثُ:

- لقدْ استجوبتُ الجيران.. نفوا رؤيتهم لأي سلوكٍ غريب للضحيةِ.. قالوا أَنهُ يرجعُ كلَ ليلةٍ متأخرًا.. ولم يُشاهدوهُ معَ أَي أَحدٍ لا رجلٍ أَو امرأة منذُ استئجاره للمَكانِ.. هل توصلتم لشيءٍ ما؟

انسالتْ بعضُ قطراتِ العرقِ على جبينهِ ورقبتهِ ليمسحها قبل أَن تصلَ لعينيهِ.

ضيقتْ شوق عينيهَا وهيَ تستجلي تعبيراتِ رئيس فريقها، كانَ يمكنها رؤيةِ علاماتِ الغضبِ وخيبةِ الأَملِ على وجههِ من تحَتِ ضوءِ المصباحِ:

-عماد.. فليظل فرد الأَمنِ ملازمًا للغرفةِ حتى آمر بغيرِ ذلك.. وليَدون اسمَ وعنوانَ كلُ شخصٍ يسأَلُ عن الضحيةِ.

انتحى عماد جانبًا مفسحًا المجالَ لخروج الغزواني.

***

---

(١)أَنواع مشهور من السجائر في تونس.

«..لننقل هذا الخبرِ ثمَ نعودُ لمواصلةِ النقاشِ في موضوعِنا الرئيسي لهذهِ الأُمسيةِ.. خبرٌ لا يقل أَهميةً وهو تحديدُ تاريخ مَناظرةِ انتدابِ عمالِ للعملِ في المجمعِ الكيمياوي التابعِ للشركةِ المُتوسطيةِ، يبدو أَن المديرَ التنفيذي الشَاب سالم قَدْ صدقَ في قولهَ.. والآن لنواصل مع ضيفنَا ولنقول بصراحةٍ.. السكانُ خائفون».

استأنفَ مقدمُ البرنامجِ الإِذاعي مكالمتهُ مع المفتشِ السابقِ

«جريمة مشابهة لما حدث في الثمانينات: نفس المكان، نفس الوضعية وطريقةِ القتلِ، جريمة المنجم ٢ كما أُطلقُ عليها، يمكنُ أَن تعيدَ للأذهان جريمة وظرفَية صعبة الكلُ يعملُ هنا على نسيانها.. هل نحنُ إِزاء مقلدٍ بما أَنه لم يعرف أَبدًا القاتل؟»

أَطفأ الغزواني مذياعَ السيارة التي انطلقتْ.

كانَ هذَا نوعًا ما صحيح.. القاتل في مكان ما هنا، بين حجارة المظيلةِ وليسَ لهم أَي فكرة عنهُ.

التفتَ إِلى عماد وسأَلَ:

- إِلام توصلتم في تحقيقاتكم حول غرفتهِ المُؤجرة ولماذا كان بالمظيلة؟

أَجابَ عماد وهوَ ينفثُ دخانَ سيجارتهِ:

- أَجرَ الغرفة منذ ُ ثلاثةِ أَشهر، لا أَظن أَنه المكانُ المُناسب للبحثِ عن عملٍ.. يبدو أَنهُ كانَ مفلسًا.

ضٍحكَ الغزواني:

- مفلس لكنه يأكلُ جيدًا.. أَكلًا جاهزًا.. يشربُ مشروبات غالية تَفوق ميزانيته الضعيفة، كيف يصرف؟ ومنْ أَينَ يصرف؟ منْ كانَ يلتقِي؟ نصر

الدين التقي بشوق في المظيلةِ واستعلموا على آخر مكان كان فيه قبل اختفائه، لا يمكنُ أَن يكون قد طارَ وقتلَ.. ابدؤوا.. من المغازةِ التي يعودُ إِليها وصلُ الشراءِ.. سأَتصلُ بمحسنُ ليتحققَ منَ المصادرِ الماليةِ للقتيلِ.

***

تحصلَ نصر الدِين من صاحبِ المغازةِ على نسخةٍ من كاميرا المُراقبةِ التي تتصدرُ المكانَ، دسَّ وحدة الذاكرَة في المكانِ المخصص لها في الحاسوبِ بينما قفزَ كل من عماد وشوق بجانبِهِ والغزواني الذي بدأ باستجلاءِ ما صورتهُ الكاميرا.

راقبَ الجميعُ تحركاتَ الوحيشي التي كانت واضحة ولم تأخذ أَكثر من ربعِ ساعةٍ، فقدْ توجهَ إِلى رفِّ الخمورِ ثم رفِ الأَجبانِ واللحوم قبلَ أَن يُغادرَ منَ البابِ الوحيدِ للمغازة خلالَ الساعةِ السادسة والنصفَ مساءً.. تمعنَ الغزواني في آخر لقطةٍ قبلَ أَن يضغط على زرِّ الوقوفِ وسأَلَ:

-أَلَيسَ حيهُ على اليمينِ من المغازةِ؟ لماذا توجهَ يسارًا؟ إِلى أَينَ يَصلُ بنَا الطريقِ الأَيسرُ يا عماد؟

أَجابَ عمادْ مستذكرًا خريطةِ آخر طرفٍ في المدينةِ:

– هناكَ مدرسة، ملعب كرةِ قدم، مصنع صغيرة للنسيج ومستودع مقفل كان مخصصًا لتربية الأَسماك في آخرَ الطريق.. إِنها منطقة صناعية لا يوجدُ الكثيرُ من المنازلِ.. ثمَ لا شيء الطريقِ يمكنُ أَنَ توصلنَا للمنسية أُو المتلوي.

أَضافَ نصر الدين:

– أَكدتْ العاملةُ في المغازةِ أَنَ هناكَ رجلًا كانَ ينتظرهُ أَمامَ البابِ الخارجي، لمحتهُ بعدَ أَن نسيَ أَخذَ وصلِ الاستلامِ الذي أَعادتهُ إِليهِ.. للأَسفِ الأَوصافُ

التي أَخبرتنا بها تتفقُ مع نصفِ سُكانِ المظيلة: أَسمر في الخمسينات، شعرٌ قصير، بدونِ لحيةٍ، مهندم الثيابِ.

أَعادَ الغزواني مُشاهدةُ مقطعِ الفيديو:

- يجب أَن نتوصل لمعرفته.. الشخص الذي كان على لقاء معه هو رُبما يعرفُ شيئًا أَو مُتورطًا في الأَمرِ.

أَضافتْ شوق:

- حسبَ الفيديو لقدْ اشترى القتيلُ قطعة من الجبنِ الفرنسي، بعضَ الطعامِ المعلبِ وقارورتين كبيرتين من الخمر المستورد.. لم نَجدهما في غرفتهِ.. هذَا الَصنف ذو الزجاجِ الأخضرِ ليسَ من ضمنِ كوكتيل الزجاجات على الرفوف.. كما لا أَذكرُ أَنني لمحتُ أَي جبنٍ البارحةَ.

رفعَ عمادُ كلا كتفيهِ مُتبرمًا:

- أَكدَ صاحبُ الغرفةِ أَنهُ لم يعد إلا مساءً ما يُناسبُ زمنَ خروجهِ منَ المغازةِ بنصفِ ساعةٍ، غيرَ ملابسهُ وخَرجَ دونَ أَن يحملَ أَي شيءٍ لا عندَ دخولهِ أَو خروجهِ... وهذَا ما يُؤكدُ فرضيةَ أَنهُ شربَ في مكانٍ آخرَ، مكانٌ تركَ فيهِ الزجاجاتَ مع شخصٍ يثقُ بهِ وإِن كانَ الجيرانُ ينفونَ تواصلهُ معَ أَيِ أَحدٍ.

-شوق، عودِي إِلى المغازةِ واسألِي العاملةَ مرةً أُخرى، حتى بقيةَ العمالِ.. وابحثِي في المنطقةِ عن كاميرًا يُمكنُ أَن تكونَ قدْ التقطتْ شيئًا.. هل توصلتْ الشرطةُ الفنيةُ للحمضِ النووي في السجائر الملبورو؟.

ردَ نصر الدين وهو يكادُ يُعانقُ المروحةَ:

- الشرطة الفنية تعمل على ذلكَ.. وقبلَ أَن تسألِني قالَ محسن أَنهُ يعملُ

على المُعاملات الماليةِ والهاتفيةِ للضحيةِ وسيُعلمكَ بها وجدَ قريبًا.

استقلَ الغزواني سيارتهُ مُتوجهًا مُباشرةً لمدينة سوسة.. دعى أَن تكونَ ساعاتُ القيادةِ غيرُ ثقيلةٍ خاصةً مع هذا الحرِ والقلقِ.

***

-أَخبرني بما أُريدُ سماعه.

التفتَ آدم للخلفِ على وقعِ صوتِ الغزواني المُفاجئ، وقدْ أَوقعَ منْ يدِه منديلًا كانَ يحملهُ:

- لقد أفزعتني يا رجل!

هذه المرة وجه الطبيب المخضرم ما كان شاحبًا.

كان الغزواني واقفًا أَمامَ الباب المفتوح، وقدْ وَضع يديه على خصره وَرفع كم قميصهِ لزنده، بينهما مسافة طويلة وجثة في غرفة شبه فارغةٍ منْ مشرحةِ مستشفى قابس:

- هل ظلت الضحية تتنفسُ لدقائق قبل موتها، هل أَصابت الضربات الكتف والظهرَ؟.

كانت نظرات المُحقق المُتلهفةِ شاخصةً في الجثة المُستلقية ببرودتها على الطاولةِ الحديدية، أَومأ الأَخيرُ موافقًا وهو يلتقطُ المنديلَ:

- نعم.. لكنكَ تبدو أَكثرَ شحوبًا من الميت الراقد هُنا.. اهدأ وانفض عنكَ غُبارَ الطريقِ.

تقدم آدم الذي كان بمنتصفِ العمر، يرتدي نعلًا أَبيض مريحًا للقدمين، وهو يستشعر نظرة الاهتمام التي يرمقه بها المحقق من خلفه، سحب الملاءَة البيضاء عن الجثة إِلى حدِ السرةِ ليظهرَ الصدرُ والوجهُ والكتفينِ.

دهن الغزواني أَسفلَ أَنفهِ واقتربَ.

-يمكن أَنْ أُقدرَ عمر الضحية بحوالي نهاية الأَربعينات إلى منتصف الخمسينات، زمنُ الوفاةِ المُقدر هوَ ما بينَ منتصفِ الليلِ والرابعَة صباحًا.. آثارُ القَطْع والجروح ظاهرة على الظهر والكتفين والساعدين حتى.. الغريب أَنهُ لا توجدُ جُروحٌ دفاعيةٌ وإن كانَ هناك مُحَاولة حماية الوجه باستعمال الساعدِ الأَيمنِ كما تشاهد لكن لَا جروح رئيسيةٍ بخلافِ ما لاحظتهُ بنفسكَ في مسرحِ الجريمةِ.

رمش آدم عدة مرات قبلَ أَن يغطي أَنفهُ وفَمهُ بقناع طبي:

- من الواضح أَنَ الجثة لم تُحَرك من مكانها، لكنٍ يبدو أَنَ صاحبها قد بدأ يزحف لعدة أمتار قبل وفاته.. هذَا واضحٌ جدًا حسب الصور المُلتقطة من مسرح الجريمةِ.. ويبدو أَنكَ فطنتَ لذلكَ.. ولكيْ أَكونَ صادقًا الشرطةُ الفنية والعَلمية التي استقدِمَت هي من استنتَجَت الأَمرَ.

سكتَ قليلًا وواصلَ كلامهُ بعدَ أَن لم يجدْ ردًا من الغزوانيِ الذِي أَبَقى بصره ثابتًا:

- من الواضح أَيضًا أَنَ القاتلَ كان في وضعية وقوف عندما سدد طعناته.. تتبعنا أَثرَ الزحف على التراب، لم يتطلب الأَمر إلا دقائق قليلة ليموت.. انظر إلى آثار الطعنات على ظهرهِ الأَيمنِ وكتفه.. ارتدِ قفازاتٍ وساعدني في قلبهِ.

بدتْ الآثارُ التي تغطي أَعلى ظهرهُ في عيني الغزواني بعدَ غسلِ الجثةِ وكأنها مجرد جروح لا تقتلُ

-تشير الجروح الثلاثة أَنَ القاتلِ لم يكن مُترددا أَبدًا.. كانَ ثابتًا ويعي بالضبط أَينَ يضربُ.. أَليْسَ هذَا ما أَردتَ سماعهُ؟

لم يعرف الغزواني أَمامَ صدمتهِ وَمشاعره المتقلبة ما عليه أَن يقول

-إنهُ قاتلٌ يُقلدُ أُسلوبَ قتلِ عادل بالضبط!

أَخَيرًا تكلم، وقدْ أَعادَ الجثةَ إلى وضعها السابقِ.

بعد لحظات من الصمت سألَ:

- السلاح؟

نزعَ آدم القفازات عن يديهِ وأَجابَ:

- حادٌ لكنه ليس بسكين بالتأكيد؛ فالآثار لا تناسب ذلك، لابد أَن يكون سلاحًا ذا نصلٍ عريضٍ غير مُسننٍ.. أَداة صلبة، ثقيلة على الأَغلبِ.

-هل هو نفسُ سلاحِ الجريمةِ القديمة؟

-مبدئيًا، ليس من الواضح نوع السلاح المُستخدم؛ لكن وانتبه لهذه الكلمة، يمكن أَن أُخمنَ بأَنهُ نفس نوعية السلاح في الجريمة القديمة.. طولُ الجروحِ وعمقها شبهُ مُتطابقٍ.

ابتسم الغزواني بمرارةٍ ثمَ أَشارَ لكدماتِ وجروحِ الوجهِ:

- أَقبلَ الموتِ أَو بعدهُ؟

-آه.. هناك عدة جروح خفيفة تتجاوزُ الخمسة، ثلاثة في الوجهِ واثنتين في الصدر الأَيمن، رُبما استعمل حزامًا أَو سوطًا.. هذهِ الجروح ليست قاتلةً.. منَ الواضح أَنَ القاتلَ كانَ يستهدِفُ الظهرَ والكتفينِ بالأخص لذلكَ لم يكنْ دقيقًا ولا مُراعيًا عندَ ضربهِ على وجهه وكلها كانتْ قبلَ الموتِ.

-هل خرج تقرير السموم؟

-يجبُ أَن تتواصلَ مع الفريق الفني من أَجلِ هذا

كان من الواضح أن الغزواني كان مصدومًا، وأَنَه تصرف بطريقة باردة لا عاطفة بها:

- هل هناك دلائل على أَنهُ كان مُقيدًا؟

-لا ليس كذلك.. تذكرت، العيناتِ التي حصدتْ من ملابسهِ إنها رمل.

-هذا أَمرٌ عادي في المنسيةِ.

-رملٌ اصطناعِي مخصصُ لفرش أَحواضِ تربية الأَسماكِ.. لا وجودَ لهُ في مسرح الجريمةِ طبعًا.

-تربية الأَسماك.. أَظنُ أَنني أَعرفُ المكانَ الذي احتجزَ به القتيلُ.

***

كان الجو لا يزال كئيبًا، لكن هذا لم يمنع والدة الأَرملةِ من التحلي باللياقة اللازمة لسؤالهما عما يشربانه:

- ماء بارد من فضلك.

أنهت شوق إجابتها بتعاطفٍ واضح موجهة نظراتها نحو زوجةِ المرحومِ الخمسينية، كانواَ يجلسون في وسط الصالة بعد أَنْ طلب الغزواني بعضَ الخصوصية، بينَما حافظ المعزون على حضورهم الشفاف خارج الباب.

كانت زوجته صغيرة، ربما تصغره بأَكثرِ منْ خمس سنواتٍ، ذات ملامح رقيقة وصوت مُرهف، غرفة الجلوس التي أَدخلتْ الغزواني إليها كانت جديدة حسنة التأثيثً في منطقة شعبية من أَحواز المتلوي.. ظَلتْ شوق لدقائق تنتظر عودتها للكلام، كفكفت دموعها

-تعلمين لا بد لنا من طرح الأسئلةِ.. هل حدث له شيءٌ غير طبيعي؟هل حدثكِ عن صديق قديم يريد لقاءه هناكَ؟

-صديق؟ لا أَظن.. لماذا يُقابلهُ في مكانٍ موحشٍ حارٍ كهذَا؟

-هل تعني لك الشركةُ المُتوسطيةُ للفوسفات شيئًا؟

-لا.. أَقصدُ أَنني أَسمعُ بها فقط.. لماذا؟

-جثةُ المرحوم وجدت على أَرض تابعة للمنجم القديم.. هل تعلمين شيئًا عن علاقته بأشخاص من هنا قبل خمسٍ وعشرين عامًا؟ مَن كان يصاحب؟ هل كانَ له معارف يعملونَ بالمنجم أَو الشركةِ؟

-لا أَذكرُ.. أَقصدْ كلُ معارفهِ منَ المتلوي أَو صفاقس، عملهُ في المنجمِ لم يدم طويلًا.

دفعَ أَمامها صورةً:

- هل تتعرفينَ على هذَا الشخص؟

دققتْ في صورةِ هلالْ التي أَخذها من مسئول الشؤونِ البشريةِ في الشركةِ

- لا، لا أَعتقد.

-سيدتي، هل كنت مدركة أَنَ زوجك كان مدمنًا على الخمرِ؟

-هَذا صحيح، لقد كان يعدني دائمًا بأَن يمتنع عن ذلك، في كل مرة كنت أَصدقهُ.. كانَ هذَا من بينِ أَسبابِ طلبي الطلاقَ.. كانَ مختلفًا في السنواتِ الزواج الأُولى.

طفقتْ الزوجةُ تروي على مسامعهما تفاصيلَ لقائهما في المتلوي عندما كانتْ طباخةً مبتدئةً في أَحدِ فنادها الصغيرةِ، أَكدتْ على أَنها لم تزر المظيلةَ أَو المنسيةِ إلا بعضَ المراتِ للتسوقِ في مناسباتٍ مُعينة.

-هل يمكنك التفكير بأَي شخص أَرادَ منه السوءَ؟

أَجابت بوجهٍ ملطخٍ بالدموع:

- لا أَعلم.. رُبما الدائنونَ.. للأسف يا سيدي موته سيسعد الكثير، وظننته سيسعدني.. كان عنيفًا سكيرًا فظيعًا!.

استقامت شوق:

- عُذرًا

توجهت للجدارِ الرئيسي وهي تُحدقُ بصورِ العائلةِ:

- يبدو أنَكِ مغرمةٌ بالصورِ.. منزلك مثيرٌ للإعجاب!.

أَومأت السيدةُ (سهام) وهيَ تُمخطُ أَنفها:

- نعم.. أُحبُ الصورَ القَديمةَ.. لقدْ اشتريتهُ مما ورثتهُ عن أَبي بعدَ وفاتهِ.

صورٌ كثيرةٌ بإطارٍ جميلٍ مزخرفٍ بعضها كانَ بالأَبيضِ والأَسودِ، تعرفتْ على السيدة سهام وهيَ أَصغرُ سنًا، قربَ البحرِ يبدو أَنها كانت في العشريناتِ، جذبتها صورٌ أَقدم لمجموعةٍ من الأَشخاصِ المُبتسمينَ كانت هيَ بينهم بخصرٍ نحيلٍ وحمرةٍ شفاهٍ ورديةٍ ملحوظةٍ.

كانوا بصددِ الاحتفالِ بمُناسبةٍ ما، يرتدونَ زيًا موحدًا أَبيض.. طاقم الطبخ.. خفضت شوق رأسها وضيقت عينيها وهي تدققُ في تاريخ التقاطِ الصورِ المدوَنِ أَسفلها بلونٍ أسود رقيق.. ميزتْ تاريخ السنة والشهر وإن لم تقدر على تمييز اليومِ الذي كان يغطيه الإطار.. ولكن بالتأكيد الصور التقطتَ بالمظيلةِ.

***

أَعدَ نصر الدينِ ركوةً كبيرة من القهوةِ كافيةً لدسةٍ منَ الأَشخاص مُتجاهلًا الاتصالَ الخامسَ من خطيبتهِ لهذا اليوم، أَفرغَ المحتوى في فناجينَ ابتاعتها شوق منَ السوقِ المحليةِ، وضعها علىَ طبقٍ على طاولةِ الغزواني الذي أَشارَ بازدراءٍ إلى بقايا عشاءِ الأَمسِ على مكتبٍ مرؤوسه:

- إننا بالفِعلِ في المنسيةِ حيث الذبابُ والحشرات أَكثرُ من البشر، كيف تترك بقايا الطعامَ على المكتب؟

لم تستطع شوق منعَ نفسها منَ الابتسامِ عندما لمحتْ شاشة هاتفهِ المُضيئةَ:

-خطيبتُكَ مرةً أُخرى؟!

تنهدَ وهو يضعُ قطعةَ سكرٍ إضافيةٍ بفنجانهِ:

- نعم.. لماذا تريد أَن تطَّلع الفتاة على تحركات رجلها دائمًا؟ لا تصدق أَننِي مشغولٌ.. إنِها كثيرةُ الشكِ!.

-أَو أَنها فقط طريقتُها في إبرازِ اهتمامها واشتِياقها لكَ.. نصيحةٌ مني كلمها بينَ الحينِ والآخر وإلا اعتُبرت في مرتبةِ الخائنِ!

لم يستطع منعَ نفسهِ من الابتسامِ هو الآخرُ أَمام مُلاحظتها، معَ استرجاعهِ ليلةٍ عجائبيةٍ اقتحمت فيهِ خطيبتهُ منزلَ صديقهِ وهوَ ضيفهُ فقط لأَنها ظنت أَنه يخفي صاحبتهُ في إحدى غرفهِ!.

-هناكَ علبة بسكويت مملح في درج مكتبي يا نصر الدِين.

كانت واقفةً أَمامَ لوحتي الكتابةِ، على الجهة العُليا من اللوحِ الأَولِ ثَبتتْ شوق بالدبَابيس صور الجريمة القديمَة وقد عنونتها بتاريخَ ١٩٨٨ بينما ثبتتْ الصور مقتل الوحيشي بالأسفلِ ودونتْ بقلم أَحمرٍ تاريخ ٢٠١٣.

على اللوح الثاني كتبتْ باللونِ الأَحمر تفاصيلَ الجريمة الأُولى، مواقع الإصابات، الجروح، وباللون الأَزرق التفاصيل الأَولية للجريمة الثانية تراجعت خطوتين للوراء وأَخذت تُقارن بينهما.

وضع الغزواني القرص الفوار في كأس الماء، في أَثناءِ انتظاره غرق رأسه بين يديهِ كانَ الصداعُ سيذهبُ بعقلهِ، رفعهُ ببطء وهوَ يُراقبُ شوق.. كانتْ

مجتهدة، متحمسة.. ابتلعَ الممزوجَ المُرِ واندفعَ نحوَ شوقٍ -نصر الدين، تعال هُنا وأَحضر فنجانَ قهوتِي.

***

-ماهوَ القاسمُ المُشتركُ بين الجريمتين؟

سأَلَ وهو يترشفُ القهوةَ.

أَجابتْ شوق:

- تم استعمال نفس سلاح القتلِ على الأَقلِ نفسَ النوعِ، نفسُ مسرحِ الجريمةِ، لكنْ ليسَ نفسُ وضَعيةِ استلقاءِ القتيلَينِ: الأَولُ كانَ على الظهرِ بينما الثاني كان مستلقيًا على صدرهِ.

شوق مخطئة، ذكرت الجرائد في تلك الفترة أَنَ الطفلَ القتيلَ وجد على ظهره لأَنَ هكذا عثرت عليه الشرطةُ، لكن عادل في الحقيقة كان مُستلقِيًا على بطنِه لا يعرف أَحدٌ هذه الجزئية إلا من وجد الجثة، هوَ وسالم وعلياءَ، تفصيلةٌ أَحجمَ الأَطفالُ عن ذكرها آنذاكَ. لذلكَ إما أَن القاتلَ لا يُقلدُ الجريمة القديمةَ أَو أَنهُ يعلمُ علمَ اليقينِ أَنَ جسمَ عادل كانَ على بطنِهِ وليسَ ظهرِهِ.

-هل نتعامل مع المجرم نفسه إذن؟

تمتمَ نصر الدين وهو ينتظرُ إجابةَ الغزواني.

-أَيُ مجرم هذَا؟ يُعيدُ تفاصيلَ جريمتهِ الأُولى بحذافيرها في جريمة ثانيةٍ يرتكبها بعد ربعِ قرنٍ في وقتِ فتحِ تحقيقٍ جديدٍ عن جريمتهِ الأُولى؟ هل هذَا أَحمق؟ مغتر؟ مجنونٍ؟!

فكرَ.. الطعنات لم تكن عشوائية، بل دقيقة لتحاكي الجريمة القديمةَ لكن ضربات الوجه والصدرِ كانت كذلك تنم عن الغضبِ الذي يسبقُ القتلَ..

-لم نقل أَنهُ نفس المُجرمِ.. لا تكتب رواية يا نصر الدين!.

حدق نصر الدين في صورة الرجلِ الذِي كانَ حيًا منذ بضعةِ أَيام

-المكان، طريقة القتل، السلاح، كل شيء يؤكدُ أَنَ الجريمتين مُترابطتانِ!.

-هذَا لا يكفي

تمتمَ الغزواني

تراجعَ خطوة للوراءِ

-لماذا هنا؟

-ربما مُجردُ صدفة.

-لا.. لقد اختار المكان بعنايةٍ كبيرة وإِلا كان قدْ تخلصَ منَ الوحيشي في أَي مكانٍ.

-يقصدك؟ أَو يقصدُ قضيتكَ؟ الكلُ يعلمُ بسببِ وجودكَ في البلدةِ، ويعلمُ أَين وجدتْ جثةُ الطفلِ سابقًا.

نزعَ أَحدَ الدبابيسِ والتَقطَ صورةً مقربة من موقعِ الجريمةِ

-لكنْ هناك الجديد.. آثارُ أَقدام المجرم.

كانت آثار أَقدام القاتل على الأَرجح مطبوعةً بالتراب الجاف.. آثارُ متقاربة المسافة، لقد كان يمشي، بل لقد كان واقفًا ربما لمدة كافية لرؤية نتيجة عمله.. هل كان يراقب؟ يتشفى؟ لم يكن في عجلةٍ من أَمرهِ.

حسب تشريح الجثة يبدو أَنَ حمادي ظلَ حيًا لخمس دقائق على الأَقل قبلَ موتهِ.. لم يفهم إِن كانَ القاتلُ قصدَ ذلكَ أَم أَنَ الأَمرَ مُجردُ صدفةٍ؟ صَدفة الجريمة القديمةِ، ما قتلَ عادل هوَ النزيفُ الحادُ.. هل يتعاملُ مع مقلد لكنْ كيفَ لمقلدٍ أَن يعرفَ هذهِ المعلوماتِ التي توصلَ إِليها فريقهُ؟ هل هُناكَ مُخبر

بينهم؟ وإن كانتْ هذهِ مجرد صدفةٍ لماذا لم يتحرك إذْ أَنَ عدة دقائق كانت كافيةً ليفعَلَ شيئًا؟ ثمَ لَماذا لم يصرخْ؟ لماذا لم يُقاوم؟

***

-لأَنَ جسمهُ كانَ مُخدرًا بفعلِ مرخي العضلاتِ

وضحَ آدم الأَمرَ وهو يُسلم تقريرَ السمومِ للغزواني الذي بدأ بقراءتهِ.. هذهِ النقطةُ تجيبُ على سؤالهِ الآن.

لم يستطع حمادِي المقاومة بسبب المخدر، لا وجودَ لجروح دفاعية مهمة على جسده. كل احتكاك يترك أَثرًا كما يقالُ.. هذا ما تعلمهُ آدم كما تعلمهُ المحققونَ أَيضًا.. الموتَى يتركون أَدلةً لا يراها إلا الطب الجنائي والخبراء الفنيين، هي أَفعالهم وما فُعِل بهم قبل موتهم.. والصديقُ الراقدُ في إحدى ثلاجاتِ غرفةِ الأَمواتِ هُنا فعل بنفسه الكَثيرَ. هذا ما حاولَ آدم إِخبارهُ للغزواني

– مات وبطنه ممتلئة بالطعام والخمور والقليل من المخدرِ.

-تناولَ مخدرًا؟

-لا، بل حقن على الأَرجح به، كان في دمه وليس معدتهِ.

-منْ أَيِ نوعٍ؟

-إنهُ من النوعِ الذي لا يفقدُ الوعيَ.. إنهُ بروميد البانكورونيوم[١] يرخي العضلات ويحدثُ قصورًا في الجهاز التنفسي والعضلي لكنهُ لا يُفقدُ الوعيَ.

سكتَ للحظات ليمنح الوقت ليستوعب كلماتهِ.

(١)دواء يستعمل كمرخي عضلات كما يستعمل في عمليات الاعدام.

-أَليسَ له تأثيرُ المخدر العادي الذي يُستخدم في الجراحة مثلًا؟

-لا.. كما أَنَ القاتلَ يدرك جيدًا أَنَ جرعة أَكبرَ من المخدر يمكن أَن تقتل مباشرة وأَنَ جرعة أَقلَ يُمكن أَن لا تحقق مَفعولها اللازم، ومن الواضح أَنَ المخدر نُقل عبر الدم وهذا ما أَكدهُ خبيرُ السمومِ.

فكرَ الغزوانِي للحظاتٍ ثم قالَ:

-ييسر التعامل مع الضحيةَ إن قاومت.. إذنْ يجب أَنْ نحصر نطاق المشتبهين فيمن يمكن أَن يكون لهم علاقة بصنع المخدرِ: أَطباء تخديرٍ، أَطباء سابقين، اللعنة حتى الصيادلة والأَطباء البيطريونَ!.

***

لخصَ الغزواني لنصر الدين ما كشفهُ الطبيبَ الشرعِي بسرعةٍ، كانَ يستعجلُ العودةِ إِلى منزلِ والدتهِ ليستحمَ قبلَ العودةِ للتحقيقِ وحصدِ آخر المعلوماتِ مساءَ اليوم، كانتْ غرفةُ التحقيقاتِ فارغةً بدونِ جلبةِ عماد وحركةِ شوق التِي توجهت لمحطة سياراتِ النقلِ الجماعي لتتحصلَ على شيء أَرسلتهُ والدتُها لها، شيء لم توضحهُ بأَيِ حالٍ من الأَحوالِ.

هز مُعاونهُ رأسهُ وزمَ شفتيهِ في عدمٍ فهمٍ:

-لو كنتُ أُريدُ تخديرَ شخصٍ ثمَ قتلهِ لاستعملتُ مخدر الكلوروفورم[1].. إِنهُ سريع المفعولِ ويفي بالغرضِ.

دسَ الغزوانِي بعَضَ ملابسهِ المُتسخةِ في حقيبتهِ وهوَ يوَضحُ:

- إنهُ لا يفي بغرضهِ.. لأَنَ القاتلَ لا يريدُهُ فاقدًا للوعي يريدهُ أَن يعي موته البَطيءَ.

(١) مركب كيماوي له تأثير تخديري.

بدا الاستغرابُ أَكثرَ على وجهِ نصر الدِين:

- ولماذا بحقِ الله يُريدُ ذلكَ؟

-أَتذكر.. حسبَ استنتاجاتِ آدم حولَ تقرير الجريمةِ الأُولى وتحليله لصورِ الجريمة استنتَجَ أَن عادل الصغير ماتَ بعدَ دقائق من طعنهِ، زحفَ لمترينِ قبلَ موتهِ.. القاتلُ في الجريمةِ الجديدةِ يُعيدُ هذهِ النقطةِ. تبادلا النظرَات بينهما قبلَ أَن يصرخ نصر الدِين:

- اللعنة، هذهِ مصيبة.. كيفَ عرفَ القاتلُ هذهِ التفاصيل؟!

رمى الغزواني الحقيبةَ وراءَ ظهرهِ:

-لأَنَ هناك مُخبرٌ بيننا!!.

***

١٩٨٨

لا تذكرُ علياء شكل دارهم القديمةِ.

كل ذكرياتِهَا نبتتْ وترعرتْ وسمنَ كرشُها هنا بين، آجر الملجأ الأَحمر وصخورِ جبالِ المطيلةِ التي تلهو فيها مُستنشقة عوادم المُجمع الكيماوي.. عندما قطنت وأَهلها بأَحدِ بيوته، كان الملجأ حديثَ البناءَ يتكون من العشراتِ منَ المنازلِ المُتجاورةِ والملتصقةِ عبرَ جدرانٍ مُشتركة ومتشابهة القالبِ.

عندما تسعفها ذاكرتُها على استحضار تلك المشاهد الغابرة لا ترى سوى والدها بسحنته السمراء المائلة بكحلتها، وثيابهِ الموحدة الزرقاء في أَول النهار والسوداء في آخرهَ.. كانتْ تلهو مع عادل في ساحة القريةِ ذات الحصى الأَبيض، كان من المفروض أَن تكون «ملعبًا رياضيًا لفريق المناجم المحلي» لم ترَ منه غير لَافتته التي سرقها الجدُ بوزيد فيما بعد وجعلها لوحًا يجلس عليه في أَيام الصيف.

كانتْ تستطيعُ أَن تستشفَ الغرابة التي ستتملكُها في حياتِها القادمةِ، بعدَ رحيله، بعدَ أَن تظلَ وحيدة كصوفيةَ عاهرةُ المينه حمراءِ الشعرِ.. كيف سيبدُو منزلُ العائلةِ خاويًا ولياليها بلا حكايا خالها ضوء، من سيحفَظ أَسرارهَا بعدَ عادل؟ من سيتسلق جذع النخلِ بعد عادل؟

أَعادها صوتُ خالها الأَجشِ من ذكرياتِها

- منْ أَينَ حصلتِ على الساعةِ؟

كانَ منحنيًا على ركبة ونصفٍ أَمامها بغرفةِ جلوسِ أُختهِ.

تذكرتْ علياء.. كانَ ذلكَ بالقرب من المنجم القديم، انتبهتْ على شيء يبرقُ بين النباتاتِ الشوكيةِ، ظنت أَنها قطعةُ زجاجَ من مخَلفاتِ قوارير الخمر لكنها من بعيدٍ بدت أكثرَ بريقًا، اقتربت من كومةِ النباتاتِ وانحنت، التَقطتْ ما وجدتهُ.. كانتْ ساعة بدتْ جديدة بالنسبةِ إِليها، دستها بجيبِ فستانها قبلَ أَن تلاحظَ شحوبَ وجهِ أَحمد بعدَ أَن تعثرَ بجثةِ عادل

-أَخبرتُكَ.. كانتْ بجانبِ عادل عندما كانَ ميتًا.

قلبَ ضوء الساعةَ بينَ أَصابعهِ، ثقيلةً، من الحديدِ بل من الفضةِ.. ساعةٌ فضيةِ في الخلاءِ؟ بل بينَ شقوقِ الصخورِ والحشائشِ؟ كيفَ تفقدُ ساعةُ ثمينةٌ كهذهِ؟ كانَ المعصمُ يتكونُ من عدةِ أَجزاء قطرهَا كبيرٌ لا تزالُ عقاربهُ تعملُ بدقةٍ.

***

-تكلم

لكن سالم لم يتكلم.

أَمسك ضوء بكتفِيْهِ وضغطَ حتى آلمه:

- تكلم لمن هذه الساعة؟

نفذت الكلمات بقوةٍ ورعب لقلبه الصغير، صرخ الكبيرُ.. طرفت رموش الطفلِ على إثرِ قبضةِ الأَبُ المَلكُومُ التي انَدفعت تلكم الجدارَ للمرة الثانيةِ، شعرَ بأَن شيء انفجرَ وراءهُ للحظاتٍ، مرَ جمعٌ من التلاميذِ لم يتوقفوا عن المَسيرِ وإن شيعوا بنظراتهم المشهد.

أرخى ضوء قبضتهُ وزفرَ بينما بقيَ سالم ثابتًا وهوَ يُكررُ إجابتهُ

- لا أَعرف يا عم ضوء

كانَ طفلًا عنيدًا لكن ليس كاذبًا هذا ما فكرَ به وهو يتأملُ صديق ابنهِ المُتوفى.

لاحظَ الجرحَ الذي يشقُ باطنَ يدهِ بالقربِ من المعصم، تفرس في عينيه التي ارتسمت عليهما تصميم هادئ على عكس ما كان يَشعرُ به أَو يخفيهِ، المعلومة التي وصلتهُ أَنهُ كان آخر شخصٍ تشاجرَ مع ابنهِ، تنهدَ واستقامَ وضع يدهُ على رأس الصغيرِ وغمغمَ

- اذهب

كان بمقدورهِ أن يجبرهُ على البوحِ لكن لا يبدو أَنهُ يعرفُ الكثيرَ عن الرجلِ صاحبِ الساعةِ.

حمل سالم حقيبته المتأرجحة على ظهره وسار نحو المَدرسةِ بِدونِ أَن يخبرَ عم ضوء عما رآه أَحمدُ بالليلةِ التِي تسبقُ مقتلَ عادل.

***

كان شهر جويلية الأَسوأ في المظيلة.

ترك أَحمدُ المنحدر الذي ينتهي بوادٍ أَسفله وانعطف يمينًا يتتبعهُ ضوء.

دخلَا المنزلِ المهجورِ الذي كان بلا بابٍ بالفعلِ، منزل صغير من الأسمنتِ والآجر الأَحمرِ صاحبهُ تركه منذ سنواتٍ كما هوَ بعد أَن دخلَ السجن بسبب قضية صكوك بدون رصيدٍ.

يعرف ضوء المنطقة كما يعرف أَنقاض المنزلِ، سبق أَن دخله منذ سنواتٍ لكن لم يخطر في باله أَنَ عادل وأصدقاءه يداومون على اللقاء هنا.. كما تنتشر العديدُ منَ المساكن المهجُورة، مشاهد بيوتٍ هي أَقرب لمشاهد خرائب الحرب، تركها أَهلها بعد وفاة الأَجداد، في الغالب غادرها أَولًا الآباء للعمل بالخارج ثم الشباب ثم لحقهم الآخرون بسبب ضنك العيش واليأس، حتى أَضحت المنازل خاليةً إلا من بعض أَثاثها الثقيل الذي صعب نقله، بعض هذه الخرائبِ أَصبح عرضة للبيع بالتوازِي مع التفويت في الأَراضي لصالحِ شركةِ التطويرِ العقاري.

بالداخلِ رصدت عيناهُ جزءًا من كليم قَديم ملقى على الأَرض فوقهُ رصت قطعُ حجارةٍ مُناسبةٌ للجلوسِ عليها، جَالَ بصرهُ بالمكانِ المُهملِ، اقتطعَ ورقةً منَ الجدارِ كانت مكتوبة بخطِ يدِ ابنه.

تواصل الصمت بينهُما لعدة دقائق، كان يتدلى من حول عنق ضوء منديل أَصفر ليمتص العرق المنسدِل من خلف رقبته مثل الكثير من رجال المنطقةِ، سحبهُ ومسحَ جبهتهُ وعينيهِ. انحنى ضوء وهو لا يزال يحدق في الورقةِ

-هل كان يكتب المسرحيات؟ يا أَحمد؟

نهض واستدار يشاهد بقية المتعلقاتِ المُثبتةِ على الجُدرانِ.. رسومات للجبالِ، ثقوب في الجدار، عبوات فارغة، صندوق بلاستيكي به أَغراض مكسورة ولعب قديمةٌ صفحات من رواية علي الدعاجي وجبران خليل جبران.

شعر أَحمد بأَن نظرات ضوء تتفحصانه، هل يصدقه؟

-ماذا يمكنك أَن تخبرني به؟

شعر بأَنَ حلقه جف فجأة نظر من فتحة النافذة بدون إِطار وجفف عرقهُ.

قالَ بدون أَن ينظر إِليهِ مباشرة

- لا أَعرف!

تلعثم.. لم ينبس بكلمة أُخرى ربما كان عليه أَن يخبره أَنَ المنظار لم يكن بحوزةِ عادل قبَلَ موتهِ.

***

القســم الثـالث

«إنَّ أعظمَ الحُروب هي حرب الإنسان ضد رغباتهِ»

بابُ الأَسرارِ،

أَحمد أُوميت.

بِعشيةَ يوم قائظٍ لم تفلح فيهِ المروحةُ الوحيدةُ من تخفيفِ حرارتهِ الخانقةِ.. اجتمع الفريقُ حتى سيف الطرابلسي ومُحسن عبرَ السكايب، بينما تجاورَ كل من شوق ونصر الدين على كراسيهم حولَ الطاولةِ الرئيسيةِ في وقتٍ اعتذرَ فيهِ عماد عن القُدوم بسببِ ظرفٍ طارئ، خمنهُ نصر الدين بسهولةٍ «إنهُ سكرانٌ بالتأكيدِ».

سَادَ جوٌ منَ التوَتُر المَكتوم عندَ دخولِ الغزواني، كان مُنهكًا وأكثرَ، كان غاضبًا، جلس على أحد الكراسي في آخر غرفةِ العَملياتِ وصاحَ

-صباح الخير جميعًا رغم أَنهُ لا يبدو أَنَ هناك خير فيما سنقوله!

ضربَ الانتباه كل من بالغرفة.

لخصَ الغزواني آخر ما توصلوا إليهِ

-قُتلَ حمادي الوحيشي، منذُ ثلاثة أيام سابقة بين منتصف الليل والرابعة صباحا من يوم الإثنين، سبب الوفاة استنزاف الدماء بسبب حدوث جروح نافذة بالرأس والظهرِ، آخر مكالمة له كانت مع أُختهِ (مفيدة) تجادلَا خلالها حسب شهادة الأُختِ حول السيارة.

دققَ في الورقةِ وواصل كلامهُ:

- كان ذلك بحدود السادسة مساءً..

-أُختهُ تعملُ بصفاقس..

أَكمل نصر الدِين.

تنحنح نصر الدين مُتراجعًا لمُستوى لوحةِ العرضِ

- أَرجو الانتباه أيها السادة والسيدات، ما ترونه أَمامكم مجموعة صور للقتيلين تعودُ المجموعة الأُولى إِلى الجريمة عام ١٩٨٨ والثانية لقتيلِ هذا الأسبوعِ، يمكنكم رؤية آثار الطعَنات

صوبَ نحوهم الشعاع الأَحمر لقلم الليزر:

- كما ترونَ نفس مَواقع الجُروح، اثنين على الظهر وواحد على الكتف الأَيمن في كلا الجريمتين.

انتظر وقع كلامه عليهم لكن لا أَحد بادر بالتعجب

- أَكمل

أَردف الغزواني، ظهرَ الارتياح على ملامح المُساعد وهو يردفُ:

-أَكدتْ التقاريرُ أَنَ السلاح الذي قُتلَ به الوحيشِي هو المستخدم فعلًا فِي الجريمة السابقة.

أَطبق الصمت على الغرفة، دفعه إحساسه الداخلي بأَن يستمر في التوضيح رغم تعابير القلق التي تنتاب شوق

-التحقيقاتُ الأَوليةُ أَكدتْ أَنَ للجريمة التي وقعتْ صلة بجريمتنا وهناك إمكانية أَنْ يكون مرتكبها نفسه بما أَنَهُ لم يتم اتهام أَحدٍ بالجريمة السابقة.

تكلمَ الغزواني من الخلفِ شابكًا ذراعيهِ على صدره وقالَ:

- هَذَا ليسَ أَمرًا مؤكدًا

تنحنحَ ونهضَ تحتَ أَنظارِ شوق المُتعجبةِ

-مقتلُ حمادي أَعادنَا للمُربعِ الأَولِ.. فأَبحاثُنا لم تأكد بعد أَن القتيلَ هو قاتلُ عادل الصغير بعد.. لذلكَ سنواصلُ التحقيقَ إِلى أَن نثبتَ الأَمرِ أَو ننفيه.

اندفعَ صوتُ رئيسهِ الطرابلسي من وراء الشاشةِ وقد أَخذهُ التعجبُ

- ما الذي تقوله؟ منذُ متى هذه النظرية؟ احتمالية ذلك شبه معدومة.

-ليس من المؤكد أَن القتيلِ الحالي هو نفسهُ القاتل السابق يا سيدِي. تراجعت شوق للوراء بدون أَنْ تُشيح بنظرها عن وجهِ الغزواني، كلما تجزم أَنها فهمته يزدادُ غموضًا، كتمت غيظها واضطرابها، لم تكن تريد أَن تبدو أَكثرَ وقاحةً مما أَظهره الغزواني لها:

- ماذَا تقول؟ هناكَ أَدلةٌ قويةٌ على أَنهُ القاتلُ الذي نبحثُ عنهُ.

-أَدلةٌ غيرُ كافية بعدُ.. بالنسبة لي هذا لا يزال تحقيقًا في جريمة لم يكشف فاعلها.. لذلكَ فلتبقوني على اطلاع.

سمعَ الفريقُ احتكاكِ الورقِ من وراءِ الشاشةِ بعدها قال محسن

- تعرفنا على أَغلبَ الأَرقام التي كانَ الضحية على تواصل معها، هناكَ بعضُ جهاتِ الاتصالَ التي لم نَتعرف عليها بعدُ.. وقدْ تأكدتُّ شخصيًا أَن هناكَ اتصالاتٍ هاتفيةً مع رقمِ مجهولِ قدْ بدأت منذُ ثلاثةِ أَشهرٍ وتزايدت وتيرتُها منذُ أُسبوعينِ.

-هذا يُوافقُ زمن الإِعلانِ عن إِعادةِ فتح القضيةِ ثمَ مجيئُنا للمنسيةِ.

تمتمَ نصر الدين.

-الرسائلِ النصية من القتيل متواترةٌ ولنقل أَنَ لهجة التهديد في كلامه واضحة .. أَقتبسُ هُنا «لا مكان لك لتختبئ فيه» و أَيضًا «سأَفضحك».. آخر رسالة كانت قبل يوم من العثور على الجثة وآخر مكالمة قبل ساعات فقط من مقتلهِ.. الرقم المجهول أَصبحَ مغلقًا منذُ تلك الساعةِ للآنَ.

لم يعثرَ معَ القتيلِ على هاتفٌ مُسجل باسمهِ.. رقم الهاتف الذي تحصلَ عليهِ نصر الدين منْ صاحب الغُرفةِ يعود لابن أُختهِ وهو في ١٦ من عمره ويَسكن في صفاقس مع والدتهِ، يبدو أَن حمادي كانَ حريصًا أَن لا يتركَ شيئًا يَقودُ إِليهِ.

-ماذا عن سجلاتهِ المالية ومعاملاتهِ المصرفيةِ؟

«هُناكَ أَمرٌ غريب سيدي.. لم يعمل في وظيفة ثابتة منذُ سنواتٍ طويلة، دخلَ للسجنِ قبل عشرِ سنواتِ لمدةِ سنةٍ كاملة بتهمةِ التعاطي، ليسَ لهُ سوى جراية هزيلةٍ تصلهُ من صندوقِ التقاعد والحيطة الاجتماعيةِ، رغمَ ذلكَ كانَ يعيشُ عيشةَ الملوكِ، اشترى منزلًا بصفاقس ثمَ باعهُ ليشتري منزلَ المتلوي، المنزلُ باسمِ زوجتهِ.. والأهم كانتْ تصلهُ تحويلاتٌ مالية كل مدة وأُخرى!.

-هل هيَ مبالغ شهرية مُتزامنة؟

-لا.. تم إيداع مبالغ مالية مُتفاوتة المقدارِ كل فترة تتراوح بين الأسبوعينِ والشهر.

-منذ متى؟

-منذُ بدايةِ الكونِ.. أَقدمها يعودُ إِلى خمسة عشرة سنة.

-صاحبُ حسابِ المبالغ المُودعة؟

-لم نتوصل إِلى هويتهِ بعدُ.

-على كلِ حال.. مُحسن قلتَ أَنهُ سجن لسنةٍ كاملة.. تثبت من حصولهِ على هذهِ التحويلاتِ بأَيِ طريقةٍ كانتْ وهوَ في السجنِ.. لا أَعتقدُ أَنها توقفت.. ماذا عرفتَ عن سهام وعلاقتها المتوترة بزوجها؟

-متزوجانِ منذُ عقدين من الزمنِ، لا أَطفالَ.. والدها مُتوفى ووالدتها تقطنُ بمنزلٍ بعيدٍ بأُم العرائس تزورُها بين فينةٍ وأُخرى.. ماذا أَيضًا؟ اشترت حصة من متجر حلويات بصفاقس بداية التسعينات قبلَ أَن تنتقلَ للمتلوي وتفتتحَ محلها الحالي.. هذا مرتبطُ أَيضًا بانتقالِ مقرِ إقامتها للمتلوي.

-كانَ هذا بعدَ وفاةِ والدها ودخولِ زوجها السجنَ.. إِذًا من أَين لها هذا إِن كان لا يوجد مَصدر شرعي للمالِ؟

أَجابتْ شوق:

- في معرض حديثهَا معِي قالت أَنها ورثتْ مَبلغًا بعدَ وفاةِ والدها دَعمها عندَ شراء المنزل.. لكن تحققنا من أَنَ والدها لم يكن يملكُ شيئًا وبعد وفاته لم يترك إِلا ديونًا قليلةً كانت تُسددها بنفسِها.

-لقد ابتاعتْ منزلها بالمتلوي في الوقت الذي كان فيها زوجها بالسجن، حُكمَ عليهِ بأَكثر من سنةٍ أَليسَ كذلكَ؟ كيف كانت تعيشُ؟ من أَين كانت تعيش؟ ابحث عن مواردها المالية خلال هذه السنواتِ يا محسن.. ثمَ يا شوق لقدْ كذبتْ حول إِقامتها في المظيلةِ.. ابحثي في هذا الأَمر.

لم يبد محسن وكأَنهُ يستمعُ للغزوانِي بل كانَ مشغولًا بتفحصِ شيء يبثُ على شاشةٍ ثانية

-محسن أَنت لا تستمعُ لي!

لبرهةٍ بدت طويلةً ترددَ الشابُ دونِ أَن يردَ على رئيسِ الفريقِ قبلَ أَن يوجهَ أَنظارهُ عبرَ الشاشةِ للغزواني وقد اصفرَ وجههُ

-هل أَنتَ مُستعد؟ لقدْ توصلتُ لهويةِ مخبركم الآن!.

***

وجد نصر الدين مستودع الرهانات بين سوق الدوابِ ومحل إصلاح الدراجات، حيثُ تجاوزَ ساحة قلب المدينة ودخلَ شارعًا ضيقًا يتفرعِ آخرهُ إلى عدة أَزقةٍ صغيرةٍ، أَكملَ سيرهُ مُنعطفًا مع الزقاق الأَيمنِ الذي أَوصلهُ للمُستودعِ.

اتصل برئيسه وانتظره ربع ساعةٍ، أَظهر التحقيق السريع الذي قامَ بهِ لخلفيةِ عماد أَنهُ أَمامَ شرطي استغل سلطته ليتحصل على بعض المَكاسب الصغيرة، وأَن مهنته كانت درعًا يُسهلُ لهُ تجاوزاتهُ ولولاها لكان يملك سجلًا جنائيًا في العنف والاحتيال والقمار غير الشرعي.. كانَ عليهم أَن يتحققوا من سمعةِ المنظمينَ للفريقِ قبلَ قبُولهم كيفَ لم يعرفوا اَنَ عماد مُقامرٌ لعينٌ على صراعِ الديكةِ إلا بعدَ البحثِ في خلفيتهِ والتي استمرتْ ليومينِ.. وصلتهم معلومةٌ باختبائه في هذا المُستودعِ.

اكتشفوا أَنه على معرفة أَكيدةِ بحمادي الوحيشي، رغمَ أَنهُ أَنكرَ كم من مرةٍ ذلكَ بل أَنهُ حتى ادَّعى أَنَّ لا أَحَدَ من أَفرادِ مركزِ الشرطةِ المحلي قدْ تعرفَ على صاحب الأَصابعِ المقطوعة.. مما لا شكَ فيهِ أَن الغزواني قد لامَ نفسهُ كثيرًا وهو كانَ القريبَ منهُ، ولو لا رقمهُ المُسجل في هاتفِ القَتيلِ لما توصلَ محسن للأَمرِ.

أَقبلَ الغزواني.. دخلا منْ بابِ جراج المُستودعِ وهوَ يرمقُ ثيابَ مرؤوسهِ المُهندمة

- لا تنسَ، نحن مُجرد مقامرينَ.. تبًا لملابسك!

نزلَا درجًا ضِيقا ينتهي بباب ينفتحُ على قاعة واسعة، انتهت بِساحةِ بتجمهر كبير وأَقفاص دجاج ومُكيف هواء قديم يدفع الهواءَ بأَنفاس مُحتضرةً، استقبلها المُتراهنونَ والمُتفرجونَ بتذمر. ميز الغزواني صاحب المكان أَو مديرهُ من صراخه وحَماسته وهو يجمعُ نقود الرهاناتِ ويُدونها في كراسه الذي لا يفارقه.

همس نصر الدين:

- هل هذا قانوني حتى؟

رفعَ المسئول حاجبهُ وهو لا يزالُ يعدُ نقودهُ موجهًا استفسارهُ نحوهُما:

-أَنتم جدد؟ الأَحمر أَو الأَسود؟

-ماذا؟

-»أَستراهنا على الديك الأَحمر أَم الأَسود؟

-لازلنا نفكر

أَجابهُ نصر الدين بينما حدقَ بهِ الرجلُ بشك:

- مَن دلكما على المَكانِ؟

كانَ في أَواخرِ الأَربعيناتِ بسنٍ ذهبيةٍ وحزام نقودٍ يتدلى منْ خصرهِ.

أَجابهُ الغزواني متأففًا وعيناهُ تجولانِ بالمكانِ:

- إِننا من قدماءِ العشاقِ أَيام سوق الخميس.

بانتْ أَساريرُ الرجلِ الذي عرفَ نفسهُ بـ (منتصر):

- للأسف المكان ليس كما كان سابقًا، لو قدمتم في أَوج ازدهاره لرأيتم عجب العجابِ.

بصق على الأَرض وقال:

- أَنصحكَ بالأَسود أَتعرفُ لماذا؟

حكَ الغزواني جبينَهُ نافرَ الصبرِ:

- لماذا؟

-لأَنني خبير.. ربما يكون الأَحمر أَصغر وأَسمن لكنه مُجهد من ليلةِ البارحةِ، لم أَنت مُستغرب حتى الديكة الملعونة يتعبونَ بعدَ هذا المجهودِ!.

أَعقبَ كلامهُ بضحكةٍ طويلةٍ.

أَومأ الغزواني:

- بالطبعِ، سوفَ نُراهنُ على الأَسود.. اسمع سندفعُ مبلغًا كبيرًا.. لكنني أَبحثُ عن شَخصٍ ما.. لا أَستطيعُ التمتعَ بالمُراهنةِ إِلا معهُ، هل رأيتَ عماد هنا؟

بدت الحيرة على وجهه:

- رقم ٣١؟ ذلكَ السكيرُ خفيف الروحِ؟

تألقت عينا الغزواني وهوَ يُجيبُ:

- نعم هو بشحمهِ وروحهِ السمجةِ.

اقتربَ المُديرُ منهما وهمسَ:

- ستُكلفُكَ هذهِ المعلومةُ بعَضَ الحنينات

فركَ سبابتهِ بإبهامه ضاحكًا.

-لم يبقى إلا القُمارجي لأستجديهِ!

مسكهُ الغزواني من رقبةِ قميصهِ وجذبهُ إليه:

- هل تُريدُ أَن أُغلقَ مكانكَ العفنِ هذَا؟ أَم ترشدني على الجحرَ الذي يختبئ فيهِ ذلكَ النذلِ؟!.

عثرَ عليهِ بداخلِ القبو، بجانبِ أَقفاصِ الدجاجِ وأَكوامِ التبنِ.. امتزجت رائحةُ العفونةِ برائحةِ الطيورِ برائحةِ عرقهِ وشرابهِ التي فاحتْ من شتى جوانبِ ملابسهِ.. أَحكمَ نصر الدين غلقَ أَنفهِ مُتقززًا.. التفتَ عماد إليهما، ضحكَ وقدْ تراقصتْ نظراته.. طرقَ برهة للأَرضِ قبل أَن يستوي واقفًا ويتكلم بلسان ثقل بخمرته:

-أَنا لستُ ثملًا.. عليكم اللعنة بل لم أَكنْ أَبدًا أَكثرَ انتباهًا من هذهِ الليلةِ.. فالخمرة لم تذهب بعقلي بعد.

عندما يسكر كان يظن أَنَ لا أَحدَ يضاهيهِ حكمة وأَنهُ قادر على فتح بلاد الكفارِ إن سُلم مقاليد الجيش!.

***

سحبَ نصر الدين الأَصفادَ التي تُكبلُ يدي عماد، بينما دارَ الغزواني وجلسَ على كرسيهِ

- اجلس

بدا عمادْ مترددًا لكن نظرةً واحدة من عيني المُحقق أَجبرتهُ على طاعتهِ، جلس بالكرسي الوحيدِ الفارغِ بمواجهتهِ وهوَ يفركُ رسغيهِ بعدَ تحرير يديهِ.

ذهبتْ سكرةُ الخمرِ وما يتبعُها من خفةِ العقلِ، وحلَ محلها الوجومُ والفزعُ على وجههِ.. كانَ قدْ تركهُ ليوم في محبسهِ دونِ استجوابٍ أو سجائره.. منتظرًا التحاقِ رئيسِ الوحدة السيدً الطرابلسي صبيحةَ اليومِ والذي أَصرَ على مُتابعةِ الاستجوابِ بنفسه، كما كان لابدَ لهُ من انتظارِ صدورَ تقارير اختباراتِ مُستودعِ تربيةِ الأَسماكِ.. وعودةِ شوق من مهمتها التي كلفَها بها بالصباحِ الباكرِ.

دونِ انتظارِها ضغطَ الغزواني على زر المسجلة وبدأَ الاستجوابِ.

***

ظهرتْ شوق من وراءِ بابِ غرفةِ الملحقِ عدد ٢، أَجفلت عندما وجدتْ رئيسِ الوحدةِ السيد الطرابلسي على رأسِ غرفةِ المُراقبةِ، ترددت ثمَ دفعتْ نفسهَا للتسللِ دونِ أَن تصدرَ صوتٍ، سلمت عليهِ واعتذرتْ عن التأْخيرِ.. استدارتْ لنصرِ الدين الذي وقفَ بقامته المديدة والنحيلة وهمست:

- هل فاتني الكَثيرُ؟ ما الجديد؟

قربَ رأسهُ لأذنها:

- ادعى عماد أَن ذلكَ المساءِ تناولَ كأسينِ معَ حمادي بالمُستودع لكنْ الضحيةَ كانَ سكران سلفًا، تجادلًا حولَ المال. حسبَ اعترافاته هذه كانَ قدْ أَقرضهُ بعضها قبلَ مدةٍ لكن يبدو أَنهُ كانَ يُماطلهُ في التسديدِ كلِ مرةٍ، قالَ أَنهُ رفضَ تسديدَ الدينِ في الوقتِ الحالي، استشاط عمادْ غضبًا وذهبَ.. قالَ أَنهُ تركهُ حيًا عندَ الثامنةِ ليلًا تقريبًا وكانتْ تلكَ آخرُ مرةٍ يراهُ فيها إِلى أن وصلهُ بلاغُ العثورِ على الجثةِ.

-هل وصلتِ أَنتِ إِلى شيءٍ منْ تفتيش منزلهِ؟

لمحتْ شوق إلى ذلكَ وهيَ تُرسلُ رسالة للغزواني، كانتْ قد قادتْ فريقًا صغيرًا من أَفرادِ الشرطةِ المحليةِ لتفتيشِ منزلهِ بالمظيلةِ وفقَ لأَوامرِ الغزواني.

رفعتْ رأَسها وأَعادتْ هاتفها لجيبها، اتكأت بذراعها اليمنى على الجدار تراقب بينما عادَ صوت رئيسِ فريقِها في الغرفةِ المُقابلةِ من وراءِ المرأةِ

– أَنتَ تتذكر الكثير بالنسبة لسكران!.

واصلَ المُشتبهُ اعترافاته بغيرِ اكتراثٍ مُبقيًا يديهِ تحتَ الطاولةِ ورأسهُ منخفضًا:

– الوالد كانَ قادمًا للبلدة باليوم الذي يليهِ، ولم أَكنْ أُريدُهُ أَن يشم رائحة الخمرة على ملابسي لذلك كنت مقتَصدًا جدًا في الشربِ.

قرأ الغزواني الرسالة الهاتفيةَ التي أَرسلتها لهُ، مرفقةً بعدة صور.. كانتْ قدْ عثرتْ على زجاجتي الخمرِ بمنزلهِ وراءَ رفِّ قواريرِ ماءِ الزهرِ والعطرشية.. ابتسمَ وسألهُ:

– والقواريرُ؟ استغنيتَ عنهم؟

–كرامتي أَكبرُ من قواريرهِ.

ضحكَ الغزواني وهوَ يُمررُ إليهِ هاتفهُ وقدْ ثبتت الشاشةُ على صورةِ الزجاجاتِ التي خبأها في أَحدِ رفوفِ مطبخِ منزلهِ:

– ماهذهِ إذن.. أَدويةُ سكر؟ هل تُراهنُ أَننا سنجدُ بصماتِ حمادي عليها؟

توسعتْ عيناهُ وكأنَّ هذهِ النقطةَ قدْ فاتتهُ، مسحَ عرقَ وجههِ، بدا أَكثرَ ارتباكًا مع هذه المعلومةِ الجديدةِ، قالَ وهوَ يتلعثمُ بين الكلمة والأخرى: –في الواقعِ لقدْ أَخذتُها معي.. نعم.. إِنها تعويضٌ صغيرٌ على لما هو متخذٌ بذمتهِ.

-أَخذتَ مكمنَ لذتهِ؟ كيفَ يُمكنُ أَن تفتَكَ قطعتيْ لحمٍ من بينِ أَنيابِ الأَسدِ؟ إِلا لو لم يكنْ في وعيه الكاملِ؟.

تململَ في جلستهِ:

– في الواقع لقدْ سلمني إِياها بنفسهِ، وطلبَ مني الانتظارَ إِلى أَن يعودَ لغرفتهِ ويُغيرَ ثيَابهُ.. لكنني أَخَذتُ الكيسَ بما فيهِ وخرجتُ قبلَ عودتهِ.. لم أَقتلهُ.. لقدْ كنتُ غاضبًا.

ضربَ الغزواني الطاولة بقوةٍ ارتجَ معها زجاجُ المرآة العاكسةِ:

– أَتسخرُ منَّا؟ لقد غيرتَ اعترافكَ ثلاث مراتٍ في دقيقَتين.. هَذَا يؤكدُ فقط أَنك منْ قتلهُ.. أَنتَ آخرُ من رآهُ.. تجادلتَ معهُ هذا يصيرُ معَ الحي.. يصيرُ حتى أكثر.. قتلتهُ.. ثُمَ عدتَ إِلى منزلكَ سالمًا غانمًا قارورتينِ منَ الخَمرِ المُستوردِ.. أَيُ أَحمقٍ يَعودُ بدليلٍ ضدهُ لمنزلهِ.. لقدْ فاتَك التخلصُ منهُ!.

-لقدْ كنتُ مع زوجتي في المنزلِ.. لقدْ سبقَ أَن أَخبرتُكَ.

-زوجتك أَكدتْ أَنكَ عدتَ متأخرًا، ليسَ مع بدايةِ برنامجِ الأَحدِ الرياضي كما ادعيتَ مع بدايةِ الاستجوابِ بل مع نهايتهِ.

ردَ بابتسامةٍ لزجةٍ:

– يا الله.. إِنها فقط بائسة للطلاق مني، ستتزوج بأولِ شخص بعد موتي حتى قبل أَن تبرد جثتي.. رُبما قتلهُ من التقى بهِ بعدي.

لطالما كرهَ الغزواني سخريتهُ ومزحاتهُ في الأَوقاتِ غيرِ المناسبةِ.

-حقًا؟ بمنْ كانَ يلتقي إِذن؟ من مصدرُ تلكَ الأَموالِ؟ لأنهُ من السهل أَن أَخلقَ سببًا لدفنك هنا.

-لا أَعرفُ مصدرَ المالِ، يقول إن هناك من يدعمه، لا أَعرفُ أكثر من ذلك، كان يصل لمرحلة لعقِ الحديد ثم فجأة تُملأ جيوبه بالنقود، لم أَسأل عن مصدرها وهو يحفني ببعض كرمه فلماذا أَقطعُ بحبل رزقي؟

-لا تعرف، فهمتْ.. لكنْ بالتأكيدِ تعرفُ جيدًا في قمامةِ منزلِ من وجدنَا هذهِ الصكوكَ؟.

دفعَ يدهُ أَمامَ وجهِ المُتهم، وأَرتهُ الصكوكَ المقطعةِ التي وجدتها شوق في كيسِ قمامةٍ خارجَ بابِ منزلهَ.. أَرجعَ الغزواني هاتفهُ إلى جانبهِ موضحًا دونَ أَن يرفعَ عينيهُ عن الوجهِ الشاحبِ الذي بمواجهتهِ:

-الخبراءُ الآن يجرونَ الاختباراتِ لتحديدِ البصماتِ والحمضِ النووي منها.. هل تراهنني الآن أَيضًا؟ أَنت تحبُ المُراهنة صحيح؟ من أَرجعَ لكَ هذهِ الصكوك؟ يبدو كريمًا.. تخلصتَ من دينٍ ضخم أكثر من ١٨ أَلف دينار.. يا رجل يجبُ أَن تعرفنا على طريقةِ التخلصِ منَ الديونِ هذهِ! نظر إليهِ في ازدراء:

- ماذَا كانَ مُقابلها؟

-أَنا لم أَقتلهُ.. لقدْ عدتُ.. عدتُ لمنزلي.

لقدْ حددتْ زوجتهُ بدقة زمنَ عودتهِ للمنزلِ، كانَ ذلكَ معَ انتهاءِ برنامجِ الأَحدِ الرياضي وإِعادةِ بث مسلسلٍ ما على القناةِ الوطنيةِ عند منتصفِ الليلِ من ليلةِ الجريمةِ.. لا يُمكنُ أَن يكونَ في المنسيةِ في ذلكَ الوقت.. كما أَنَ الطبيبَ الشرعي حددَ زمنَ الوفاة بعدَ منتصفِ الليلِ، لذلكَ لا يُمكنُ أَن يكونَ القاتلُ، لكنهُ فكرَ أَنهُ بالتأكيدُ يعرفُ شيئًا مهمًا.

دخلَ نصر الدين الغرفةَ وسلمهُ ورقةً ومغلفًا في الوقت المُناسب كما أَملى عليهِ الغزواني ما يفعلهُ قبلَ الاستجوابِ ليحدثَ تأثيرًا قويًا على نفسيتهِ، فلم يردْ أن يتركهُ ليستردَ أَنفاسهُ:

- إننا نعلم أنكَ كنت معهُ قبلَ يومينِ من مقتلهِ، في الوقتِ الذي كُنا نبحثُ فيه عنهُ أيها الخبيثُ، وجدنا حمضكَ النووي في غرفتهِ.. سجائرُكَ المالبورو.

دفعَ أَمامه على الطاولةِ صورًا ملتقطة لصحنَ السجائرِ وتقريرَ الحمض النووي:

- كما التقيتهُ قبلَ ساعات منْ مقتله.. أَنتَ آخر منْ شاهدهُ حيًا.. للأَسف يا صديقي السابق أَنتَ في ورطةٍ أَكبرُ مما تتخيلُ.. ثمَ من لا يزالُ يدخنُ المالبورو؟.

كان رأسه منحنيًا فوق صور الملتقطة، شحب جلده الأَسمر الذي أَضحى ينافس لون قميصهِ، تراجعَ للخلفِ وظلَ يفركُ وجههُ المُحمرُ.. فتحَ الزرَ العلوي منْ قميصهِ:

- أُريدُ كأسَ ماءٍ وسيجارة من فضلكَ

أَشارَ الغزواني لمنْ وراءَ المرآة، فهمَ نصر الدين الإِشارةَ وأَدخلَ كأسَ ماءٍ وعلبةَ السجائرِ فضها بسرعةٍ:

- مازلنا مازلنا.. تقريرُ الشرطةِ الفنية أَكدَ على العثورِ على أَثارِ دماءٍ تعودُ للضحيةِ، وحمضكَ النووي في مستودعِ تربيةِ الأَسماكِ

دفعَ أَمامهُ بالتقريرِ المطولِ.

تحليلُ ملابسُ الضحية أَدى إِلى اكتشافِ نوع من الرملِ الصناعي، بل الكثيرِ منهُ.. المكانُ الوحيد الذي يحتوي على هذاً الصنف هوَ مستودع تربية

الأَسماكِ الذي أُغلقَ منذُ سنواتٍ.. إِنهُ بآخر المظيلةِ على الطريقِ الرئيسية التي تصلُ المدينة بالمنسيةِ.

أَشعلَ سيجارته ثم نفض عود الثقاب مرتين قبل أَن ينطفئ:

- أَنا لم أُنكرْ لقائي بهِ هُناك

ظل المُحققُ يرمقهُ ربما يكونُ قدْ كذبَ في جزئيةِ ما فعلهُ بعدَ تركهِ للمُستودع، لكنْ بالنسبة للقتل حجة غيابه دامغةٌ لقدْ شهدتْ زوجتهُ على ذلكَ.. والأَغلبُ أَنهُ سَيخسرُ مُشتبهًا بهِ.. لكنْ هذَا لا يُجيبُ على سؤالهِ.. لما تراجعَ عن انتظار حمادي في مستودع تربيةِ الأَسماك؟ كما أَنهُ أَخذَ قواريرَ الخمرِ معهُ وكأنهُ يعلَمُ أَنهُ لن يُحاسبَ علَى سرقتِها.. كأَنهُ علمَ أَنه سيُقتل.

صبغَ جبينُ المُشتبهِ بهِ بالعرقِ البارِدِ وبدأتْ أَطرافهُ ترتجفُ:

- لم أَقتلهُ.

علت اتهاماتُ الغزواني لتغطي على كلمتهِ اليتيمةِ:

- هل ستتمسكُ بهذهِ الخرافةِ؟ لأَنَ كلامكَ مُجردُ هراءٍ لا يجيبُ على أَسئلتنا الأُخرى؟ كيفَ قتلَ الوحيشي ووجدَ على تلكَ الوضعيةِ المألوفة، بنفس عددِ الطعناتِ التي قتلَ بها عادل الصغير إِن لم تكنْ أَنت القاتلُ نفسهُ إِلا لو كنتَ تثرثرُ بتفاصيلِ القضيةِ؟

عزفَ عن قولِ كلمةٍ غيرهَا وكأنَ المشهد ثابتٌ لا يتغيرُ:

- لم أَقتلهُ.. أُريدُ محاميًا.

صفعه الغزواني حتى سقطَ من الكُرسي:

- مُحاميًا؟ هل تُشاهدُ الكثير من المسلسلات البوليسية، اجلس.

شعر برغبة عارمَة في لي عنق عماد وكسر أَسنانه، لكنه ارتأى الهدوء خاصة مع وجود رئيس الوحدة الذي ظلَ جالسًا ببدلته الرياضية في هذا الحر بوجهه الصارم ونظرات المتزنة وذقنه الحليقة أَمامه كأَسي قهوة وماء، تذكرت شوق أَنه أَضَافها كأَس برتقال من مخزونه الخاص في مكتبه عندما تم تكليفها لأَول مرة بالوظيفة من قبل من وزارة الداخلية، خاضا حديثًا وديًا ذكر فيه معرفته بأَغلب أَفراد عائلتها قبل أَن تجر المحادثة إِلى سبب قدومها.

-لمنْ تركتهُ؟

ضربَ الغزواني بكفه على الطاولةِ حتى اهتزت الأَغراض القليلة التي كانت فوقها وتخلخلت تلك الصلابة التي كان يلتحف بها عماد رشح الدم من أَنفهِ

-تركتهُ هُناكَ لقاتلهِ.. من؟

أَلقى نظرة من تحتِ جفونهِ ثم عاود إغماض عينيهِ

-لا أَفهمُ ما تقولهُ.

شلَت عضلة لسانِ شوق وبوصلةُ تفكيرها.. تبادلتْ النظراتِ مع زميلها الذي بدا مطمئنًا.. أَيُ استنتاج هذَا توصلَ إِليها الغزواني؟ هل يُلمحُ إِلى أَنَ عماد تركَ الضحيةَ هُناكَ قاصداً؟ سلمه لقاتلهِ؟ صنعَ لهُ فخًا؟ مع منْ؟ لقتلهِ؟ كيفَ لم يتوصلوا لهذهِ الفكرةِ، فكرتْ أَنَ الغزواني حتى لم يفكر بهذهِ الفرضيةِ إِلا في هذهِ اللحظةِ

- هل تظنُ أَنهُ فقط يُدفعهُ للاعترافِ أَم؟

برزتْ ابتسامةُ نصر الدينِ وتأَلقتْ عيناهُ

-إِنهُ جادٌ تمامًا

لم تكنْ هذهِ المرةُ الأُولى التي يتوصلُ فيها إلى فكرةٍ غريبةٍ، بينما بدت الفرضيةُ غيرَ مستبعدة بالنسبةِ لرئيسِ الوحدةِ الذي ظلَ يُراقبُ الاستجوابَ بذهنٍ يقظٍ وهو يُشيرُ للاثنينِ بالتزامِ الصمتِ والتوقفِ عن الهمهمةِ.

-سرقتَ كيسهُ بما فيه.. تعلمُ أَنَهُ شراني[1] رغمَ ذلكَ تعودُ لزوجتكَ مطمئنًا.. كنتَ تعلمُ أَنهُ لن يأتيكَ في منتصف الليلِ صارخًا مخمورًا أَمامَ منزلكَ.. كنتَ تعلمُ أَنهُ سيموتُ وسيكونُ لديكَ حجَةُ غيابٍ مثاليةٍ تدعمها زوجتُكَ.. أَليسَ كذلك؟.. إنهُ شيء شبه مِثالي.

كان لا يزال من الممكن رؤية يديهِ ترتجفانِ على سطحِ الطاولةِ، واصلَ الغزواني وقدْ اقتربَ منهُ أَكثر:

- منْ كانَ يَنتظرهُ في المستودع؟ عدو له؟ وصديقٌ لك؟ الشخصُ الذي دفعَ عنكَ كل ديونكَ وأَعادَ صكوكَ؟ سأُخبركَ بما حصلَ بعضُ كلامكَ صحيح تركك هُناكَ لتجهزَ لليلةٍ خمرية بينما رجع لتغييرِ ثيابهِ.. هنا تمامًا اتصلتَ بالقاتل الصديق.. بالتأكيدِ كانَ قريبًا بما يكَفي منكَ ليصلَ ويقبض على الوحيشي، سلم تستلم.. أَخذَ غايتهُ وأَخذتَ الصكوكِ ومزقتها.. عدتَ تصنعُ حجةِ غيابكَ.. وربحَ الجميع.. ولكنكَ لا تبدو فائزًا بالنسبةِ لِي.

-لا.. لا لم يحصل هذا

وضعَ رئيسُ الوحدةِ يدهُ تحتَ ذقنهِ وهو يُتابعُ الاستجوابَ الذي طالَ أَمدهُ.. نجح الغزواني في مسعاه بقرار بتوليه وفريقه أَمرَ قضيةِ مقتلِ عمار الوحيشي باعتبارها جزءًا مهمًا في مجريات القضية القديمة، قرار اتخذه الطرابلسي على مضض تحت إلحاح الغزواني وحججه التي بدت فيها من

---

(١)عنيف.

الثغرات الشيء الكثير، لكن لم يرد رئيس الوحدة إعلانُ انتكاسة في أَولِ قضية له خاصة مع قطع شوط طويل في البحث والتقصي كما أَنَ تورط أَحدِ أَفرادِ الشرطة المحلية سهل من عملية إمضاءِ القرارِ.

-إما أَن يحصل هذَا أُو ستكونُ فقط مُدانًا بجريمتينِ.

-ماذا ماذا؟ أَحمد لا تفعل هذَا.

-بصراحة.. عدمُ اعترافكَ سيريحُني أَكثر.. أُغلقُ مسارَ التحقيقِ في الجريمةِ القديمة.. بما أَنكَ مُناسبٌ جدًا للجريمتينِ.. سأُغلقُ ملفين، هذه ضربةُ حظي.. أَيُ قاض سيكونُ سعيدٌ بكمْ الأَدلةَ ضدكَ، وسيرتاحُ أَهلُ الضحيتينِ.. وسيرى السياسيون فيكَ كبشُ فداءٍ مُناسبٍ تُخففُ عنهم ثقلِ الاضطراباتِ الاجتماعية!.

لوح بيده نافيًا الأَمرَ:

- لا يُمكنكَ فعلُ هذَا؟ أَنا لم أَقتل أَبدًا.

وقفَ الغزواني وهمَ بالانصرافِ:

- لم تمنحني الشعرةَ التي تُمكنني منَ الدفاع عندكَ.. ستذهبُ للسجنِ، شرطي في السجن، هذا أَمرٌ مفروغ منه، حياتكَ فوضوية.

برز بريق الاستمتاع من عينيه:

- لديك بالفعل طفلان بل رجلان الآن لا يعيشان معك منذ سنوات، زوجتكُ تلك المسكينة ستجدُ في ذلك فرصة لها للانعتاق منكَ ومن خياناتكَ المتكررةِ، زملاؤك هنا ملوا من التغطية على سلوكياتكَ المَنحرفةِ.. وأَنا بالفعلِ تحتَ ضغط شديدٍ.

انحنى الغزواني لإطفاء المُسجل عندها صرخ عماد بأنفاس لاهثة:

-سأَعترف

نفث دخان السيجارة وتابع:

– لكنْ إن أَخبرتك بالحقيقة كل الحقيقة التي أَعرفُها هل تعدني بشكل رسمي أَنْ أَستجوب كشاهد وأَلا أُعامل كمتهمٍ؟.

-هذا رهين قيمة المعلومات.

-المعلومات التي سأكشفها ستحل لغز سرقة سلاح الجريمة وتفاصيلِ جريمةِ ١٩٨٨.. ونعم كانَ هُناكَ من ينتظرهُ في المُستودع.

***

كان سُكانُ المنسيةِ وبعضِ معارفِ عماد بمعتمديةِ المظيلةِ على درايةٍ أَكيدةٍ بمدى الطمع الذي يتصَفُ به، وهو نفسهُ الذي دفعهُ للمقامرةِ ولعبَ المراهناتِ حتى فيما يخص صراع الديكة، كانَ على استعدادٍ على بيعِ كلَ والدته في سبيلِ توفير النقودِ.. إنهُ مُستعدٌ لكلِ شيءٍ.

وهذَا ما جعلَ الشابَ صاحبُ حقيبةِ الظهرِ يتوجهُ إليه.

كانَ ذلك قبلَ أَكثر من سنتين.. لم يكن الشابُ يحملُ مسدسًا لكنه جعلَهُ يرضخُ بشكلٍ كافٍ، قادَ عمادٌ بسيارته الزرقاء الداكنة لأحد مشارب الساحلِ، كانَ كريمًا، دفعِ سعر المشروبات والمكسراتِ لم يكن الوقتُ باكرًا على كأَس شرابٍ خاصة أَمام الحديث الذي أملَ معه الشرطِي أَن يصبَ في صالحِه.

رغمَ ذلكَ لم يخفض عماد جميعَ دفاعاتهِ وحذره، لكنْ عرفَ الشابُ من أَينَ تؤكل الكتفُ، عرفَ الكثيرَ عنهُ وعن عمله وديونه وماذا يعني مُجرد دليلٍ يغطيهِ الغبار في أَحدِ صناديقِ الأَدلةِ القديمةِ؟ سلمهُ الفأسَ بمُقَابلٍ مادِيٍ

خففَ عنهُ من حبلِ الديونِ التِي كادتْ تخنقهُ في ليلهِ ونهارهِ.. لم تكنْ المرةَ الأُولى بالنسبةِ لعماد فمع الوقت يصبح الأمر عاديًا بل مطلوبًا.. كانَ يعِي أَن تقربَ الشابِ منهُ لم يكن صدفةً بالتأكيدِ هناكَ من دلهُ عليهِ، قالَ في نفسهِ «ما نفعُ فأسٍ قديم مُقابل آلاف من الدنانير؟».

في مرحلةٍ ثانية طُلِّبَ منهُ مُصادقةُ شخصٍ يُسمى حمادِي الوحيشي.. كانَ هذا قبل شهرين.. لم يكن بالأمرِ الصعب معَ وجودِ قواسمٍ مُشتركةٍ بينهُ وبينَ هذا الغريبِ عنه، مُعاقرةُ الشرابِ والافتخارُ بأرباحهما في صراعِ الديكةِ.. كما كانَ من السهلِ على عماد أَن يُوطدَ علاقة الصداقة المُزيفة بلسانهِ الزلقِ.. وقدْ كانَ كذلكَ لشهرينِ من الزمنِ كانَ كافيين لبيعهِ في تلكَ الليلةِ.

في ليلةِ مقتلِ حمادِي الوحيشي كانَ هناك.

اتصلَ بالشابِ صاحبِ حقيبةِ الظهرِ عندما غادرَ الوحيشي حسبَ الاتفاقِ.. أَعلمه بالوضع.. أَقفلَ الخط.. هيَ ربع ساعةٍ ووصلتْ سيارتهُ الزرقاءِ، لم يكنْ لوحدهِ، كانَ يُرافقهُ رجلٌ بدا مُسنًا.. أَشارَ إِليهِ الشابُ بعدمِ الاقترابِ.. رضخَ للأَمرِ.

بسروالٍ أَسودٍ رياضي وحذاءٍ عسكري اقتربَ الشابُ من عماد وبعدَ حديث قصير، سلمهُ رزمةَ الصكوكِ التي كانتْ بحوزتهِ.. تفقدها عماد ملهوفًا قبلَ أَن تنفرجَ أَساريرهُ.. بأَمرٍ من الشابِ تركَ عماد المكانَ حاملًا صكوكهُ وكيسَ مُشترياتِ الوحيشي ومضى جريًا بعيدًا عن المُستودع.

لكنْ الطبعَ غلاب ولأَنَ الكلب يموتُ وذيلهُ يظلُ يرقصُ.. عكَفَ عماد وراءَ أَحدِ صناديقِ القُمامةِ يستجلِي ما يُمكنُ أَن تفرزهُ بقيةُ الأَحداثِ.. راقبَ.. لم يتبين طولَ المُسنِ إِلا عندما نزلَ من السيارةِ وغادرَها نحوَ المُستودعِ.

اختفَى كلاهُما داخلَ المُستودع.

ظلَ يترصدُ الطرقَ إلى أَن عادَ الوحيشي، كان قد غيرَ ثيابهُ.. الهواء صارَ أَبرد.. شعرَ بذلك في تلَكَ اللحظة التي دلفَ فيها صديقهُ المُستودعَ.. ولم يخرج منها إلا بعدَ دقائقِ وهو محملٌ على كتفِ الشاب.. دسهُ بداخلِ حقيبةِ السيارةِ.. ركبَا وغادرا من نفسِ الطريقِ التي جاءا منها.

بينَ سيجارةٍ وأُخرى روى عماد في تلكَ الليلةِ الطويلة للمحققينَ علاقتهُ بحمادي الوحيشي، وحادثة سرقة دليلِ الجريمة.. وكشفَ لهم عن تورطِ الشابِ ذي حقيبةِ الظهر.. أَقسم أَنهُ لا يعرفُ لهُ اسما أَو مهنةً لكنهُ يُمكنُ أَن يتعرفَ عليه بسهولةٍ إذا شاهدهُ.

معلومةٌ أُخرى كانتْ جدُ مهمة بالنسبةِ للمحققينَ هو أَن مَقتلَ ياسين الغزي على يدِ ضوء الصغير لم يكنْ مُجردُ ثورة غضب فجائيةٍ للأَب المكلوم بل كانت جريمة مُخطط لها.. أَكدَ أَن الغزي كانَ مُتورطًا بطريقةٍ مُعينة بمقتلَ الطفلِ عادل الصغير.. وليسَ وحدهُ كانَ هناكَ حمادِي الوحيشي أَيضًا وشخصٌ ثالث وهوَ حسام الجريدي.

بصباح ما بعدَ التحقيقِ تم التوصلُ إلى دليلِ يثبتُ أَن عماد تحصل على دفعة ماليةً من جهةٍ مجهولةٍ في نفسِ الفترةِ التي اختفى فيها الفأس.. كما تم التأكيدُ أَنَ الجريدي الاسم الثالث المُتورطِ في مقتلِ عادل قدْ اختفى عن الأَنظارِ منذُ سنتينِ للآنَ.

***

١٩٨٨

اتكأ ضوء على جذع إحدى النخيلِ التي تزين خلفية فندق الغدير بوسطِ المظيلةِ، كان قد دخلَ عدة مرات للفندَقِ من بابه الخلفي الذي يقود مباشرة للمطبخ، لكنه حبذ أَن ينتظرها هُنا.. كاَن بحاجة لشخص يعرفه بالداخل، شخص يمكن أَن يثق به، فُتحَ الباب وظهرتْ حتى قبل أَنَ تسنح لهُ الفرصة ليرتاح قليلا، كانت ضئيلة الحجم بوجه صغير كوجه فأر دقيق الملامح وكبير العينين.

-أَنا هُنا

استدارت (سوسو) وراءها فزعة ليس من صوته الذي بدا مُجهدًا بلِ من وجهه وثيابهِ البالية، رغم الرغبة التي انتابتها في أَن تدفعه وتجري إِلا أَنها لم تفعل فهوَ لم يكن بالنسبة لها سوى ضوء الصيادُ، اقترب منها ببطء.. حدقت بالأعلى بوجهه الشاحبِ، وبشعيرات الأَوعية الدموية البارزة تحت جلد رقبته، ابتلع ريقه بصعوبةَ وقالَ

- ساعديني.

***

حدقتْ بالساعةِ، بانَ عليها الجزعُ للحظةٍ قبلَ أَن تتمالكَ نفسها

- قلتَ أَينَ وجدتها؟

كانتْ تُريدُ أَن تُمسكها بيدها، وأَن تخفيها عن عينيهِ وعيونِ الآخرين، تلمستْ خصلاتِ شعرها الطويلِ مرتبكةً.

-بالقربِ من جثةِ عادل.. على الأَغلب أَنها من القاتل.. سقطت منهُ.. انتظرتُ لأَيَام بالقربِ من المنجم القديم لعلهُ يعودُ ليبحثَ عنها.. لكنهُ لم يفعل.. لقدْ علمتُ أَنَ عددًا منَ الساعَاتِ قدْ وزعتْ بالليلةِ التي تسبقُ الجريمةَ.. في الحفلةِ التِي أُقيمت في هذَا الفندقِ، على من وزعَت؟ كم عددهم؟

بللتْ شفتيها وابتسمتْ قبلَ أَن تختفي ابتسامتُها

-وأَنتَ تظنُ أَنَ القاتلَ هو صاحب الساعةِ المفقودةِ؟!.

كانتْ عيناهُ تبرقانِ وكأنهُ مسكَ خيطًا مهمًا:

- على الأَغلب.. نعم.

التفتتْ حولها وجلةً وهمستْ:

- وأَنا، ماذَا يُمكنني أَن أَفعل؟

-أُريدُ قائمةَ الأَشخاصِ الذينَ وزعت عليهم الساعاتُ.. أَنتِ كنتِ هُناك.. أَتعرفينَ شيئًا؟

ضحكت هذهِ المرةَ ولم تخفِ ضحكتها وسخريتها:

- ماذَا يُمكنُ أَن تعرفَ معدة حلوياتٍ؟ مقامِي لا يتجاوزُ كراسي المطبخ.. لا أَعرفُ شيئًا.

لا تبدو ردود أفعالها مفتعلة خافت هذا مؤكد

-سوسو.. أَنتِ معرفةٌ قديمة.. من عائلةِ صالحة.. أُراهنُ عليكِ، اسمعي فقط أُريدُ معرفةَ أَسماءِ الرجالِ الذينَ تحصلوا عليها.. لن يكونَ هذا بلا مُقابل.. كلُ صنيع منكِ سيجدُ الامتنانَ منِي حتى لو بعتُ ما فوقي وما تحتي.. سأَبيعُ أَرض والدي لشركةِ الفوسفات.

تأففت وتراجعتْ خطوتينِ بعدَ أَن لمحت مُشرفها من نافذةِ المطبخِ العلويةِ -لقدْ تأخرتُ ضوء

تنهدتْ بتثاقل وهي تكررُ من وراء شفاهها الصغيرةِ الحمراءِ:

- لكنْ سوف أَرى ما يمكنني فعلهُ منْ أَجلكَ

قالتْ كلماتِها وقفلت راجعةً لعملها.

مع ذلك لعله لا يعرفها جيدًا كما يظن ولكنها الأَقرب لما يسعى إِلى تحقيقه ما الذي بقي ليخسرهُ؟!.

***

«الربُ يَخلقهم والشيطانُ يؤلف بينهمْ»

متاهة الأَرواح،

كارلوس زافُون.

أَرجعَ نصر الدين ظهرهُ للكرسي وهو يلقي نظرةً من تحتِ رموشهِ نحو رئيسهِ الصامتِ، استقامَ وقالَ موجهًا كلامهُ لزميلتهِ:

-إذن لنراجع ما توصلنا إليهِ.. يومينِ قبل ليلةِ المسرحية أَو ليلة ما قبلَ وفاةِ هلال، شاهد عم سعيد حمادي الوحيشي وهو يقتفي أَثرَ هلال مُترجلًا هنا.

وضع الغزواني دائرةً على المكانِ المفترضِ على الخريطةِ بلونٍ أَصفر:

-كانَ سعيد القفصي مُعتادًا على رؤيةِ هلال لكنَ هذه أَولُ مرةٍ يرى المُتعقب، لنقل أَنه فقط كان يمشي في اتجاهِ الضحية الذي وجدَ مُحترقًا بعدَ عدةِ ساعاتٍ في منزلهِ المؤجر.

وافقتهُ شوق:

- في مكانٍ لا يبعدُ سوى عدةِ كيلومتراتٍ عن مكانِ مقتلِ عادل الصغير، شرق المنجمِ القديم وطبعًا غيرُ مرئي بالنسبة لعم سعيد.

تابعَ نصر الدين شرحهُ:

-كما نعرفُ أَيضًا أَن هناك صلةٌ بينَ هلال وعم ضوء والدُ عادل.. ونعرف لماذا كانَ هلال يتوجهُ لتلكَ الأَماكن.. وأَنهُ لا وجودَ لمعرفة مسبقة بينَ الضحية والقاتِل قبلَ هذه الليلة.

تدخلتْ شوق:

– تم تأجيرهُ للقتلِ.. أَلقى عماد بعض الضوء على طبيعة عمل الوحيشي لذلك نملك أسبابًا لنعتقدَ ذلكَ.

سأل نصر الدِين:

– من قبل الغُزي والجريدِي؟

أَردفتْ شوق:

– الأَولُ كان موظفًا بفندق.. والثاني كانَ موظفًا بالمُختبر.. لا أَعلمُ عن الأَول ربما كان مجردُ ساعٍ أَو شريكٍ لكن الجريدي يناسبُ أَوصافَ القائدِ، لكن ما مصلحتهُ من الأَمرِ؟ كانَ مجرد موظفٍ برتبةٍ كبيرةٍ لكنْ لما هو مهتمٌ بالتغطيةِ عن شكوكِ تلويثِ المياهِ؟

التفتَ نصر الدين لرئيسهِ الذي ترك لهما المجال للنقاش

–سيدي، نعرف لمِ قتلَ هلال، نعرف أَن الوحيشي كانَ المنفذ وأَن الجريدي والغزي من أَعطوا الأَوامر، على الأَقلِ واحد منهما.. لكنْ يبقى ما مصلحتهما من ذلكَ؟ وعادل ذلكَ الطفل كيفَ تَورطَ في الأَمرِ.

أَجابَ الغزواني وهوَ يتطلعُ إِلى صورةِ عادل المعلقة في اللوحِ الأَولِ:

–لقد رأى شيئًا كَان من المفروضِ أَن لا يَراهُ.

من بين الكثير من لحظاتِ الصَمتِ التي تلقى عليهم كانت هذه أَثقلهم.

***

برزتْ شوق منَ الباب عندما باغتها الغزواني بالسؤالِ:

– أَينَ نصر الدين؟ إِنهُ يختفي بدونِ إعلامي

تفحصتهُ شوق، كانَ جالسًا ورافعًا قدميه على الطاولة حتى بان ظهر حذائه ذي مقاس ٤٣

-إنهُ يُراقبُ إحداهنَ.

أَنزلَ قدميهِ:

- ماذَا؟

توجهت إليهِ وجلستْ بجانبهِ:

- سوفَ أُفسرُ لكَ

التقطت صورةً من حافظتها وتابعتْ:

- هذهِ الصورةُ.. هناكَ نسخةٌ منها بمنزلِ سهام.. صورةٌ لفريقِ الطبخ الذي كانتْ عضوةً فيهِ، مُدونٌ عليهِ تاريخَ التقاطِهَا جوان ١٩٨٨ بمناسبةِ احتفالية ثلاثينيةِ الشركة المتوسطيةِ.. قبلَ أسبوعينِ من جريمةِ الطفلِ.. انظر

أَشارتْ إِلى إِحدى الفتياتِ في الصورةِ:

- إنها السيدةِ سهام لا ريب.

-نعم، كذبت.. قالتْ أَنها لم تعمل بالمظيلةِ.. تابعي من فضلكِ.

-هناكَ صفحة على الفايسبوك بعنوان (تُراثِ المظيلة).. نشرَت هذه الصورةَ منذُ عامينِ مرفقة بقائمةِ أَسماءِ المشتركينَ في فريقِ الطبخ.. سألتُ صاحبَ الصفحةِ عن مصدرِ الصورةِ.. وهنا كانتْ المفاجأَة إنها زَميلةٌ سابقةٌ للسيدة سهام، تواصلتُ معهَا.. نعم لا تنظر إليَ بهذهِ الطريقَة.. أَكدتْ أَنهما عملتَا في خدمةِ الشركةِ المتوسطيةِ لسنتينِ ما بينَ سبتمبر ١٩٨٧ وأُوت ١٩٨٩.. قبلَ تفريقِ شملهِنَ.

-هذهِ لم تكذب فقط.. بل زيفت الحقائقَ وقصدتْ خداعنَا!.

-قبل زواجها منَ الوحيشي كانت السيدة سهام أَو الآنسة سوسو كما كانَ يُطلقُ عليها في ذلكَ الوقتِ، تعمل كصانعةَ حلوياتٍ تونسيةٍ تحت رعايةِ شافِ مطبخ معرُوف، كان مشرفًا على التجهيز لحفلاتِ الشركة هُناكَ.. أَكدت صاحبتها القديمة في مكالمةٍ مُطولةٍ دارتْ بيننا أَنها على معرفةٍ بعادل الصغير بل كانتْ المُكلفة بتبليغ والده بطَلباتِ الطباخِ الرئيسي من حبارى وحجل وغيرِه من الطيور، كما كانتْ على علاقة بالوحَيشي منذُ تلكَ الفترةِ.

-هل تظنينَ أَنها شريكتهُ؟ عماد لم يذكر تورط امرأة في الأَمر.

-أَعرفُ أَنها كاذبة وهذا سببٌ كافٍ للشكِ بها.. لذلكَ لقدْ تركتُ نصر الدين يُراقبُهَا.

-ماذَا؟ بدونِ إذني؟

-نعم.. كانت لدي شكوكي.. كما أَنك لا تُخبرنا بكلِ شيءٍ.

أَومأ برأسهِ غير راضٍ لما يَسمعهُ

-ستتحدثُ حولَ الأَمرِ فيما بعد.. لن أتجاوزَ عما فعلتهِ من ورائي.. كلاكُما.. لكن الآنَ انضمي إِلى نصر الدِين، ثمَ أطلعيها على هذهِ الصورةَ واسأليها إِن كان وسبق لها أَن شاهدتْ الوحيشي مع ياسين وإِن كانتْ تعرفهُ شخصيًا.. ولنرى ردة فعلها.

-شوق.

استَدارتْ مع ندائه، اقتربَ منهَا

-هل أَستطيعُ الوثوقَ بك شوق؟ لا أَستطيعُ أَن أَعملَ وأَنا أَشكُ بمنْ حولِي.. يمكنني أَن آمركِ بتنفيذِ أَوامري، ستنفذينَ هذَا واجبكِ.. لكنني أُفضلُ الثقَةَ.. لقد قطعتُ وعدًا.

-نعم، لكن ليس لي.

١٩٨٨

أَغلقت سوسو البابَ واتجهت نحوهُ، اتكأت بمرفقها على الطاولةِ وانحنت -لنعقد صفقة.

كانَ ياسين الغزي يجلسُ ببدلته ذات القطع الثلاث بأواخر أيام شهر جوان على كرسي مكتبه، عندما أنهتْ سوسو كلامها بل تفاصيلَ الصفقةِ التِي تُريدُ إبرامها معهُ.. قام عنِ كرسيه وقدْ ظهرتْ ملامحُ الصدمةِ على ملامحهِ، بأَصابعَ مرتجفةٍ فتح كل أَزرار بدلته ووجهَ كل اهتمامه نحوها، بعد أَن كاد لا يرفع نصف نظرة نحوها مُطلقًا ابتسامة مُرتبكة:

- أَتبتزينني يا سهام؟!

استقامتْ، زمت شفتيها بتعبير صبياني وردتْ:

- إِنني أَعرضُ مُفاهمة مُربحة لكلينا.. فكر.

أَدارَ بذهنه كل ما باحتْ بهِ منذ دخولها، تريد أَن تعقد صفقة حيث تكون رقبته تحت رجلهَا، رقبتهُ الهزيلة التِي تهتزُ مع كلِ فرقعةٍ أَو صوتِ تحطيم إِناءٍ في هذا الفندق، إنه أَضعفُ من أَن يُسايرها وأَضعفُ بمراتٍ أَن يخسرَ منَصبهُ ورفاهيتهُ ويزج بالسجنِ أَو يموتَ بسببِ ضوء الصغير أَو بسببها.

أَخبرته عن ضوء وعن الساعة وعن إِصرارهِ الكبير في كشفِ قاتلِ ابنه.. أَعلمتهُ بالصفقة التي سيبرمها معها وعن بيعه للأرض مُقابلَ قائمةَ أَسماء المُنتفعين بالساعة، ختمتْ كلامها باقتراح صفقة أُخرى عليه:

– سأَكتم أَمر القائمةِ عن ضوء مُقابلَ مكسبٍ مالِي يغنينِي عن السماح باقتراحِ ضوء بأَن يدغدغ خياشيمي!.

تطلَع إِلى وجهها مليًا، شابةٌ تبتزه لا وصف للأمر.. ابتزاز له ما يبررهُ.

أَردفتْ بلهجةٍ فيها شيء من القوة:

– أَعرف أَنك قد تواطأت مع حمادي الوحيشي مُقابل قتل هلال المحمدي لقد شاهدتُك من نافذة المطبخ وأنت تسلمه الساعة ليلة ما قبل القتل.

–لا يُمكنكِ إثباتُ ذلكَ.

–نعم لا يُمكنني.. لكنِ ضوء في روحه من اليأسِ الشيء الكثيرَ ليصدقَ أَي معلومةٍ مني.. يُمكنكَ أَن ترفضَ وأَن تُراهنَ علىَ عدمِ تصديقهِ لكلامي.

نظرَ إِليها مليًا وضحكَ مُرتبكًا، أَدارَ وجههُ وجلسَ.

–إِذن ما رأيُكَ؟ صفقةٌ جيدة أَليسَ كذلكَ؟

***

إذا فشل الشيطان في التسللٍ إلى مَكانٍ أَرسلَ امراةً مثل صِينِي..

فتحَ عينيهِ، سارعت يدهُ تمسكُ بالمُسدسِ تحتَ وسادته، دخلت شوق باسمةً.. تجاهلت وجودهُ ومرت من أمامه

- استيقظ

أَزاحت الستائر بقوة عن النوافذِ، اندفعَ الضوء مُخترقًا ظلامَ غرفةِ العملياتِ، استقامَ مرتبًا قميصهُ على جسدهِ.

تحولت نظراتهُ الحائرة للملف الذي تحملهُ

-ما هذا؟

-القطعة الناقصة.. لقد أَرسلَتْ شرطةُ المتلوي الملفَ.

بدا حائرًا، لا يزالُ النومُ يُغالبهك

- قبل ستِ سنواتٍ تورط الوحيشي في شجارٍ عنيف بعد مبارات دربي، كانت قضية كبيرة انتهت بالكثير من المتورطينً في السجن، وقد كانَ من بينهم، أَتعرفُ من الذي كلفَ مُحاميًا شهيرًا لإخراجه كالشعرة من العجينِ من التهم المُوجهةِ ضدهُ؟

-بالتَأكيدِ شخصٌ يَملكُ ما يكفي من مالٍ ومن مصلحتهِ أَن يفرجَ عليهِ

-نعم.. إنهُ المُختفي حسام الجريدي.. السؤالُ هنا لماذا مدير قسم البحوثِ في شركةٍ شهيرةٍ يتدخلُ لصالح مجرم مثلهِ؟

-لأَنهُ حلقة الوصل بين الوحيشي وهلالْ وياسين الغزي.. هنا نتأكدُ أَن للوحيشي علاقةٌ متينة بالجريدي.

كانَ ممتنًا لها.. إنها تعرف جيدًا شعور الدونية التي تجتاحها بعد كل جدال مع أَحدِ إخوتها أَو حتى والدها، كانت عائلتها ذكورية بامتياز جنسًا وعقلية، ولولا مُساندة جدها اللواء السابق لها لما تمكنت حتى في أَحلامِها من اقتحام هذا الميدان الذي لطالما ما وصفه والدها بأنه «مجال الرجال» تذكرت إِخوتها ذوي الرتب العالية في الجيش والشرطة والجمارك، تذكرت رائحة وملمس بدلاتهم الرسمية رغم أَنهم لم يحظوا بتعليمها الذي يفوقهم جميعًا.

-السؤال هُنا أَين الجريدي؟ استدعِي نصر الدينِ فلينهي مراقبةَ سهام حتى نتحصلَ على شيءٍ ضدها وليأتِ إِلى هنا.. يجبُ أَن نجدَ الجريدي قبلَ فواتِ الأَوانِ.

***

عندمَا قرر أَن يَخَرجَ منْ وراءِ المفرشِ الذي يغطِي السياجَ الخشبي سمعَ وقع أَقدام بالأَعلى، انخفضَ وعندمَا همَ أَن يدخلَ المنزلَ لمحَ سهام وهيَ تخرجُ لمقدمةِ الشُرفة، تسمَّر في مكانه من وراء الشُجيرة، ظلتْ عيناهُ تراقبُ، وكأَنهَا كانتْ تبادلهُ النظرات بدونِ أَن تُدركَ ظن أَنها لمحتهُ غير أَنها لا تبدُو أَنها قد رأَت شيئًا خطِرًا، بدتْ وكأَنها مُستغرقة في التفكير أَكثر من المُراقبة رَجعتْ وهيَ تتكلم بالهاتفِ.

«ربما حَانَ الوقت»

انتظرَ بضعَةَ ثَوانٍ ثم توجهَ نحو الجانبِ الآخرِ من المنزلِ وهو يحمل تحتَ إِبطه مسدسًا.

كانَ يعتزمُ أَن ينتظر أَكثر ولكن الشمس قاربتْ الاختفاءَ وبقيةُ المعزين سيخرجونَ قريبًا، كان يمكنُ أَن يستنتج ذلك من خلال مُراقبة نافذة الصالة الرئيسيَة.. يتعاطفونَ، يتسامرُونَ.. تمسحُ هيَ دموعها، تظنُ أَنها ستعيشُ بعدهُ حياةٌ ستبدُو مرتاحةً، ستنقلبُ رأسًا على عقبٍ في الساعات القادمةِ على الأَغلبِ.

***

غمغمَ نصر الدِين وعيناهُ منصبتانِ بتتبعِ الأَرقامِ على الورقةِ:

- كلُ المدفوعاتِ الماليةِ التي حولتْ لحسابِ الوحيشي كانت قادمة من شركة التطوير العقاري بالجنوبِ.

طلبتْ شوق توضيحًا مُناسبًا

-على ملكِ من؟

-احزري؟ على كل.. الشركةِ على ملك شخص اسمهُ (محرز حلواس) وزوجتهُ السيدة (فريال الجريدي).. شقيقةُ حسام الجريدي.

تفاجأت شوق قبلَ أَن تستديرَ للغزوانِي الذِي بدا مهتمًا أَكثر بتفحصِ وثائقَ مُختلفة

- أَينَ قرأتُ هذا الاسم؟ أَنا متأكدة أَنني مررتُ عليهِ سابقًا.

رفعَ الغزواني الأَوراقَ التي يتفحصُها وقالَ:

- وهو كذلكَ.. إِنها نفسُ الشركةِ التي ترأست فريقَ شراءِ الأَراضي من المُتساكنينَ.

أَكدَ المُحققُ المسئولُ هذهِ المعلومةَ وهوَ يدفعُ أَمامها بأَحدِ وثائقِ شراءِ الأَراضي التي تعودُ لربعِ قرنٍ.

يَذكرُ والدهُ حكاية لجده عندما كان يستشعرُ اقترابَ أَمر جلل، ينهضُ من قُعاده إن كان جالسًا، وينتصبُ بجانب ما غدا فيها بَعدُ موضعَ البئر.. تتوسعُ عيناهُ وَتحمرُ حدقتاهُ تحسسًا من الخبر القادم شؤمًا أو فرحًا، لا يأتي حراكًا أو كلاما حتى يتبينَ معهُ الأَمرُ، هذا الشعورُ ينمو معهُ حتى تحل عقدهُ ويبرزُ بوجهه.. يذكرُ المُحققُ هذهِ الحكايةِ كلما دفعهُ حدسهُ ليتحققَ من شيءٍ ما.

يتذكرُ أَن أَمرًا شبيهه يصيبهُ في نومهِ يجزمُ أَن أَحدًا ربتَ على كتفهِ ليوقظهُ كالمُنبهِ وفي غالب الأمرِ كان تنبيهًا يُجانبُ الصوابَ.. إن كانتْ الشركةُ أَو باعثوها قدْ اعتنوا بالوحيشي طوالَ هذهِ السنوات فلم يكنْ الأَمرُ من فراغٍ أَبدًا.

اعتدلَ الغزواني في جلوسهِ، واكتفى بالتحديقِ في الفَراغِ قبلَ أنْ يقولَ فجأَةً:

– نصر الدين أُريدُكَ أَن تتواصلَ مع مصلحةِ المسح العقاري وتخطيط الأَراضي، أُريدُ كلَ المعلوماتِ التي تتعلقُ بصفقاتِ شراءِ الأَراضي المُتاخمة للحزام الأَصفرِ منذُ إنشاءِ الشركة المُتوسطيةِ، شوق اذهبي للشركةِ أُريدُ كل إعلاناتَ المناظراتِ، تواريخها وقائمةُ المنتدبين منذ الثمانيناتِ للآن.

***

انبعثت رائحةُ السكرِ والزبدةِ المحروقةِ في الأَجواءِ.. ومض البلاطُ الأَبيضُ من تحت الأَضواء، يقع محلُ سهام للحلويات على الطريق الرئيسية لوسط مدينة المظيلة يكلفها كراء المحل مبلغًا شهريًا كبيرًا، لكنها تعوضهُ بنجاح سمعة حلوياتها المعِدةِ من أَفضلِ المكوناتِ الدقيق والشكولاته والجلَجلان والدرع «السرُ في الزبدة» ابتسمت لهذهِ المقولةِ وهيَ تغلقُ دفترَ الحساباتِ لهذهِ الليلةِ.. أَلقت بقطعة اللبان المر منْ فمها.

رحلت مساعدتاها منذُ نصفِ ساعةِ على الأَقلِ، وهيَ بدورها لم تستطع إغلاق بابَ محلها أَمامَ الزبائنِ حتى في أَيام الحدادِ، وكانتْ مُجبرةً على إِعداد العديد من الأنواعِ التي تسلمتْ ثمنها مُسبقًا، جالت عيناها في الرفوفِ والمناضدِ الزجاجيةِ وما بقيَ من قطعِ الغريبة والكرواسون والبقلاوةِ، لقدْ حققتْ كلَ هذا بجهدها حتى لو كانَ هذا بطرقٍ ملتويةٍ وخادعة.

ركزت بصرها على كعكاتِ تحملُ أَشكالَ وجهِ المهرجِ، لم يطعمها الله بطفلٍ يحملُ ملامحها أَو يتذوقُ ما تصنعه يديها.. رُبما هو عقابُ الله.. أَخذت نفسًا عميقًا وقامتْ عن الكرسي، والتقطت مفاتيحَ المحلِ التي كانت ترقد فوق كومة من أَوراقِ الطلبات «فلتنتظر» كانت قد منحت صانعتيها إِجازة ليومينِ، على أَن تعودَا بعدَ أَن تتهيأ نفسيتها للعملِ من جديد.. هذا ما أَخبرتهما إِياهُ لكن كانت تحتاجُ إِلى العودةِ إِلى صفاقس ستبقى عندَ صديقةٍ لها إِلى أَن تنتهي هذهِ الفوضى.

فوضى بدأت تتكونُ منذُ أَن قررتْ خداعَ ضوء الصغير.

فكرت أَن كل حياتها، بل منذ ذلكَ اليوم إِلى هذه الدقيقة تتمحور حول هذا القرار.. قرار كانَ يمكن أَن ينقذ علاقَتَها بحمادي الوحيشي خطيبُها في ذلكَ الوقتِ وأَن يُحددَ مُستقبلها.

فإِلى أَي نقطة يمكن أَن تصل لتحقق آمالها المؤجلة والتي قاربت على تلقي حكم الإعدام مع مرض والدِها؟ ماذا يفترضُ بها أَن تفعل؟ أَن تضيع فرصة ثمينة مثل التي وضعها ضوء بيدها؟ ليسَ خطأها أَن قرارها كانَ له تأثيرٌ عكسي على حياة ضوء؟ فلقدْ كانتْ الأَجدرُ بالرثاءِ، فوالدُها كانَ مريضًا

وصغارُها القادمونَ كانوا بحاجةٍ إليها ليَكبروا ويتعلموا. لذلكَ قررتْ أَن تتحلى بشجاعةِ الخداعِ وتقبلِ عذابَ الضَميرِ.

كانَ هذا ما فكرتْ بهِ عندما عرضتْ صفقتها على ياسين الغزي قبلَ رُبعِ قرن، لكن الآنَ هاهيَ وحيدة لا حمادي ولا صغارُ يحملون دمها.

عندما كانتْ تهمُ بارتداءِ سترتها الخفيفةِ فتحَ البابُ المُزدوجُ الرئيسي.. دققتْ النظرَ في زوج الأَحذيةِ السوداءِ اللامعةِ التي ظهرتْ، رفعت رأْسها وتطلعت لوجه القادمِ.. قبضت جيدًا على سلسلةِ المفاتيح بطريقة غريزية، بينما كادَ قلبها يخرجُ من بينِ ضلوعها.. لم تعد قادرةً على الحَراكِ.. لم تعد تشمُ سوى رائحةَ الذعرِ.

***

كانَ نصر الدين قد أَجرى بحثهُ الخاص عن الشركة المُتوسطيةِ فما كان يعلمه لا يتجاوز ما يعلمه غيره من أَهلِ البلدةِ، علم أَن مجموعة التكتل المنجمي كانت من أَكبرِ الشركات الرأَسمالية العاملة في مجال استخراج الموارد المنجمية، لديها فروع نشيطة في أَكثر من ١١ دولة كالمغرب، بدأت كشركة صغيرة كانت على ملك أَخوينِ ايطَاليين قبل أَن تقاربَ الإفلاس لسوء الإِدارةِ.. اشترى أَسهمها أَحدُ رجَالِ الأَعمالِ الفرنسيينَ قبلِ ٦٠ سنة وغيرَ اسمها للشركةِ المتوسطيةِ.. ضاعفَ المُساهمونَ رأسَ المال، أَدى هذا إلى نموها وتوسعها والسيد سالمْ ليسَ سوى المُدير التنفيذي للفرعِ التونسي.

مع مراجعةِ وثائقِ مصلحةِ المسح العقاري تبينَ أَن مساحةَ الأَراضي التابعة للشركة بين سنواتِ ١٩٧٠ وسنة ١٩٨٩ و ٢٠١٢ قدْ توسعت عشراتِ الأَضعافِ غمغمَ نصر الدِين

-الاستيلاء على الأَراضي قطعة قطعة.. انظروا هنا.. ثلاثةٌ من الباعة لم يستلموا نقودًا، لا سجلات لذلك أَبدًا، باعوا أَراضيهُم مقابل ماذا؟

أَوضحَ الغزواني وهو يتفحصُ قائمة الانتدابات في منتصفِ الثمانيناتِ

-مقابل ما هوأَهم من المال.

-ماذَا؟

وضحَ أَكثر

-صفقات مناظرة انتداب موظفين في شركة فوسفات.. أَغلبُ البائعينَ أَصبحوا عمالًا أَو موظفينَ بالشركةِ ومنجمها ومصنعها.. حتى أَولادهم وأَحفادهم كانوا من ضمنِ المنتدبينَ في كل دورةٍ يتمُ الإعلانُ عنها.

مرت دقائق، لم يقولوا فيها شيئًا، زفرت شوق محبطة

-يشترونَ الأَراضي القريبةِ من المصب ليداروا حقيقةَ تسممِ المياهِ والتربةِ وكأَنَ هذَا لا يكفي.. يزورونَ تقاريرَ سلامةِ المياهِ.

انحنى نصر الدين وأَضافَ:

-حسبَ صديقِ هلال كانَ هلال قبلَ موتهِ ينوي تقديمَ كلَ النتائج التي توصلَ إِليها لوزارةِ البيئة، وهنا كانَ لابدَ من إسكاتهِ.. وهنا يأَتي دورُ حمادي الوحيشي الذي كانَ يتتبعُهُ، والواضحُ أَنهُ قتلهُ ثم افتعلَ الحريقِ.

-لا تنسي يا شوق أَن خبيرَ الحرائق أَكدَ على أَن حريق منزلِ هلال كانَ مفتعلًا وأَن حدوثَ جريمةِ قتلِ أَمرٌ مفروغٌ منهُ.. ذكريني منْ كان المسئولُ عن مُراقبةِ جودةِ المياهِ في الشركةِ في ذلكَ الوقتِ؟

توجهَ الغزواني بالسؤالِ لشوق التي تفحصتْ كومةَ الأَوراقِ التي أَمامها قبلَ أَن تتوقفَ

-صادق عكاشة.

-ماذَا نعرفُ عنهُ؟

-ليسَ الكثير.. تقريبًا لا شيء.. هل يُمكنُ أَن يكونَ متورطًا أَيضًا؟ بهذهِ الحسبةِ يُمكنُ أَن يكونَ كلُ من في الشركةِ مُتورطٌ أَيضًا.

-يجبُ أَن نتحقق من الأَمر.. نصر الدِين ابحث عن معلومات عنه سيُساعدُكَ مُحسن.. لقد التقيتهُ سَابقًا عندما كنتُ أَبحثُ عن معلومات عن هلال في الشركةِ.

أَخذَ مرؤوسهُ ركنًا بعيدًا ليَتصلَ بمُحسن بينما أَعادتْ شوق ملء فناجينَ القهوةِ الفارغةِ، فكر الغزواني في هذهِ الأَثناء بأَنهُ ظنَ بأَنَ الزمنُ كفيلٌ بدفنِ كل الأَشياء، حتى تلكَ التي كانت تعني شيئًا لهُ حتى عادل، حتى طريقةَ موتهِ، ما يظلُ حقًا هو الإحساس بالفراغ، بشبحِ الأَلمِ يعصرُ معدتهُ لحدثٍ فاجعٍ في صندوقِ ذاكرتهِ يعودُ لصباحٍ حارَ لسنة ١٩٨٨.

عادَ نصر الدِين راكضًا وهوَ يخبرُهم بأَن مُحسن تأَكدَ من أَنهُ في الفترةِ التِي كانَ فيها الوحيشي في السجن كانتْ زوجتهُ سهام تسحبُ أَموالاً محولة لحسابها من نفسِ الجهةِ التي كانتْ ترسلُ لزوجها.. شركة التطوير العقاري بالجنوبِ.

***

١٩٨٨

رفع رأسهُ عن دفتره عندما سمع نغمة جرسِ الباب الزجاجي لمحلهِ وهي تعلنُ قدوم أَحدهم، دخلَ رجلٌ أَربعيني وعَليه علاماتُ السفرِ والتعبِ بقميصٍ تبقعت عليهِ قطراتُ العرقِ، ابتسمَ لهُ بينما سارَ الدخيلُ مباشرة نحو لوحةٍ عرض السَاعات.

واصلَ الصائغُ ذو الجفونِ المُزدوجة حديثهُ مع الزبونةِ التي استقرَ رأيُها على شراءِ خاتمٍ ذهبي قيراط ٢٤ وهيَ تُرددُ

-يا عم روني والله ١٠ دينارات للغرام الواحد كثير والله!.

-الله يعوضكَ، هذا حكمُ السوقِ.. وأَنتِ تعرفينَ الوضعَ خاصةَ بعدَ الأَحداثِ الأَخيرةِ.

نقدتهُ المبلغَ وانسحبت منْ أَمامهِ وقد دستْ خاتمها في جوفِ حقيبتِها.. أَغلقت الباب.

كانَ المحلُ مضاءً بشكل يخطف الأَبصارَ خاصةً وأَن ضوء كانَ لا يزالُ يشعرُ بصداعٍ مضاعف، فركَ عينيهِ وهوَ يتفقدُ ما يراهُ بداخلِ المنضدةِ الزجاجيةِ حتى لمحَ ساعةً شبيهةٍ بالتي يحملها في جيبهِ، ماذَا يفعلُ في مكانٍ كهذا؟

استدار الصائغ اليهودي ووضع دفترهُ بأَحدِ الأَدراج بدون أَن يخفض نظرهُ عن الغريبِ الواقف أَمامه مُتعبًا ومكفهر الوجه، اقترَبَ منهُ محافظًا على ابتسامتهِ

- هل من خدمة؟

كان ضوء بالكادِ قادرًا على ابتلاعِ لُعابهِ فلم يقدر على الإِجابةِ فورًا.

-أَتيتَ من مكان بعيدٍ؟

تباطأ ضوء عند الرد لكنه قال بعد برهة:

- نعم جئتك من المظيلةِ

كان مُرهقًا، ركبَ النقلَ الريفِي من المظيلة إلى وسطِ مدينة صفاقس لقرابة أَربعةِ ساعات قاطعًا مسافة أَكثر من ٢٢٠ كيلومتر معتمدًا في مرحلة ثانيةٍ على سيارة أُجرة ثمَ أَكملَ السير على رجليهِ سائلًا المارينَ عنْ مكانِ سوقِ البركة[١].

لئن كانَ يعرفُ إلى أَي مكانٍ يتوجهُ إلا أَنهُ لم يعرف من يقصدُ تحديدًا.. كانتْ هذهِ أَولُ مرةٍ يرى هذا المكانَ أو يُشاهدَ هذا البريقَ الذي تنشرهُ محلات الذهب.. توجهَ حسبَ نصيحةِ أَحدهم إلى شيخِ الصاغةِ الصفاقسية ليوجههُ بدورهِ إلى السيد (روني)، فهو حسبَ تعبيرهِ الوَحيدُ المختص في نقش شعارٍ بهذهِ الدقةِ على قطعةٍ من الفضةِ.

التقطَ ضوء الساعة منْ جيبهِ ووضعها فجأةً بين أَصابعِ البائعِ

- هل هذا عملكَ؟ أَقصدُ النقشَ والحرفين بالفرنسيةِ؟.

قرب روني رأسه أَكثر ودقق في تفاصيلِ الساعةِ بينما وضحَ ضوء مُبتغاهُ

-أُريد أَن أَعرف إِن كنت من نقش شعار الشَركة على ظهر خلفيةِ هذه السَاعةِ بل جميعَ الساعاتِ الإِحدى عشرة.

(١)سوق الذهبِ.

-جميع الساعاتِ؟ لماذا تسأَل؟

ضاقت عيناهُ:

- ومن أَنتَ لتسأَل؟

-أَنا.. أَنا رأَيتُ هناكَ

استدار لجهةِ اليسارِ لمنضدةِ الساعاتِ

-هُناكَ نفسُ العلامة التجارية لهذه الساعةِ في المنضدة يعني.. أَنا أَقصدُ أَنني أُريدُ فقط سؤالكَ عن النقوشِ.

-أَنتَ لم تجبني.. لم تسأَل؟

ضيق حواجبه السميكة

- عفوًا.. لا تبدُ من الذين يحملوا ساعةٍ كهذهِ، كما لا تبدو مُهتمًا بقيمتها!.

-اهتمامي كله منصب على صاحب الساعة.. أَقصد.. أُريدُ أَن أَعرفَ منْ تقصد بهذينِ الحَرفينِ؟.

بادلَ سؤالهُ بنظرةِ شك، فإن كانَ الغريبُ سارقًا أَو محتالًا فهذهِ طريقةٌ غريبةٌ في الاحتيالِ، صبغت نظَراتُ الشك ملامحهُ التي أَصبحت جادةً فجأَةً وارتفعت نبرة صوته:

- إِن كنتَ تريدُ أَن تشتري أَو ترهن أَو تبيعَ فَإِنني بالخدمةِ غيرَ ذلكَ لا مجالَ لأُساعدُكَ.. من فضلكَ!.

رفعَ ضوء رأسهُ نحوهُ، أَحجم عن الرد عليه للحظاتٍ لم يكن يريدُ الخروجَ بدونِ إِجابةٍ.. لم يصل إِلى هذهِ المدينةِ الغريبةِ عليهِ لكيْ يعودَ بلا شيء، بينما ظلَ روني يتفرسُ في وجههِ.

كانت سهام قدْ أَخبرتهُ بعد عدةِ أَيام من لقائهما أَنها لم تَعرف سوى أَن هناكَ ١١ ساعةً وزعتْ على عددٍ من الحضورِ، وقد نقشَ على كلٍ واحدةٍ منها شعارُ الشركةِ وحرفين من اسم المُستلم، اعتذرتْ منهُ بعدَ أَنَ أَخبرتهُ أَن الساعاتَ كانتْ من سوق الذهبِ بصفاَقس ولا يُمكنها أَن تعلمَ أَكثرَ من ذلكَ.

سحب ضوء نفسًا طويلًا مطلقًا عيون دامعة ونظرات مرتعشة

-لا أُريد أَن أُسبب لك أَي ضرر

ضحك من الغل حتى دمعت عيناه

-إِنني أَب قُتل ابنهُ

وصله صوتُ مؤذن الجامعِ خافتًا ناعسًا معلنًا صلاةَ الظهرِ

-بجاه هذا الاذان إِنني أَبحثُ عن قاتل ابنِي فقط.. يا سيد رُوني إِن.. سدت الغصة حلقه ولم يكمل.

تفاجأ روني لهذا التحولِ، لانتْ أَساريرهُ قبلَ أَن يتنحنحَ ويقول

-الله يصبرك لن أَسال عن علاقة الساعة بمقتل ابنكَ.. ولكنْ.

رفعَ يدهُ وحد صوتهُ

-هذهِ الساعةُ كانت بجانبِ الجثة.. بلغني أَنكَ من نقشهم.. ساعدنِي.

-صاحبُ الطلبِ معلوم يا ابني

دق بأظافره على شعار الشركة

-أَما صاحبُ هذهِ الساعةِ تحديدًا فلا أَعرفهُ، أَنا نقشتُ الحرفينِ دلالة على أَول حرفين من الاسمِ واللقبِ لكن لا أَعرفُ اسم أَيٍّ منهم.. دوري فقط كانَ نقش الحروف التي بلغت بها على صدر الساعاتِ والشعار على ظهرها

وإِن كنتُ أَعرف فلم أَكن سأُخبركَ أَبدًا هذهِ المهنة أَمانة بينَ يدي.. أَسرار ناس.

سكتَ وأَضافَ

– ولكنني سأجيبكَ عن أَمرٍ واحد فهوَ ليسَ بسر، سلمتهُم حسب الطلبِ لشخص قال أَنه مسئولٌ عن الطّلبات بفندق الغديرِ بالمظيلة.

–مسئول؟

–نعم

هرش فروة رأسه، بدا بالفعل مترددًا قبل أَن يقول بدونِ أَن ينظرَ إِليه وكأَنهُ يتكلم مع نفسهِ

–سأُصحح لك شيئًا، وهذه آخر وأَول معلومة أَقولها لم تكن ١١ ساعة فضية بل ساعةً واحدة فضية و١١ ساعةً ذهبية.. من أَعلمكَ بأَنهم ١١ ساعة فضية كانَ يكذبُ عليكَ!.

***

«إن حرية الإنسان، حقه أن يَرفضَ أو يقبلَ أو يَرُدَ الاعتداءَ،

جزءٌ لا يتجزأُ من جسدهِ وكيانهِ ولحمهِ وأنسجتهِ الواقية الحَيةِ»

العسكري الأَسود،

يُوسف إدريس.

كانَ البابِ المُزدوج لمحلِ المُرطباتِ مفتوحًا على مصرعيهِ.. دفعَ الغزواني الباب برفق.. دخلَا.. كبسَ الغزواني زر الإضاءة عدة مرات لكن المصباح لَم يعمل «الكَهرباءُ مقطوعةٌ» قطعُ الكَهرباءِ عادةٌ صيفيةٌ مقيتةٌ بالمظيلةِ.. نزلت شوق الدرج بهدوء خلفَ الغزواني.. الظلام كان يشتدُ كلما تقدمت بهم خطواتهم بداخل الرواق الحارِ تشممت رائحة المنكهاتِ والحلوياتِ.

كانت الغرفة فارغة، أَرضية مبلطة نظيفةٌ.. وقفت شوق أَمام المنضدة التي عرضت عليها عدة صفحات من جرائد مُتناثرةٍ، سلطَ الغزواني إضاءة هاتفهِ عليها، إحداها مفتوح على خبر موتِ الوحيشي. كانتْ سلسلةُ المفاتيحِ على الأَرضِ.

ظلتْ شوق تتفرسُ بما جانبِ النافذة، عُلقَتْ على المشجب قبعةٌ صيفيةٌ بنية، هتف رئيسُها هامسًا

-لم تخرج، ربما تكونُ في مطبخِ المحلِ أَو حمامها

أَشارَ إِليها بأن تتوجهَ للحمامِ بينما توجهَ هوَ نحوَ المطبخِ.

بجانبِ النافذة المُغلقة ظهر باب غرفة مُلحقة، دفعتْ البابَ، قذفتها الصدمة لَلخلف لترتطم بجسد المُحققِ الذي لحقها للغرفة.. كانتْ سهام

على أَرضِ الحمام مرتخيةٌ بل ميتةٌ، نصف جسدها العُلوي مُستند على جانبِ المرحاضِ كان قَميصُها القطني مُغطى بالدم.. اقتربَ الغزواني منها واستلَ مُسدسهُ

-احترسي!

انحنى قليلًا، لم تكن مُصابةً إلا بجرحٍ في الصدرِ، لا وجودَ لأَيِةِ جروحٍ أُخرى، تفقدَ نبضها، على ما يبدو أَنَها فارقَتْ الحياة منذُ مدة قصيرةٍ.. استقامَ ونظرَ للعينينِ القلقتينِ لشوق، إِنهم يقتربونَ من القاتلِ بأَسوأ طريقةٍ ممكنةٍ.. المزيدُ منَ الجثثِ.

***

بعدَ ثلاثةِ أَيامٍ.

صبت شمسُ العصرِ نيرانها المتأججة على الجدران الإسمنتية لمبنى الشرطة، غطت شوق بالستارة ما ظل مكشوفًا من النافذة بالطابق الأَرضي، ظلتْ بمُفردها بمقرِ العملياتِ، جالتْ عيناها في المكانِ مُتأففةً.

كان الغزوانِي قدْ غادرَ منذُ يومينِ للعاصمةِ في مُحاولةٍ يائسةٍ منهُ أَن يمنعَ رئيسَ الوحدة سيف الطرابلسي من إيقاف التحقيقِ، كانَ مقتلُ سهام الشاهد الرئيسي ورُبما أَحدَ المتورطين في قضيةِ مقتلِ كلٍ من هلال وعادل قبلَ ربعِ قرنٍ القشةَ التي تَكادُ تطيحُ بكلِ مجهوداتهم.. وهاهوَ الآن قد قاربَ الوصولَ إِلى المنسيةِ حسبَ مُكالمتهِ الأَخيرةِ.

نوعٌ منَ الغضبِ ينتابهم مع حقيقةِ أَنهم أَجلوا استكمالَ مُراقبةِ سهام زوجةِ حمادِي الوحيشي حتى يكونَ بيدهم ما يُدينها حقًا، وعندما توصلوا

إِلى ما يربطها بالجرائم في شكلِ تحويلاتٍ ماليةٍ تسلمتها من شركةِ التطوير العَقاري وجدوها مقتَولةً.

قاتلها غيرُ معروفٍ لحدِ الآن، الفرقة الفنية والعلمية رفعتْ البصماتِ بمسرحِ الجريمةِ وهو أَمرٌ كانَ شديدَ الصعوبةِ مع وجودِ العشراتِ من بصماتِ الزبائنِ المُتناثرةِ في كلِ مكانٍ، لذلكَ كانَ تفاؤلهم مُنصبًا على التعرفُ على نوعيةِ المُسدسِ الذي قتلت به، تم استخراجُ رصاصة واحدة وهيَ حاليًا تخضعُ للفحص.

تمَ التأكيدُ على أَن القتيلةَ تم التخلصُ منها على الساعةِ العاشرةِ ليلًا تقريبًا قبلَ أَن يَعثروا عليها بساعةٍ منَ الزمنِ، لم تعثر الشرطةُ على كاميرات بالشارع الذي يُطلُ عليهِ محلها، وحتى كاميراتِ المُراقبة القريبةِ منَ المكانِ أَو التي صورتْ الشوارعَ الجانبيةِ غيرَ البعيدةِ لم تتعرف على القاتلِ.. عدد الذين يقتلونَ في تونس بُمسدس قليلٌ جدًا وليسَ من الصعبِ التَثبتُ من هوية أَصحابِها إِن كانتْ مُسجلة طبعًا.

نهضتْ شوق من مكانها ووقفتْ أَمام لوحِ الكتابةِ الممتلئ، قضيتهم مُعقدة أَعقد مما تصوروا جميعًا ولا يُمكنُ لأَحدٍ حتى لرئيسِ الوحدةِ أَن يستخفَ بالجهدِ الذي بذلوه جميعًا، هيَ والغزوانيِ ونصر الدينَ الذي يُعتبرُ مُقيمًا بدوامٍ كاملًا في المقرِ: يعيشُ يأكلُ ويَنامُ هنا.

استدارتْ نحوَ مكتبها مع رنينِ هاتفها وصلها تَسجيلٌ صوتي منْ نصر الدِين فتحتهُ وأَصغت وهيَ تتساءلَ لماذا لم يطلبها مُباشرةً

«شوق، لم أَستطعِ الاتصال بالغزواني لقد اتصل مُحسن منذ قليل، وقال أَنَ الرقم المجهول أَي أَن الشَخصَ الذي يتواصل مع الشابِ ذي حقيبةِ الظهرِ قدْ فُتحَ ما بين الساعة السادسة والسادسة و٧ دقائق بالقربِ من المنجم القديم..

على كلٍّ.. أنا أَقرب للمكانِ، سأسبقكم إِليهِ أَولًا، لا أَستطيع الانتظارَ».

استمعتْ شوق للتسجيلِ مرةً أُخرى قبلَ أَن تُحاولَ الاتصال بهاتف الغزواني، كانَ مُحسن قدْ توصل باعتماد سجل مكالمات هاتف عماد إِلى أَنَ الشابَ صاحبَ حقيبةِ الظهر كان يُرسلُ رصيدًا هاتفيًا لشخص من بلدةِ المَنسية عدة مراتٍ بالشَهر.. إذًا إِنهُ على تواصلٍ مع أَحدهم لسنة على الأَقلِ، كانَ رقمُ هاتفٍ مسروقٍ لكنهُ فُتِحَ عدة مراتٍ قبلَ القبضِ على عماد.

***

حاول نصر الدين مُنطلقًا من هذه المَعلوماتِ السعي خلفَ الأَمر، أَراد أَن يتوصل لصاحب الرقم لكي يصلَ إِلى هاتف الوسيط، حدد المكانُ المفترض للهدف الثاني بالقربِ من المينه القديمةِ.

سحق نصر الدِين فتافيت الحصى من تحت حذائه.. اختفت سحلية هزيلة وراء صخرة.. سيكونُ محظوظًا ويجد مبتغاه وربما يكون الحظ قد ضحك له فعلا ويصلُ إِلى شيءٍ مهم، هذه المرة سيؤدي واجبه وأَكثر وسيثبتُ أَنهُ يُمكنُ أَن ينجحوا في حلِ هذهِ القضيةِ.

بدأت التلةُ أَكثر ارتفاعًا، الأَشعة تخترق العظم حتى أَنهُ شعر بأَن شحمهُ يذوبُ مع كلِ خطوةٍ.. اللون الأَصفر من صخور ورمال وتلال وجبالَ تطوق المنطقةَ، كان قد اقتحم مكانًا من قبل لكن ليس لوحده وليس منجمًا مهجورًا.

لطالما ظنَ أَنهُ يتفهمُ تصرفاتِ الغزواني فهو حسبَ رأيِه يتمتعُ بصفاتٍ وخبراتٍ حياتيةٍ واسعة رغم صغرِ سنه، تُغنيهِ عن مغبة الوقوعِ في الالتباسِ أَو الخطأَ لكن في المُقابل هو يَحسدهُ على قدرتهِ على التحكمَ في انفعالاته العاطفيةِ الشخصيةِ، يتسلمُ مهمةَ التحقيقِ في قضيةِ مقتلِ صَديقَ طفولتهِ

بكلِ برودٍ، على الأَقلِ هذا ما يبديه أَمامهم، تدفعٌ أَمامهُ صور جثتهِ المُشوهةِ ولاَ يبدي أَي تأثرٍ.. لاَ يعلمُ إِن كانَ يحسدهُ أَو هو فقط يتَمنى أَن يكونَ مثلهُ حتى في جانبهِ العملي.

أَعاد الهاتف لجيبهِ مع سوءِ تغطية الشبكة في هذا المكانِ المنسي.. هيَ ضعيفةٌ وتكادُ تكونُ شبه معدومة كلما صعدَ أكثر.

عقدَ سترتهُ الخفيفة بإحكام حول رقبتهِ، كانت درجات الحرارة تنخفضُ قبلَ المغربِ بصفةٍ مفاجئة، كانَ يريدُ أَن يتيقنَ من شكوكه أَو ينفيها

- لا تروِ روايات لي إِن لم تكن متأكدًا.. هذهِ ليستْ قصة مًصورة هكذا نهره الغزواني.

وصلَ إلى ما سماهُ رئيسهُ بالجانب الغربي من المنجم، الظلامُ بدأ يزحفُ. سمعَ صوتًا يُناديهِ، كانَ متأكدًا أَنهُ صوتَ الغزوانِي هَل أَثرت الحرارةُ على دماغهِ حتى يُخيلَ إِليهِ ذلك؟

فتحَ إِضاءةَ هاتفهِ وحركها في اتجاه صدى الصوتِ، شعرَ بالقشعريرة تجتاحُ جسدهُ كان على الطريقِ الصحيح.. التفتَ بغتة للخلفِ حيثُ كانَ يَقفُ أَحدهم بحذاءٍ عسكري أَسود، لم يكنْ رئيسهُ بالفعلِ.. أَكانَ هناكَ طوالَ هذا الوقتِ واقفا كتمثالٍ يُراقبهُ؟ تلاقتْ عيونهم، لمحَ نصر الدين شيئًا كانَ يُمسكهُ الشابُ الغريبُ بيدهِ.

للحظةِ فهم ما هو بصدد مشاهدته وقبل أَن يتوفر له الوقت ليبتعد كفاية حدث الانفجار.

***

تحسسَ الغزواني للمرة الأَخيرة مقبض مسدسه ذي ثمانِ طلقات قبل أَنْ يقرر التقاطه وتوجيهه للأَمام، يسار.. يمين.. هذا الهدوء لا يعجبه، صرخ باسم نصر الدين لكنه لم يتلقى أَيَ رد، دعا أَن لا يكون ضرر قد أَصابَ الشاب ثم أَقسمَ أَن يضربه على رأسه إِن شاهدهُ.. رفع مسدسه أَكثر للأعلى، صوب أَنظاره لما فوق.. لا شيء.

تلقى متأخرًا مُكالمةَ شوق، أَدارَ سيارتهُ وتوجهَ نحوَ الطريقِ التي تؤدي للمنجمِ.. بالكادِ سمحَ لهُ رئيسُ الوحدةِ بمواصلةِ التحقيقِ في مقتلِ عادل الصغيرَ وهلال المحمدي كقضيةٍ واحدة.. كان لا يزال يشعرُ بارتعاش ساعده الأيمن ضم يدهُ اليسرى لليمنى بينما خطواته لا تزال ثابتة نحو الأَمام.

صَرخَ مرةً أُخرى باسم نصر الدين، رفعَ رأسهُ عندَما خُيل إِليهِ أَنهُ يراهُ لم يكنْ بعيدًا كما يتخيل وقبلَ أَن يتأَكدَ حدث الانفجارُ.

لجزء من الثانية كان بوسع الغزواني رؤية الأَرَض من تحته، كان يطير قبل أَن يرتمي على الأَرضِ ويدورَ عدة دوَرات والغريب أَنهُ لم يغلق عينيه أَبدًا لم يكن هناك وقتٌ لذلكَ، كان صدى الانفجار في أُذنه عندما بدأ بالنهوض من مكانه في وسط ضباب من التراب والحجارة التي تطايرت بفعل الانفجارِ، بصق ما في فمه من دم وتراب

«نصر الدين»

هذَا ما فكرَ بهِ أَو ما صرخَ بهِ لا يذكر ولم يعد يَشعر إِلا بارتفاع ضغط دمهِ.

نهضَ ومشى عدة خطواتٍ عندها لمحهُ.. لمحَ جسدهُ ملقى على الأَرضِ وقدْ أَحاطتْ بهِ دوامةُ الغبارُ.

كادَ قلبهُ يتوقف، ليسَ مرةً أُخرى.. كادْ ينقَطعُ ما تبقى من أَنفاسِهِ اللاهثةِ حتى وصلَ إليه، هزهُ.. وضع سبابتهُ على رقبتهِ.. هل هوَ ميت؟ هل هوَ يحتضر؟ لا لقَدْ كانَ مغمى عليهِ.. حدقَ الغزواني بهِ وهوَ يرتجفُ، ضغط على شفاههِ حتى أَدماها.

كانتْ قطعُ الحجارةِ الحادةِ قدْ شقت اللحمَ حتى انفجرَ الدمُ من صدرهِ وركبتيهِ، خلعَ المُحقق قميصهُ مكابدًا أَلمهُ مُمزقًا أَطرافهُ وضمدَ ركبةَ الشاب مُحاولًا وقفَ النزيفِ.. الجروحُ التِي في صدرهِ غير قاتلة.. تلمسَ جيبهُ بحثًا عن هاتفهِ، ضغط على مكانِ الجرحِ في ساق نصر الدين بيسراهُ واتصلَ بشوق بيمناهُ.. حمدَ اللهَ مع رنينِ الهاتفِ.

***

هُناكَ.. يَستلقي على السرير المعدني وقد أُحِيطت بجسدهِ عدة آلات وخيوط وأنابيب وكيس دم، يمكن أَن تُلاحظ شوق من تحت اللحاف رجلهُ المضمدة، لم تكن تفهم الكثير في الطب لكن قراءة الشاشة كانت كافية لتدرك أَنَ حالته مُستقرة.. كانت يدي الغزواني ترتجفان

-هل أَنتَ بخير؟

تفاجأت من ارتجاف صوتها نفسهُ وهيَ تسألهُ حالهُ حتى تكلمت الآن.

كانَ الغزواني جالسًا على أَحدِ المقاعدِ المُخصصةِ للزوار بمُستشفى قابس، حافظ على صمته مُحدقًا بالجدران البيضاء وكان سؤالها لا معنى له

-ماذا قال الطبيب؟

أَضافت وقدْ رمقها بنظرات مُتشككة كان لا يزال تحت تأثير الصدمة.. تبادلا نظرات غير واثقة، أَحس بتيبس أَصابعه وجفاف شفتيه وحلقه كاد

نصر الدِينِ أَن يفقدَ حياتَهُ، أَن يموت تحت إِدارته سيكون محظوظًا لو نجا وأكثر حظًا إِن لم يفقد ساقهُ.

لم يرمي بنفسهِ للخطر؟ إنهُ ليسَ مثله، نصر الدين لديهِ شيءٌ.. لديهِ ما يَقلقُ عليهِ.. إنهُ يرتدي خاتمَ خطوبة، هناكَ فتاةٌ تنتظرهُ ليكونا معًا عائلة يُنجبانِ خلالهاَ دستةَ أَطفال، ليسَ ذا نظرةٍ مُتشائمة يحلمُ بإصدار قصة مصورة أو فتحَ دارِ نشرٍ أَما هو فلَم يكن لديهِ غيرَ هوسهُ بمهنتهِ وبتحقيقِ العدالةِ.. إِن الحَياة غَير عَادلة!.

نهضَ.

سمعَتْ الباب يغلق من خلفهَا

- سأعودُ للمكتب

غادرَ سريعًا حتى اختفى من أَنظارها.

***

بعد كلِ شيءٍ لا يزالُ لديه والدتهُ.

-استلقِ هُنا

ضربتْ الطاووس بكفها على فخذها، وضع الغزواني رأسه على حجرها وأغمض عينيه ببطء كانَ شبه مُنهار، بعينين مُتورمتينَ. أمامَ والدته يظل عَاريًا حتى لو كان يرتدي جميع مَعاطفهِ.. هشًا ضعيفًا تتهَاوى صلابته الزائفة أَمَامَ عينيها الفاحصتينِ.

-هل أنت بخير؟

بعد صمت ليس بالطويل

- أنا متعب يا يما.. كنتُ أَهربُ من هنا.. من هذه البلدة.. كنت أَظنُ أَنني أَفرُ من كحلةِ ذكرياتها ورمالها وحرها، لكنني كنت أَهربُ من نفسي.. لطالما

اعتقدتُ أَنَ موتَ عادل غلطتي.. أَرَى في كوابيسي أَنني أَسحبُ طرفي الحبل الملتف حولَ رقبتهِ.. أَسحبُ وأَسحبُ حتى أَسمعُ صوت الكسرِ.. والآن نصر الدِين يا يمَا.

راجعَ في رأسهِ آخر مُحادثةٍ بينهُ وبينَ رئيسِ وحدتهِ قبلَ ساعةٍ، كانَ الطرابلسي يغلي كشمسِ ظهيرةِ المنسيةِ

-حتى الآن لديك قتيلانِ وشرطِي مُصاب تحتَ قيادتكَ،غزواني سأَمنحكَ ثلاثة أَيام فقط لتصلَ إِلى شيء صُلب يمكنُ أَن أَسُد بهِ أَفواهَ المثرثرينَ أَو تغلق قضَّية عادل الصغير وتعيدُ تسليم قضية مقتلِ الوحيشي لشرطةِ المظيلةِ.

***

ظل سالم محل الاهتمام والعنايةِ من قبلِ أُسرته والإطاراتِ العُليا في الشركة وقطاعِ المناجم منذ أَن أَنهى دراسته الجامعية في الهندسة الصناعيةِ بفرنسَا، لذلكَ وجود هَذا الحشدِ منَ الصحفيينَ والمُهتمين لم يكن يؤرقه بقدرِ عدم إلمامه بكلِ شيءٍ يحصلُ في شركتهِ.. أَخبارُ الجريمةِ الجديدةِ التي حدثتْ كادتْ تُطيحُ بمساعيهِ نحوَ إمضاءِ عقودِ الاستثمارِ لكنْ يبدو أَن رياحَ النجاحِ لازالت لم تغادرهُ بعدُ.

وهاهوَ يقفُ أَمامَ جمع الصحفيينَ مزهُوًا، ووراءهُ وقفَ عكاشة وهوَ يُرتبُ هندامهُ، كانَ يَستغربُ غَيابُ علياء عن اللقاء الصحفي لكنْ لا يبدو سالم مهتمًا بذلكَ.. بل كانَ يضيءُ كأَلفِ شمعةٍ من شموعِ كنيس الغريبةِ(١).. أَجابَ على سؤالِ صحفيةِ جريدةِ الشروقِ مبتسمًا

(١) كنيسة لليهود بجزيرة جربة التونسية.

- بالطبع إننا نهتم بالتطوراتِ التي عرفتهَا القضيةُ، لكن نؤكد على أنَنا نفضلُ عدم الخوض في الأحداث التي لا تمس شركتنا، وواقع حدوث الجريمَة في مكان يعودُ إلى شركتنا لا يُقلل من حقيقةِ أنَنا نحترم مُجرياتِ التحقيقِ ونثقُ بأَفرادِ شرطَتنَا.

انفضَ الخلقُ بعدَ دقائق.. سارعَ عكاشةَ خطوهُ وراءَ المديرَ التنفيذي بعدَ نهايةِ اللقاءِ الإعلامي حتى دلفا مكتبهُ المُجهزُ بمكيفٍ أَنعشَ هواؤها روحهُ

- أَصغ إليَ يا سيد سالم

هكذَا اعتادَ عكاشة أَن يناديه بحفظِ الأَلقاب، اعتادَ أَن يُعاملَ بالمثل حتى منْ مديره، عندما كانَ مجردَ موظفٍ في إدارةِ المُراقبةِ في الشركةِ أَو الآنَ كمديرِ القسم المالي وهو يُناهزُ الخمسينَ من عمرهِ التي قضاها بين الإداراتِ والاستشارات الخاصةِ والعامةِ

-لي بعض العلاقات بأصحاب البزة الزرقاء، وأحيانًا يُصارحونني ببعض الأَقاويل.. في الساعات الفارطة أَعلموني أَن صديقك المُحقق الغزواني يُريد بطَريقة ما توريطَ الشركة فِي جريمةِ مقتل الطفل.. صَديقكما المُشترك..

أَضافَ مبديًا عدمَ رضاهِ حيالَ ما آل إليهِ الوضع حاليًا

-وذريعتهُ تشابه أَساليب القتلِ ومكان الجريمةِ الجديدةِ.. تعلم أَنه الوحيشي كان عامل منجم.

ضربَ سالم الهواء بقبضَته وهو يحدقُ بمدير قسم الماليةِ

- لا شيء يدعمُ النظريةَ.. إلا لو كانَ هناكَ رابطٌ.. أَتعرفُ شيئًا أَنت لا أَعرفهُ؟

أَجابَ صادق بعدم ارتياحٍ

– ماذا أَعرفُ؟ مثلِي مثلكَ.. لكن إِثبات ذلك في هذا الوضع الصعبِ الذي تمر به الشركة وأمام المستثمرين سيتطلبنا شهور وسنوات لِمحو سوء الفَهم هذا.. هناك شركاتٌ يا سالم تسقطُ بسبب إِشاعة كهذهِ، بل حتى أَقل من هذهِ

كانَ سيشعرُ باليأسِ بل أَكثر بالخزي إِن حصلَ ووقعتْ الشركةُ بينَ براثنِ الإفلاسِ بسببِ احتجاجاتِ العُمالِ واعتصاماتِ شبابِ المدينةِ.

أَراحَ سالم ظهرهُ على كرسيهِ الجلدي وقالَ

–المستثمرونَ الرُوس وافقوا على الصفقةِ كما تعلم.. وسنمضي قريبًا الاتفاقية المُشتركة ونستلمُ الشيكَ.. فلا داعي للقلقِ.

رفعَ سالم سماعة هاتفِ المكتب كإشارة على انشغالهِ خرجَ على إِثرها عكاشة متبرمًا من البرودِ الذي يصبَغُ تعليقاتِ مديرِه، لمحَ عندَ مغادرتهِ أَحدُ صحافي مجلةِ مغربنَا الكَبيرُ جالسًا على كرسي الزوارِ المحاذي لمكتب سكرتيرةِ المُدير التنفيذي، كانَ على موعدٍ مُسبقٍ مع سالم للحديث حولَ آخر أَخبارِ الشركةِ، وبالتأكيدِ سيكونُ الحديثُ مطولًا وحماسيًا عن صفقةِ المُستثمرينَ الروس، كانَ يُمكنُ أَن يتخيلَ المديرَ التنفيذي الشابَ وهو يفتخرُ بإنجازاتهِ راسمًا ابتسامةً دربتهُ عليها علياءُ بينما يبتسمُ الآخرُ تملقًا.

شتمهُ وهو يلقِي بمفاتيحَ سيارتهِ وهاتفهِ على طاولةِ مكتبهِ متجهًا مُباشرةً للثلاجةِ المنتصبة بأَحد أَركانِ الغرفةِ، التقطَ قارورةَ ماءٍ زجاجيةٍ، شربَ، وارتمى على المقعدِ ملتقطًا أَنفاسَهُ، كانَ من الغريبِ أَن علياء كانتْ غائبةً عن

اللقاءِ الصحفي اليومَ رغمَ أَهميتهِ بالنسبة لمُستقبلِ الشركةِ، أَخذَ يسترجع محادثتهُ مع سالم بحثًا عن أَي معلومةٍ عن مكانِ وجودها لكنهُ لا يتذكرُ أَنهُ أَعلمهُ بشيءٍ.. تدفقَ ضوءُ النهارِ الصيفي عبرَ النافذةِ ليصطدمَ بحائطِ آخرِ الغرفةِ وهو يقرأ خبرَ مقتلِ سهام بِجريدةِ البارحةِ.

***

١٩٨٨

هرشَ ياسين الغزي الموضعَ الذي كانت عليه الساعة على رسغهِ الأَيسر، ظلَ لمدةٍ طويلةٍ يحدقُ بيدهِ وكأَن ما يحصلُ الآنَ وما حصلَ بالأَيام السابقَةِ من تحولاتٍ ومصائب أَمرٌ لا يمكنُ أَن يقعَ لهُ، ليسَ الآنَ على الأَقلِ وهوَ قابَ قوسينِ أَو أَدنى من الارتقاءِ في وظيفتهِ.

ارتمى على الكُرسي وهو يفكرُ بما سيفعلهُ ضوء بالمعلومة التي أَعطتهُ إِياها سهام، لو كانَ بيدهِ لتخلصَ من كلِ هذا الموضوعِ برمتهِ.

لم يكن الأَمرُ خطأَهُ في الأَولِ فقد قامَ بالمهمةِ الموكولة إِليهِ بكلِ يُسرٍ وسلاسةٍ.. تخلصَ من هلال ومن كلِ خطرٍ يُمكنُ أَن يشكلَهُ بأَبحاثه حولَ إِفرازاتِ المصبِ، ولولا عدمِ انتباهِ منفذي المُهمةِ لوجودِ ذلكَ الطفلِ في نفسِ المكانِ لما اضطرَ إِلى إِصدارِ أَمرٍ بقتلهِ.

من حسن الحظ أَنهُ تركَ المنظارَ في موقعِ المُراقبةِ ولولا هذا لما تعرفوا على المُتلصص أَبدًا.

يذكرُ أَن الوحيشي قدمَ إِليهِ في نفسِ الليلةِ وهو يحملُ المنظارَ بينَ يديهِ

-ماذا نفعلُ؟!

ازداد الصداعُ برأسه عندما تذكرَ الأَمرَ.

تعرفَ على صاحبِ المنظارِ بسرعةٍ، كانَ يعرفُ أَن الطفلَ يسمى عادل فَقدْ رافقَ أَباهُ ضوء بآخر توصيلة لمطبخِ الفندقِ قبلَ شهرٍ ونصفٍ وهوَ يلهو

بالمنظارِ.. طفلٌ في العاشرةِ شديدَ البياضِ حتى شعرهُ الأَكرت لم يسلم من تبعاتِ هذا اللونِ.

كانَ أَكبرُ خوفهِ أَن يحكي الطفلُ ما شاهدهُ تلكَ الليلة لشخص ما، هو نفسهُ ليسَ متأكدًا مما يُمكنُ أَن يكونَ شاهدهُ أَو فهمهُ فعلًا، لكنَّ يعلمُ أَنهُ ليسَ عليهِ المُخاطرة بذلك، كانَ عليهِ أَن يتصرفَ بسرعةٍ، لذلكَ أَصدرَ أَمرًا سريعًا للوحيشي بالتصرفِ الفعالِ هذهِ المرةِ.. وقدْ كان إِقامةُ المسرحيةِ وما سيحصلُ فيها من هرجٍ ومرجٍ أَفضَلَ فرصةٍ.

كانَ مُستقبلهُ المهنِي رهينَ نجاحِ مهمةِ قتلِ هلال وقدْ تم لهُ ذلكَ، لكنْ إِن وصلَ لسمع مِن كلفوهُ أَن سريةَ الأَمرِ مهددةٌ بسببِ طفلٍ فستنتهي حياته.. وهو لا يمكَن أَبدًا أَن يسمح بذلك.

ابتلعَ لعابهُ وتغضنَ وجههُ عندما استرجعَ بذهنهِ تفاصيلَ مقتل عادل حسبَ ما تناقلتهُ الصحف طيلةَ هذا الشهرِ لم يكن يومًا إنسانًا عنيفًا، تربكهُ رؤيةِ الدماءِ، لكنهُ مجبرٌ على تنفيذِ الأَوامر.

لم يعلمه بآخر المُستجدات، تركَ الأَمرَ بينهُ وبينَ الوحيشي الذي طلبَ مالًا إِضافيًا

-هذهِ مهمة ثانية، أُريدُ مالًا تحتَ الحساب

وهو بدورهِ كانَ مُستعجلًا لإِنجازها قبلَ أَي شيء لكنهُ لم يملك المالَ وكلَ ما أَعطاهُ من قبل كانَتْ الأَموالُ التي سلمها إِليه صاحبُ الأَمر من أَجلِ مهمة قتلِ هلال فقط.

لم يدرك كم كانَ الوحيشي يائسًا ومصرًا على استلام مالهِ لتنفيذِ المهمةِ الثانيةِ، لذلكَ لم يجد أَمامهُ إِلا ساعتهُ الفضيةَ التِي تحصَلَ عليها قبلَ مدةٍ

قصيرةٍ ليلة الاحتفالِ بثلاثينية شركةِ الفوسفات نظيرَ جهودهِ خلالَ الموسم الصيفِي.

ضربَ الطاولةَ بكفهِ

«ذلك الأَحمق اللعين.. كيفَ يُسقطُ ساعتِي في موقعِ الجريمةِ؟»

استقامَ وسارَ نحو النافذةِ مُراقبًا انعكاسَ أَشعةِ الشمس على مياهِ النافورةِ المتلألئة، تذكرَ أَنهُ عطشان وجائع فلم يأخذ استراحةً منذ ساعاتٍ وهاهوَ الآن يقضيها في التفكير غيرَ المُجدِي.

سوسو مشكلة أخرى من جانب ثانٍ.

عليهِ إسكاتها.. بالمالِ كخطوة أُولى، حتى يرى ماءها أَين يصبُ، لم تبدو أَبدًا بقامتها القصيرةِ خطيرةً أَو ماكرةً، وجدتْ فرصةً لتحلبَ بعَض الدنانير فانتهزتْها.. لكنها تعرفُ كلَ شيءٍ، أَكثرَ منَ اللازم، عليه أَن يتصرفَ معهاَ لكنْ ليسَ الآن، بل حتى تهدأ الزوبعةَ التِي يطلقها ضوء عليهم.

***

«الواقعُ يأتى غالبًا ليُكذبَ الخيال الذِى نريدُ الاقتناع بصدقهِ»

أَوهام ضائعة: الشاعران، بلزاك.

ترجلتْ شوق عن سيارتها وهيَ تحملُ كيسًا أَسود، بينما أَغلقَ أَحمد الغزوانِي بابها

-هل يُمكنُ التعرفُ على صانع القنبلة بهذهِ السهولةِ؟

سأَلتْ وهيَ تحدقُ في محيطِ الحي.. كانَا قدْ عادا من المستشفى بعدَ زيارةِ نصر الدِين الذي بدأ يستيقظُ وإِن كاَنَ في حاجةٍ للراحة أَكثر.

أَخبرهما عن الرجلِ أَو الشابِ الذي أَلقى المُتفجرات نحوهُ وصفهُ المُساعدُ بصاحبِ الحذاءَ العسكريَ، تركاهُ ليرتاحَ وقد طمأنه الطبيبُ على زميلهُ يحتاجُ إِلى الراحةِ والمُراقبةِ وأَنهُ تجاوزَ مرحلةَ الخطرِ مع صعوبةِ البتِ في أَمرِ ساقهِ اليُمنى المُصابةِ بجروحٍ بليغة.

تفاجأ الغزواني بزيارةِ والديْ نصر الدين للمُستشفى كانتْ والدتهُ في حالةٍ يُرثى لها بعيونٍ منتفخة تتمسكُ بيدِ شابةٍ كانتْ تُرافقُها عرفتها لهُ على أَنها خطيبةُ ابنها، فتاةٌ شابةٌ مليحة الوجهِ لم تُدارِ قلقها لكنها بدتْ أَكثرَ تماسُكًا من والديهِ.

رفعَ حاجبهُ متسائلًا

– هذا عملُ الخُبراء.. على كلٍّ لقدْ أَكدوا على أَن المُتفجرات من نوعية التي تُستعملُ في نسفِ مناجمِ الفوسفات.. العُبوةُ التي أُلقيت عليهِ كانت مُتوسطة التأثيرِ.

بترتْ توضيحهُ مع مرورِ عجوزٍ بينهما

-مرحبًا خالتِي يامنة

حياها الغزواني فقدْ كانَ من الواضحِ أَنهُ يعرفها.

لِم ترد إنَما توقفتْ برهة وحدقت بوجههِ مُتسلحةً بالغضب أَو هو الكرهِ قبلَ أن تستَأنفَ مسيرها وهيَ تُتمتمُ، تجاهلَ موقِفها ومرَ بينما استرقتْ شوق نظرةً من تحت رُموشها

-لو لِم تكنْ مُسنة لقتلتكَ بعكازِها.. لِم كلُ هذا؟

سكتَ ولِم يجب.. الارتياب هو ذلكَ الوصفُ الذي بدأ يشعرُ بهِ أَكثرَ من غيرهِ، يُبادلونهُ إياهُ بل صدروهُ إليهِ، كلُ شيء مرتبط بعقدٍ متينة فلا إبرةٍ تسقطُ هنا إلا ويصلُ صداها جرسًا منبهًا لكلِ سُكان المنسيةِ.. وسُكانِ المَنسيةِ الآنَ يكرهونهُ، زجَ بابنهم عماد بالسجنِ، فهوَ يهددُ لقمةَ عيشهم بتحقيقاتهِ بسببِ طفلٍ قتلَ قبلَ ألفِ عامٍ.

تذكرَ كلامَ رئيسهِ وهو يحذرهُ

«لا أُريد صدامات مع السكانِ»

ابتسمَ لهذا التحذيرِ الذي لِم ينجح فيه، شعرَ كمن يشوي سمكًا ويأْمل أَنَ لا تتجمعَ عليهِ قطط الحَي.

***

بمجردِ مغادرةِ الطاووس لإِقامةِ صلاتها قالتْ شوق وهيَ لا تزالُ تجاورهُ على الطاولةِ العشاءِ

- أَنت مكروهٌ من قبلِ أَهلِ بلدتكَ رغمَ أَنكَ تُريدُ لهم تحقيق سلامتهم.

قضمَ الغزواني قضمةً من حبة الخوخِ عندما أَجابَ

-لا أُمانعُ إن بصقوا عليَّ ما دمتُ أَقومُ بواجبي لكنْ يبدو أَن ضمانَ الأَرزاقِ أَجدرُ من ضمانِ النفسِ!.

هذا ديدنهم منذُ أَن عرفهم.. لا يهتمونَ، فلم يكن لهم الجهدُ لرفع الغطاء عن طنجرة بلدتهم، غير أَنَ هذه لم تكن رذيلتهم الأولى، إن كان قد تعلم شيئًا خلال تلك السنوات فهو أَن لا شيء يمكن أَن يغير عقولًا لا تريد أَن تؤمن، بلِ كم عدد الأَشخاصِ الذين يمكن له بأَن يعترف صراحةً بأَنهم تغيروا للأَحسنِ.. هم لم يتغيروا.

-الإشكالية هنا يا شوق، هل نريدُ بلدة يتوفرُ بها قدرٌ معينٌ من فرصِ العملِ؟ أَم بلدة ذات هواء وماء نظيف؟

-الاثنين معًا.

-لا يمكنُ

التقطَت سكينًا وقطعت حبة الخوخِ إلى شرائح

-لا أَسوأ من الوقوع بين خيارين متكافئي السوء!

-هنا لا يهم إن كنت من الملجأ أو الحي الأُوروبي، الكل يتسمم بنفس القدر، وأنتِ لو بقيتِ هنا أكثر بالقدر الكافي ستنفثينَ دخانًا بدوركِ!.

جعلها هذا الكلامُ تفكرُ بمدى الضغوطاتِ التي يعيشها المرء في هذه البلدة بل في كل جهات الحوض المنجمي، حيثُ لا يحدد مكانُ العيش الطبقة الاجتماعية والاقتصاديةَ التي ينتمي إليها الانسانُ فقط؛ بل أَيضًا التهديداتِ الصحيةَ التي يمكنُ أَن تصيبهُ لأنهُ مجبرٌ على المكوث في المكان الذي يعتبرُ مورد رزقه.. العدالة لا يمكن أَن تتحقق بسهولةِ.

أَشارَ بإصبعهِ نحوَ الأَمامِ:

- لو فحصنا ماء بئرنَا هذهِ سنجدُ أَن نسبة الفلور في اللتر الواحد منه تتجاوزُ العشرِ مليجرام... إِنه غيرُ صالحٍ للشرابِ بالمرةِ.

-كم تُقدرُ النسبةُ المفروضةُ في اللترِ الواحدِ؟

تراجع بظهره مريحًا ظهرهُ على الكرسي

-حسَبَ كلامِ الخبيرِ ١ , ٠ مليجرام.

ضحكتْ

-إِثبات أَن هناك علاقة بين الأَمراضِ المنتشرة بقوةٍ والمجمع الكيماوي بالمنسيةِ أَو المظيلةِ سيكون شبه مُستحيلٍ سيدِي.

-نعم، لكنْ لو تم إِثبات حالة واحدةٍ.. واحدة فقط يُمكنُ للمُتضررينَ وقتها الدفع بدعوى جماعية للمُطالبة بتسويةٍ قضائيةٍ، لكنْ سيَكون هذا كفتح باب الجحيم على مصراعيهِ بالنسبةِ لأَصحاب الشركةِ.. لذلك ترينَ يا شوق أَنهم قبلَوا بِالتسوياتُ التي كانتْ حلًا لهم منذُ عقود.

-ما هو نصُّ التسويةِ؟

-آه النصُ.. دقيقةَ لأَتذكر.. نعم.. على أَن المدعى عليهِ أَصحابَ الشركةَ أَبرياء من كلِ الاتهامات التي يُمكن أَن توجه للمؤسسة أَو ممثليها، وأَن لا يتحملُوا الأَضرار الناجمة عن المصبِ والمُجمع.

-لماذا لا يرفعُ الأَطباءُ والخبراءُ قضية بذلكَ؟

-هل تظنينَ أَنهم يَملكونَ من الشجاعة لفعلِ ذلكَ؟ الأَمر يحتاج إِلى فحوصاتٍ.. مصاريفٍ.. مراقبة.. والأَهم من ذلك يحتاجُ إِلى نظافة يدٍ.. هل تضمنينَ ذلك؟

-هلال فعلَ ذلكَ.

-هلال ماتَ لأَنهُ لم يجد تلكَ الأَيادي النظيفة.

***

لم يكنْ الغزواني مُرتاحًا في جلستهِ أَمامَ رئيسِ وحدتهِ، حتى لو كانَ بينهما المئاتُ من الكيلومتراتِ وحَاسوبٌ فقط.

-ماهيَ آخرُ المعلوماتِ حولَ الجريدِي؟

فتحَ الغزواني ملفَ حسام الجريدي وهو يتمعنُ في صورتهِ التِي تصدرتْ محتوياتِ الملفِ، كانت صورةً أكثرَ حداثة من صورةِ هويتهِ، تحصلتْ عليها شوق من عائلتهِ، لخصَ لرئيسه عبرَ مُكالمة الفيديو الأمرَ، قالت ابنةُ المُشتبهِ بهِ أَنَ والدها قبلَ اختفائهِ بأربعةِ أَشهرٍ تعرضَ إلى حادث سيارةٍ أُصيبت ركبتهُ فيها بضررٍ بليغ، أَجرى على إثرها عمليةً ثبتَ الأَطباءُ مساميرَ بها.. قالوا أنه سيسير لكن بعرجٍ بعد أَن يشفَى.

كانت تبكي عندما سأَلتها شوق عن سببِ اختفائهِ، لم تعرف أَبدًا، حاولَ إخوتها الذكورَ البحثَ عنهُ بدونِ جدوى، منَ الغريبِ جدًا أَن والدها تركَ القضيةَ الجاريةَ ضدَ المُتسبب بالحَادثةِ للاستفادةِ من مبلغ التأَمين واختفى، خاصةً أَنهُ كانَ بحاجةٍ للمالِ بسببِ ارتفاعِ تكاليفِ العنايةِ الطبيةِ.

تنحنحَ الرئيسُ وهو يرددُ

- جيد جيد.. والآن

اقتحمَ محسن الغرفةَ وهوَ يعتذرُ من رئيسهِ حاملًا حاسوبهُ المحمول

-آسف سيدي.. كنتُ سأَتصلُ بك سيدي المُحقق بعدَ أَن أَزفَ الخبرَ لرئيسِ الوحدةِ.

دقَقَ الغزواني نظراتهُ عبرَ الحاسوبِ وكأنهُ سيخترقهُ وهو يسأَله بدونِ أَن يتركَ فرصةَ الكلامِ لرئيسهِ

-ماذَا هناك؟

استأذنَ محسن وقد وضعَ حاسوبهُ على سطحِ الطاولةِ

- سيدي، لقدْ تعرفنَا على مكانِ حسام الجريدي، إِنهُ في المظيلةِ بل ليسَ بعيدًا عن المنسيةِ.

نهضَ الغزواني، ارتدى حزامَ مُسدسهِ وهو يصيحُ بشوق من خلفِ مكتبهِ

- أَين؟ بسرعةٍ؟

-إِنهُ بنزلٍ شعبي بطرفِ المدينةِ.. لا يبعدُ سوى ٣ كيلومتراتٍ في الجانبِ الغربي من الملجأ

أَطلت شوق في هذهِ الأَثناءِ بجانبِ الغزوانِي.

-سأُرسلُ لكما الإِحداثياتِ.

***

وقف الغزواني بمنتصف الغرفة وراقبَ.

كانت الجدران مطليةً بلون رملي باهت وكئيب.

قفص طيورٍ فارغٌ معلقٌ قربَ الشباكِ.. عدد من الجرائد رصفت على المِنضدة قربَ السرير، خزانة صغيرة رتبَ بداخلها عدد من القمصان النظيفة وسراويل من الجينزِ، صندوقُ منظارٍ أَسود حديثٌ ذو عدسة واحدة وسلة قمامة وكوب فارغ ولا شيء.

كانت الغرفة شبه خاوية من أَي مقتنيات شخصية هامة، كما كانت نظيفة بل شديدة النظافة رغم تأكيد المدير لهُ وهو يتلعثمُ أَنَ ساكنها قد حجرَ عليهم منذ تأجيره الغرفة أَن يدخلها أَحدٌ بدون إِذنه حتى لو كان ذلك لتنظيفها.

-لماذا يضعُ النَزيلُ قفلًا إِضافيا لباب غرفتهِ الخاصة؟ هل هذا مسموح به أَصلًا؟

استمرَ مديرُ النزلِ بالإيماءِ

- نعم.. كانَ طلبهُ سيدي.

حسبَ مُحسن لم يكن سيتوصلُ إِلى مكانِ إِقامةِ الجريدي لو لا أَنَهُ تمَ إِدراجُ رقم هويتهِ في نظام المعلوماتِ التِي بدأَ صاحبُ النزلِ بتطبيقهِ تجريبيًا قبلَ نحوَ شهرٍ، وهذا الشيءُ الوحيدُ الذي تمكنَ بفضلهِ من التعرفِ على مكانهِ.

استمرت شوق بتفقدِ الرفوفِ والأَدراج بينما أَكملَ الغزواني طرحَ أَسئلتهِ وهوَ يتفحصُ القفصَ بينَ يديهِ الذي كانَ خَاليًا من أَي شوائبَ ولا دليل على أَن أَي طير كان محبوسًا فيه

-منذ متى أَجرَ الجريدي الغرفةَ؟

مسح المدير ذو الخمسين عامًا جبينهُ وقال

-سأراجع سجل المستأجرينَ لكنني أَذكر أَنهُ وصل قبل ثلاثةِ أَشهر أَي بداية الصيفِ.

أَدارَ عينيهُ في المكانِ قبلَ أَن تتوقف فوق القميص الفضفاض ذي الأَكمام القصيرة الذي يرتديه المديرُ

- أَهناكَ أَي كاميرات مُراقبة؟

-لا

تابع المُديرُ

– في الواقعِ إنها مُكلفة كما أَنها ترسل للصوص مُعلومة خاطئة أَن هناك ما يستحق السرِقةِ.

سأَل بجفاء:

– أَيملك رقم هاتف؟ سيارة؟ لا يمكن أَن لا يتعرف عليه أَحد من مقيمي الفندق أَو العاملين به لم يذكر عمله أَو أَنهُ متقاعد؟

–لا لا رقمَ هاتف.. ولا سيارةَ.. كما لم يستعمل هاتف النزل.

كان نزلًا شعبيًا من ذوي النجمة الواحدة والسمعة السيئة والأسعارِ الرخيصة، كما كانَ منعزلًا وهذهِ تعتبرُ ميزةً أَساسيةٍ بالنسبةِ للمجرمينَ –أُريد رؤية السجل بنفسي.. أَحضره

تراجع المدير وانطلق مُسرعًا رغم ارتجافِ ركبتيهِ إلى مكتبهِ.

خمن الغزواني أَنَ المشكلة تتمثلُ في عدمِ الوجودَ الفعلي لحسام الجريدي حتى أَنهُ توقف عن استلام راتبهِ التقاعديَ من عملهِ منذ يوم اختفائه، لا مستشفيات لا شهادة وفاةٍ، أَو أَية وثيقة تثبتُ خروجهُ منَ البلادَِ بأي طريقة قانونيةٍ، لا اتصال بعائلته ولا أَظن أَنهُ وهو في السن هذا يغامر بالخروج خلسةً خاصةٍ عبرَ البحرِ.

انحنتْ شوق قليلًا وهيَ تَرفعُ منديلًا ورقيًا كانَ ملقى بسلةِ القُمامةِ محاولة قراءةَ الكتابة التي عليهِ

–مطعم كاباتينا؟.

أَومأ الغزوانيِ برأسهِ

-يبدو المنديلُ حديثَ الإلقاء، لنبدأ من هناكَ.. توجهي للمطعم إنهُ بوسطِ المظيلةِ سيرشدكِ إليهِ أيُ محلي.. تعالي معي وخذي نسخة من بطاقةِ هويتهِ، يَجبُ فحص البصمات التي وجدت على البطاقةِ كما يا شوق لا بدَ من مُقارنةِ طبعةِ حذائهِ بالآثارِ التي وجدت في مسرحِ الجريمةِ.

ليسَ من السهولةِ عليهِ أَن يتحركَ بسرعة، فكرَت شوق بأَن النزل مكان بعيدٌ عن مركز مدينةِ المظيلةِ أَو المنسيةِ وبالتأكيدِ لا يمكن أَن يعتمد على ساق مصابة لابد أَن أَحدًا رآه.. لابد أَن يستعمل وسيلة نقل مُعينة.. يبدو كرجلٍ في مهمةٍ.

***

١٩٨٨

كادَ يفقدُ أَثرَ الطفلِ المقصودِ، لعنَ الشيطانَ الذِي وسوسَ لهُ التحرشَ بالمنظفةِ في نفسِ اللحظةِ التِي قامَ فيها الطفلُ عن كرسيهِ حاملًا أَوراقهُ ومُتوجهًا نحوَ الأَحراشِ بالجهةِ المظلمةِ من الساحةِ، ولولا بعضُ الحضورِ الذينَ حاولوا تهدئة المرأةِ التِي لم تتوقف عن الصياحِ واتهامهِ لما قدرَ على الفكاكِ منْ بينِ يديها.

سارعَ الوحيشي نحوَ المكانِ الذي اختفى وراءهُ الطفل.. ماذَا كانَ اسمهُ؟ عادل.. نعم من السهلِ حفظ أَوصافهِ، أَمهق كشمعةٍ في وسط الظلامِ كما وصفهُ الغُزي

«لا تحتاجُ إِلى صورتهِ، فلن تجدَ إِلا شخصًا واحدًا بهذهِ الصفةِ في كلِ المنسية».

يبدو صغيرًا أَصغرَ من السنِ التِي توقفَ فيها هوَ عن الذهابِ للمدرسةِ للعملِ بورشةِ الحدادةِ ثمَ بالمنجم، أَمعنَ النظرَ فيهِ، كانَ يرتدِي قميصًا رياضيًا مزودًا بقلنسوة، وحذاءً باليًا.

تقلصت خطواتهُ بعدَ أَن توسعت.. توقفَ وقدْ بانَ رأسُ الطفلِ ثمَ جسدهُ من وراءِ الصخورِ التي اختبأ وراءها.. لقدْ كان يتبولُ فقط.. فكرَ بسهامِ خطيبتهُ التي لا يُخفي عنها شيئًا على الأَقلِ لم يخفي عنها ما فعلهُ بالطبيبِ الشابِ لولا إِصرارها على معرفةِ ما الذي تسلمهُ منَ الغزي صباحَ البارحةِ لما أَخبرها بجريمتهِ.

نظرَ لعادل مرةً أُخرى، ربما يكونُ أَبا لهكذا طفل يشعُ نورًا، تنهدَ وهو يفكرُ بما يفعلهُ الآن لا شيء يمكنُ أَن يبررَ ما فعلهُ وسيفعلهُ، كما لا شيء يُبررُ هذهِ الحياةِ التِي يعيشُها أو التِي عاشها.

انتظرهُ حتى يكملَ، جالتْ عيناهُ بالمكانِ المظلم، التفتَ وراءهُ.. اطمأن على خلوهِ من أي شخص، فمعَ انقطاعِ الكهرباءِ وتوقفِ المسرحيةِ منذُ بضعةِ دقائقِ عادَ البعضُ إلى بيوتهم بالجهةِ الشرقيةِ من الساحةِ، باتجاه الملجأ أو الحي الأُوروبي بينما ظل الآخرون على كراسيهم منتظرينَ الفرجَ، كانَ يُريدُ إنهاءَ مهمتهِ منذُ بعضَ الوقت لكنْ مُرافقةُ عادل لعددٍ من الأطفالِ حالَ دونَ ذلكَ، حتى حانتْ اللحظةُ المُناسبةُ مع انقطاعِ الكهرباءِ عن المسرحيةِ وتوجه الطفلِ للخلاءِ.

أَرجعَ يدهُ ببطءِ للخلفِ، اطمئن على وجودِ الفأس المُثبت بحلقة حزامه. التفتَ يمينًا ويسارًا لآخرِ مرةٍ، اقتربَ منهُ بينما كانَ الطفلُ يغلقُ سلسلةَ سروالهِ وينحنِي لالتقاط أوراقهِ.

رفعَ ذراعهُ واندفعَ وراءهُ.. وضعَ يدهُ على فمهِ ليتجنبَ صراخهُ، قبضَ عليهِ ورفعهُ حتى أصبحت ساقا الطفلِ تتأرجحانِ وتصطكانِ بركبته.. لا يستطيعُ أَن يُجازفَ بقتلهِ في هذا المكانِ خاصةَ مع إمكانيةِ عودةِ التيارِ الكهربائي لذلكَ كان قدْ خططَ أَن يقتلهُ بعيدًا.. بالقرب منَ المنجم القديم، ليسَ ببعيدٍ عن الموضع الذي شاهدَ فيهِ عادل كلَ شيءِ، ليتركَ فرصةَ إيجادِ جثتهِ لنهارِ الغدِ.. وقتٌ كاف ليرحلَ عن هذهِ البلدةِ ببقيةِ نقوده.

حاولَ عادل بدورهِ المُقاومةَ بيدٍ واحدةٍ مُتشنجةٍ بينما قبضتْ الثانيةُ على دسةِ أَوراقه التي بدأت تنكمشُ بينَ أَصابعهِ، سقطَ حمادي على ركبتيهِ والطفلِ لا يزالُ في حضنهِ وهو يضغط على فمهِ عندما شاهدَ ظلًا بشريًا يمرُ

منِ فوقهَا.. كانَ مجردُ شخص منَ المحليينَ يستعجلُ عاملَ الصيانةِ.. عليهِ بالمُغادرةُ الآن وإلا كشفَ أمرهُ.

نظرَ لوجه الطفلِ الذي بدا مستريحًا وساكنًا بينَ يديهِ.. كانت عيناهُ مغمضتانِ بعدَ أَن كانتا تشعانِ خوفًا.. أَدركَ أَنهُ فقدَ الوعيَ.

***

«الرَجلُ الذي يفَكرُ دائمًا بالانتقامِ هو شخصٌ يبقي جراحهُ مَفتوحة»

فرانسيس باكو.

تمعنَ الغزواني في سجلِ المستأجرينَ: حسام الجريدي، تاريخ استئجار الغرفةِ عدد ٧ يوم ٢٣ ماي ٢٠١٣، نسخة عن بطاقة هويتهِ وإمضائهُ لم يدون أَي رقَم هاتفٍ، وضع السجلَ على الطاولةِ والتفتَ

– هل زاره أَحدٌ؟ هل كان يقابل أَحدًا؟ ٣ أَشهر مدة طويلة

سأَلَ رئيسة المنظفات في غرفة المدير بعد أَن تركً الشرطة الفنية والعلمية تهتمُ بفحص المكان ورفع البصَمات.

– لا لم يسبقِ لنَا.. أَقصد لي، أَن تحدثت معه أَبدًا، إِنه شخص كتومٌ ونادرًا ما يتعامل مع أَحد

ظلت مُتوترة تفرك أَصابعها أَمام صدرها السمين اقتربتْ ببطء وهمستْ

-لكن يمكن لـ (نادية) مُساعدتك، إنها تتجاذب معه أَطراف الحديث أَحيانًا.. إِنها فتاة شقية ترغم الحجَر على النطق بسبب ثرثرتها

بدت المشرفة وكأنها ترمي كرة الاستجواب لزميلتها وعلامات الصدمة لازالت تصبغ وجهها.

أَلقت نادية الفتاةِ العشرينيةِ نظرة من تحت رُموشها وقالت بين طقطقات اللبان الذي تلوكهُ:

– لا أَعرف أَكثر مما يعرفه الجميع هنا.. هوَ رجل غامض يُخرجُ الحرف من بينِ شفتيهِ بشق الأَنفس ولكنه كريم أَحيانًا إن اقتضى الأَمر وأَحيانًا يلتزمُ السكوتَ ليومٍ كاملٍ.. هل فعلَ عم حسام شيئًا؟

لم تبدُ الفتاة مهتمة بالإجابة بقدر اهتمامها باستبيانِ أَسبابِ هذا الاستجوابِ.

-أَلقي بهذا الشيء من فمكِ!

كانت ممتلئةَ القوام دونِ مبالغةً، ترتدي لباسًا مُوحدا على غرار مُشرفتها ولكن يبدو أَنها فعلت فيه المَقص لكي يليق بها ويبرز استدارةَ جسمها

-حاضر سيدي

بتململ أَخرجت قطعة اللبانِ من فمها بدونِ أَن ترميهَا.

-يقطن هنا منذ شهر ولم تشاهديه إلا بضع مرات ورغم ذلك تتذكرين الكثير عنه؟!

-ليس برجلٍ يُنسَى.

-هل كان يعرج؟

-ماذا؟

-هل كان حسام الجريدِي يعرجُ؟

سكتت ثم قالت

-نعم نعم.. كان يسير بطريقة عرجاءَ، لكن...

ارخت شفتها العليا وكأنهَا تهم بقول شيء، غيرَ أَنها مُترددة.

-ماذَا؟

حدقت بارتياب قبل أَن تفصح

-كانتْ مرةً واحدة.. حتى أَنني لستُ متأكدة مما سأقولهُ الآن، بل أَنا متأكدة، لقد رأَيتهُ يركضُ، نعم أَقصد بدونِ أَن يبدو عليهِ أَي عرجٍ.

–يركض؟

تلاشى كل التوتر الذي شعرتْ بهِ

– نعم، شاهدتهُ يقطعُ ساحةَ النزلِ من بوابتها الأَمامية إلى رواقِ غرفتهِ، كانَ الوقتُ ليلًا ولكنني أَعرفُ ما شاهدتهُ، كانتْ ليلةً ممطرة بعدَ منتصفِ الليلِ، اضطررتُ لمشاركةِ إحدى الغرفِ مع المشرفةِ، لم أَكن قادرةً على العودةِ للمنزلِ في آخر المظيلةِ بسببِ الأَمطارِ لذلكَ بتُ بالنزلِ.. ليلتها رأيتهُ يركضُ، إنهُ أَمرٌ غريبٌ يا سيدي ولكَنهُ حصل.

***

إنهُ وقتٌ صعب.

بطريقة لا إرادية نادى الغزواني على نصر الدِين قبلَ أَن يتنهدَ وَيدخلَ غرفةَ العملياتِ، كانَ يريدُ فقط أَن يتجرع إبريقًا كاملًا من القهوة تكفيه للمحافظة على عيونه مفتوحةٍ وذهنه مُتيقظًا، لكن الآنَ انتابهُ شعورُ بالفراغِ والمَرارةِ، غدا الأَمرُ ثقيلًا عليهِ بدونِ مرؤوسه افتقدَ حتى تلكَ الفوضى التي يخلفها وراءهُ.

كانَ مكتبهُ قد رتبَ قليلا من قبلِ شوق، أَزالت الأَوراق غيرَ المهمة، تركتْ مجلدات القصصِ المُصورةِ على السطحِ، اتجهَ إليها والتقطَ ما بدا لهُ مخطط كتاب مصور، دون على صفحتهِ الأَولىَ «قاع المَدينة» تفحصَ مُبتسمًا بعضَ الرسوماتِ بسرعةٍ يبدو أَنَ مُساعدهُ لم يكنْ يبالغُ عندما قالَ أَنهُ سيكونُ كاتبَ كتب مصورة، هذا مشروع حياتهِ.

وضع الكتابَ جانبًا مع بلوغِ صوتِ حذاءِ شوق مسامعهُ.

انتقلَ تفكيرهُ إلى الجريدي، رجل تجاوزَ الكهولةَ.. كيفَ يتركُ كلَ ذلكَ ويختفي، عائلتهُ، زوجتهُ، جرايتهُ؟ يعيشُ بغرفة نزلٍ رخيص، أينَ كانَ طوالَ هاتينِ السنتين؟ لماذا لم يتواصل مع عائلتهِ هل خططَ طوال هذا الوقتِ للقتلِ؟ لماذا؟ لا يظنُ أنَ الأمرَ مرتبطٌ بتصفيةِ حساباتٍ قديمةٍ وإن بدا كذلكَ.

استقرَ الغزواني على كرسيهِ ساخطًا بينما فتحتْ شوق الحاسوبَ أمامهُ وثبتت حاملة الملفاتِ عليهِ

– تحصلتُ على مقطعِ مصور للجريدِي من كاميرَا المطعم، كانَ معهُ أحدٌ ما.. كما سيرسلُ محسن صورةَ أكثر وضوحًا لوجهِ المشتبه بهِ من كاميرا المطعمِ بعدَ قليل.. إننا نحرز تقدمًا.

أضاءت شاشةُ الحاسوبِ على مقطع من عدةِ دقائق بتاريخ البارحةِ على الساعةِ الواحدةِ و٢٣ دقيقة ظهرًا، كانَ من الواضحِ أن الكامَيرَا كانتْ مُثبتة بأعلى وأقرب ركنٍ من المطعم، يَشملُ الفيديو الملتقَطُ جزءًا موسعًا منَ أحدِ جوانبِ الكاباتينا بعيدًا عن البابِ الرئيسي بينما تفرقَ عددٌ من الزبائنِ جلوسًا.

أشارتْ شوق لأحدِ الجوانبِ غيرَ البعيدةِ

– لا يوجدُ غيرُ كاميرا واحدة لكنها كافية

كانَ حسام الجريدي جالسًا مقابلَ طاولةَ غداء وبمواجهته يجلسُ شخص آخر بدا مضطربًا مع كل حركة رأْس، لم يتبينهُ الغزواني وإن كانَ يرتدي قميصًا أبيض ويبدو أصغرَ سنًا، ذو شعرٍ أسودٍ لا يزالُ يرتدي حقيبةَ ظهرٍ تخفي نصفَ رأسهِ من الخلفِ.

–هل يُمكنُ أن يكونَ هذا ما سماهُ عماد بصاحبِ حقيبةِ الظهرِ؟

-قال عماد أَيضًا أَنهُ شاهدهُ مرةً بصحبةِ مُسنٍ.. الشابُ والجريدي شريكانِ.

تنهدت شوق وأَكملتْ

- سيستمرانِ على هذهِ الوضعيةِ لعدةِ دقائقَ حتى يخرجَ الجريدي ثمَ الشابَ على إِثرهِ

لم يكونا يتجادلانِ، إِنما يتحدثانِ وهما يلتهمانِ الطعامَ، يتناقشان حول الجرائم

-لماذا يَرتدِي الجريدي نظارتهُ الشمسية بداخلِ المطعمِ أَيضًا؟ هذا مُثيرٌ للريبةِ!.

تابعا المقطعَ المُصورَ حتى نهضَ الرجلُ الثانِي وغادرَ دونَ أَن تلتقطَ كاميرا المطعَم وجههُ

-للأَسفِ إِنهُ بعيدٌ عن نطاقِ كاميرَا المُراقبةِ.

سأَلَ الغزواني وهو يُراقبُ بقيةَ الفيديو

- هل سأَلتِ صاحبَ المطعم؟ النوادل؟

-تعرفَ عليهِ نادلٌ واحدٌ، لَم يعرفهُ بالاسم ولكنهُ أَكدَ على أَن الرجلَ الأَعرجَ، حسبَ وصفه، جاءَ قبلَ شهر أَيضًا وتناَولَ غداءهُ وتبادلَ معهُ بضعةَ كلماتٍ، لستُ بحاجةٍ أَن أَقولَ أَنهُ لاً يمكنُ استرجاعُ ما سجلتهُ الكاميرَا يومها.

بعدَ دقائق قامَ الجريدي عن كرسيهِ يعرجُ، بمشية مُتثاقلة، أَثرُ عرج ليسَ بالخفيفِ، حيثُ يظهرُ لوهلةٍ أَنهُ يجرُ ساقهُ اليُمنى قليلًا قبلً أَن تستقيمَ عندَ الخطوِ.

تذكرَ كلامَ المنظفةِ الشابةِ

«كانَ يجري».

–حسبَ رأيك سيدي لماذا يُخفي الجريدي سلامةَ رجلهِ؟

لم يجب كانَ يُدقِقُ في الفيديو، تابعَ الجريدي وهوَ ينحنِي رأْسهُ قليلًا حتى لا يصطدم بإطار الباب الخارجِي، كانَ طويلًا بحق

–كم يبلغُ طول المشتبهِ به؟

صمتتْ شوق برهةً قبلَ أَن تُجيبَ

–متر وسبعونَ تقريبًا.

–يبدو أَطولَ من ذلكَ.

سحبتْ هاتفها من جيبِ سرواِلها

–لقدْ أَرسلَ محسن صورةً أَكثرَ وضوحًا لوجهِ المُشتبهِ بهِ.. تفضَّل.

أَلقى نظرةً سريعةً لشاشةِ الهاتفِ، قبلَ أَن تعودَ نظراتهِ المُتفاجئة تتأَملُ الوجهَ والملامحَ التي بدتْ تفاصيلهُ أَكثرَ وضوحًا الفمَ الرقيقَ والشعرَ الأَبيضَ الخفيف حتى التجاعيدَ بدتْ كاكتشافٍ عظيم

– هكذَا أَفضل.. يبدو أَكبرَ سنًا من صورتهِ في البطاقةَ.. بل حتى أَنهُ يبدو مختلفًا قليلًا.

انحنى الغزواني للأَمامِ أَكثرَ

– إنهُ مختلفٌ تمامًا.

–ماذَا تعنِي؟

استعادَ فكرةً لا تزال حيةً في ذاكرتهِ.. تذكر الآن ذلك الشيء الذي لم

يعجبهِ في ضوء عند زيارتهِ في المِصحة، شيء صغيرٌ بالكاد كان محسوسًا.. شعر أنه لم يتعرف عليهِ ليس بسبب تشوهِ وجههِ وذهاب ما بقيَ من عقلهِ وثقلِ عقدةِ لسانه، بل شيء آخر يكاد يقبضُ علَيهِ الآن، في ذاكرتهِ كانَ عم ضوء صاحبَ شَحمة أُذن مُلتصقةٍ.. أَما من رآهُ في المصحةِ كانَ شخصًا آخر تمامًا.

بينما هذا.. صاحبُ الصورةِ، الرجلُ النحيفُ الذي يرتدي نظاراتٍ شمسيةٍ داخلَ قاعةِ مطعم فقدْ كان ذا شحمتيْ أُذنٍ ملتصقتين.

تركَ مَا في يدهِ وقفزَ مُلتقطًا المُجلد وسحبَ الصورةَ التي تحصلتْ عليها شوق من قبلِ ابنةِ الجريدي.. ظل يتفرسُ بها للحظاتٍ

-ماذا هناك يا سيدِي

بدا الغزوَاني مُركزا على ما في يدهِ

-إِنهُ ليسَ هو

رفع عينيه نحوها وقد أَيقنت شوق أَنهُ مضطربٌ

-ماذَا تقصد؟

-هذهِ صورةُ الجريدي قبلَ سنواتٍ من اختفائهِ، انظري للأُذنينِ ماذا ترينَ؟

-إنهما أُذنانِ طبيعيتانِ.. لا أَفهمُ ما تقصدُ.. ما الذِي أَفزعكَ في الصورةِ الموضحة للمشتبهِ بهِ التي أَرسلها مُحسن؟

أَلقت نظرةً عليها لتُقارنَ بين التي في يدهِ وما في هاتفها رأَت أَخيرًا ما كانَ الغزواني يعنيه بكلامهِ

-شكلُ الأُذنينِ مختلفتينِ.. هناكَ خطأ ما بالتأكيدِ.

كست غشاوة نظرتها لثوان لم تكن كافية لتتمالك نفسها

-إنهُ ليس الجريدي؟ الذِي فِي المطعم أَليسَ كذلكَ؟ لكنِ كيفَ ذلكَ؟ لقد أَكدَ النَادلُ الذي يعملُ بالمطعم أَنهُ هوَ.. إِنهُ لا يزالُ يعرجُ.

-هل هوَ يعرجُ فعلًا؟ لماذا لم يخبرنا عماد بذلك؟ كانَ سَيُلاحظُ عرجهُ.

-إِن كانَ لا يعرج، لما يصطنعُ ذلكَ؟ لأَي هدفٍ؟

ارتمى المُحققُ على الكُرسِي جالسًا، كانَ عليهِ أَن ينتبهَ أَكثر، كيفَ فاتهُ هذا؟ سقط الشك والارتباكُ أَخيرًا.. بلغته الإجابة كخيوط ذلك الفجر الذي انبثق رقيقًا من وراء جبال المظيلة في تلك اللَيلة العجائبية.

-ليوهمَ الناسَ بِأَنه حسام الجريدي على الأَقلِ من حيثُ المعاملاتِ الورقيةِ.

-إذن من هذا الشخصُ الذي يعيشُ باسمِ الجريدي؟ وإِن كانَ ليسَ هوَ فأَينَ الجريدي الحقيقِي؟

-إنَ الجريدي بالمُستشفى، يعيشُ حياةَ الأَمواتِ باسم ضوء الصغير!.

***

١٩٨٨

راقبتْ علياء ابن خالها الأَمهق

- انظري

شحذَ كل انتباههِ وتتحقق من متانة أَغصانِ الشجرةِ وتابعَ:

-يجبُ أَن تكون ثخينة العرض وصلبة

قبلِ أَن يتمسكَ بكلتا يديهِ على أَقواها وأَقربها، استندَ بقدميهِ على واحدة وراء الأُخرى والغريبُ أَنهُ لم يسقط أَبدًا، رغم كل خوفِها في أَن يُؤذي نفسهُ في كلِ المرات التي لا يمكنها فيها أَن تُحصيها، حيث كانتْ تنتبهُ مثل المصروعة على أَية طقطقة ترسلها الأَغصان أَو أَي تأرجحٍ للأوراقِ:

-اصعدي من هنا.. مشهد مُبهج.

في الوقت الذي كانَ فيه سالم يخشى تسلق جذع الشجرة أَو تجاوز ذلك المُنحدر الذي حذرهُ منه والدَهُ، حيث كان يؤمنُ بتلكَ الحدود الوهمية التي تفصل ما يعرفهُ عما لا يعرفهُ، كانَ عادل يُطل من هناك ويحلمُ بأَن تنبت من رؤوسِ الأَشجار الجافةِ فروعًا خضراء ثخينة تمتد للأفقِ لمسافاتٍ طويلة.. لعدة أَميال وأَميال، وتصلها انحناءً بها وراءَ المنسيةِ.

قدمَ أَحمدُ مع العم ضوء وهما يحملانِ بعضَ الحطبِ الجافِ، كان ضوء قد دعاهم إِلى هذا المكانِ الخالي قبيلَ المغربِ استعدادًا لرحلته التي تبدأ غدًا.

نزلَ ابنهُ عن الشجرةِ بخفةٍ، وجلسَ مع البقيةِ بالقربِ منَ كومة الحطبِ التي جهزها ضوء لهم، قالَ وقد بلغت ابتسامتهُ عينيه

-ستتعشونَ أَفعى مشوية هذهِ الليلةَ!.

صرخَوا منَ الفرحةِ، لكنْ سالمِ بادرهم بالسؤالِ الذي علقَ في رأسه وقدْ بدا وجههُ شاحبًا وكأَنَ الدمُ خُطفَ منهُ:

- أَلن نتسممَ يا عمي؟

ظلت عيناهُ مُعلقتين بالإجابة، بينما أَدارَ البقية رؤوسهم انتظارًا لردِ العمِ الذي كادَ يستلقي على ظَهرهِ من الضحكِ:

- لا لن نتسممَ، إِنها أَفعى برية غيرُ سامةٍ!

نهضَ من مكانهِ وهوَ يوجهُ كلامهُ لعادل:

- لنجهز النار يا بني.

قفزَ الأَمهقُ من مكانهِ مُتحمسًا، وهوَ يهرولُ نحوَ المكانِ الذي سبقهُ إليه والدهُ، بينما مدت علياءَ يدها عاليًا تكاد تطول السماء بأصابعها، تحسبها تطَيرُ بعيدًا غيرَ أَنها تبقى مُعلقةً بجسمها وبالأرض وبالبلدةِ، فيما استظلَ سالم بظل الصخرة الممتد تحته كماردٍ أَسود ينمو، التفتَ أَحمدُ إلى علياء وقالَ:

- هل تعلمين أَن أجدادنا أَكلوا الجراد والصراصير والقطط والكلاب بالسابق، حتى الأَفاعي؟!.

أَخفضتْ رأسها بعدَ أَن كانتْ عيناها مشدودتينِ نحوَ السماءِ:

-هل كانت لذيذة؟

ضمتْ أَطراف تنورتها بين ركبتيها.

-لا أَعلم فليس لهذا أَكلوها على كل حال.. أَبي أَخبرني بذلكَ.

بعد ربع سعةٍ تحلقَ أَربعتهم حولَ أتون النار، وكل يد تنتهي بعصَا مغروسة في آخرها قطعة من الأفعى التي اصطادها والدُ عادل وقطعها إلى

عدة أجزاءٍ، كانوا أطفالًا لا تسهو عيونهم عنِ أي جديدٍ ولا بطُونهم عن أي طعام غريب، بينما تدلت أَلسنتهم من شدة الحَماسِ.

رقدت أَجزاء الأَفعى فوق قطعِ الخشبِ المحترِق، فاحت رائحتُها الزكيةً، شبهها أَحمدُ برائحةِ الدجاجِ المشويَ، بينما أَصرت علياءُ على أَنها تشبهُ رائحةِ لحم العجلِ.. في حينَ ظلَ عادل يتباهى بصيد والدهِ الوفير.. تضاحكوا.. مسحَ سالمِ شفتيهِ بلسانه منتَظرا أَن تخفَ الحرارةُ ليتلهمَ نصيبهُ.

التفتَ عادل لوالدِهِ:

- لا تنسَ يا أَبي.. يجبُ أَن تعودَ قبلَ ليلةِ المسرحيةِ.

-لا تقلق، سأَكونُ موجودًا.

***

القســم الرابــع

«مَن يحمل الماضِي تتعثرُ خطاه»

الحرافيش،

نجيب محفوظ.

تَهاوى جَسدها على المقعد المُبطن وقد وضعتْ، لا إِراديًا، كفها على رقبتهَا دون أَن ترفع عينيهَا عن عيني أَحمد الغزواني

-هل أَنتَ متأكد؟

كررت علياء سؤالها.

كان الغزواني أَيضًا بحاجة للنظر إلى عينيْ علياء، ليتأكدَ من أَنها لم تكن على معرفة مُسبقة بالأمرِ أَو مُشاركة فيهِ، لكنهما تَغلبانِه في العادةِ.. تلكَ النظراتِ.

كان وقعُ الصدمة على وجهها واضحًا معَ بروزِ عروق صَدغها.. اتضح أَنها كانت مُتوجهةً لاجتماع قبل أَنْ يقتحمَ عليها برفقةِ شوق مكتبها في الطابقِ الثاني من الشركةِ المُتوسطيِّةِ.. كانتْ ترتدي تنورة سوداءَ وقميصًا أَبيضَ

- أَتقولين أَنك كنت لا تعلمينَ؟

كانتْ ملامح الريبة تَعلو وجههُ.

-أَلا تُصدقُني؟

- أَحمد، أَنا لم أَعرف أبدًا.. صدقًا

لمعت عيناها وهي تتوسله تصديقها.

لم يهتم لتوسلاتها.. أَلقى نظرةً خاطفة إليها وهو يذرعُ الغرفةِ ذهابًا وإيابا، بينما ظلتْ شوق واقفةً بينهمَا، تساءلتْ إن كانَ خالها ضوء قد كذبَ عليها لمدة سنتينِ؟ هل خُدعت حقًا لمدة سنتين؟َ!

جذبت علياء نفسًا قويًا مرةً أخرى، لم ينجح الأمر، شعرت باحتقانٍ في صدرهَا ولهيبًا في رأسها، كانت لا تزال ترتجفُ

-أتقول أَن الرجلَ الذي كنتُ أَزورهُ أُسبوعيًا ليسَ خالي؟ هذا لا يُع..

لم تقوَ على استكمال كلمتها، وذهنها غير قادرٍ على استيعابِ ما قالهُ الغزواني منذ دقائق.

أَومأَ الغزواني وهو يتجه نحوها

- كيفَ يكونُ قادرًا على النزولِ بفندق لمدةِ شهرين كاملين؟ من أَينَ لهُ المالَ؟ كيفَ يبتاعُ منظارًا سعرهُ بقيمةِ راتبي الشهرِي؟ إِن لم يكَنْ هناكَ من يدعمهُ ماليًا؟!.

صرخت وقد نزلتْ دموعها:

- أَنا لا أعرف.. لا أَعرف يا أَحمد.

لم يبارح مكانهُ أَمامها ولم يخفف هجومهُ

-حقًا؟ لم تشكي أَبدًا؟ كيفَ ذلك؟ لو رأيتُ أَبي الآن بعدَ وفاتهِ منذُ أَكثرَ من عقدينِ لتعرفتُ عليهِ حتى لو كانَ في وسطِ أَلفٍ من البشرِ!.

مسحتْ دموعها:

-لم تَسمح لي والدتي بزيارتهِ في السجن، بالكادِ أَتذكرُ ملامحهُ في طفولتِي.. عندما خرجَ خالي لم يزرنَا سوى مرةٍ واحدة، حتى والدتي المسكينة خشيتْ أَن تموتَ قبلَ رؤيتهِ.. لكنهُ لم يأْتِ وهيَ لم تزرهُ أَبدًا.. قبلَ سنتينِ اتصلوا بي،

قالوا خالكِ بالإنعاش.. حاولَ قتلَ نفسهِ حرقًا.. عندما رأَيتهُ كانَ مشوهًا.. غريبًا عني.

تراجعَ خطوتينِ وهوَ يشتمُ، تقدمتْ شوق وهي تستكملُ استجوابها

-كيفَ اتصلوا بكِ؟ ماهيَ تفاصيلُ مُحاولةِ الانتحارِ؟ أَلم تشكوا بشيءٍ غريب؟

-أَلم نشك؟ مسجون طيلةَ عشرينَ عامًا.. لا زوجةً ولا ولدًا.. يحرقُ نفسهُ.. يبدو كفعلٍ منطقي مع سوءِ أَحوالهِ العقليةِ بعدَ قتلهِ لياسين.. إنهُ رغمَ ذلكَ إنسانٌ بالغٌ أَكانَ علينا أَن نقدم بلاغ اختفاءٍ؟

أَشارتْ لها شوق:

-على رسلكِ.. كيفَ بلغكِ الخبرُ؟

لم يكن هُناك أَي شك في أَنه تعرضَ للحرقِ، لم يكن هناك سبب للتشكيك في رواية الشاهد الذِي أَكدَ على أَنهُ كانَ حاضرًا لمشهد محاولةِ انتحارِ خالها ضوء حرقًا.. فقد كررَ أَمام الشرطَة وأَفراد المَطافيء المَدنية الذين حضرُوا مكانَ الحادثِ متأخرينَ أَنهُ شاهدهُ وهو يتخبطُ في نارهِ.. بدأً من ساقيهِ ثم كل جسمهِ العلوي قبل أَنْ يُطفئها عندما سقط فاقدًا للوعي.

عثرت الشرطةُ في مكان الحادثِ على قارورةِ غاز، وأَعواد ثقابٍ وبقايَا مُحترقةٍ من ملابسِ الضحيةِ الذِي دخلَ في غيبوبةٍ بسبب تعفنٍ جرثومي استفاقَ منهَا بعد أَشهر، وقد فقد القدرة على الكلام والإدراكِ.. عُثر على أَوراقه الثبوتية بالقرب منهُ.. سردت علياء تفاصيلَ الحادثةِ كما يعرفها الجميعُ:

- لم أَنظر لوجههِ لأَتعرفَ عليهِ.. إنها الأَوراقُ.. أَنا لم أَتمكن على ذلكَ.. حتى بعدَ استيقاظهِ لم يتعرف عليَّ، أَنَا بالكاد تعرفتُ عليهِ أَيضًا.. بدَا مُختلفًا جدًا.. الحروق.. التشوهاتِ.. مُرورِ السنواتِ غيرتْ فيه الكثير والكثيرَ.. كيفَ سأَعرفُ أَنهُ شخصٌ آخر؟!

ابتلعَ الغزواني لعابهُ وسأَلَ

- مَن هذا الشاهد؟

-الشاهد؟ لقدْ تعرفتَ عليهِ مُسبقًا.. إِنهُ الممرضُ صهيب المحمدي.

***

واصلت شوق طرحَ أَسئلتها وهما يمرانِ بالرواقِ المُؤدي إِلى غرفةِ الفرقةِ الفنيةِ والعلميةِ

- كيفَ لم يتحقق من بصماتِ المريضِ عندَ إدراج ملفهِ الطبي في سجلاتِ المِصحةِ؟

-أَصابعهُ كانت محترقة بالكاملِ، كانَ من الصعبِ استخلاصُ البصماتِ من عليها.. لذلكَ فقط هم تتبعوا أَوراقهُ الثبوتيةِ التي وجدت بالقربِ منهُ بعد الاحتراقِ.. وقد تدخلت علياء بمعارفها لكي لا يعقدَ النظام الإداري البطيء من عمليةَ دخولهِ للمستشفى ثمَ دار الرعايةِ من بعدُ.

كانا قدْ عادا من عمليةِ تفتيشِ غرفةِ المُمرضِ، بعدَ أَن أَصدرَا أَمرَ القبضِ عليهِ.. لم يتم العثورُ على صهيب في أَي مكانٍ داخلَ المجمع السكني المخصص لأفراد طاقم التمريضِ، أَو مركزِ الرعايةِ التي يرقدُ بها الجريدي، رفيقهُ بالسكنِ نفى رؤيتهُ منذُ أَكثرِ من يومينِ، لم يأخذُ شيئًا معهُ من متعلقاتهِ

الشخصيةَ غيرَ أَوراقه.. لم يعثر في غرفتهِ على شيءٍ مهمٍ، ولم يتحصل الغزوانِي على معلوماتٍ يُمكنُ أَن تقودهُ إِلى مكانِ اختبائهِ.

-هل هو مختبيءٌ؟

-إِن كانَ مُصرًّا على إنهاءِ انتقامهِ لقتلِ أَخيهِ هلال.. فهو مختبيءٌ بالتأَكيد.. لقدْ فاَتَ الكثير ولم يبق إِلا القليلُ.

-وهذا القليلُ هو الشريكُ الرابعُ؟

-نعم.. اطلبي تحليل الحمض النووي.. واعثري إن كان له أَقاربٌ في المنسيةِ أَو في المظيلةِ، اتصلي بمُحسن ليتَفقَدَ هاتف المُشتبهِ بهِ.. يجبُ أَن نكتشِفَ ما كان يفعله قبلَ مقتل الوحيشي، وإِن كان قد غاب ليلة مقتلهِ وإِن كان قد رصد بالمنسية أَو لا؟.

-أَمرُكَ سيدِي.

-هل تحصلتِ على رقمُ صاحبةِ صهيب؟

أَومأَت برأسها

- نعم

-اتصلي بها.. لابد أَن تعرفَ شيئًا.. سأَتوجهُ للمصحةِ.. لقدْ خرجتْ فحوصاتُ الحمض النووي..

تنهدَ وأَضافَ:

- ماذا عن آخر المُستجداتِ في قضيةِ مقتلِ سهام؟

هزت كتفيها:

- تعلمُ أَن التحقيقَ لا يَخصُ فريقنَا إِنما شرطةُ المتلوي.. على كلٍّ سمعتُ معلومةٍ مهمة.. بتفريغِ كاميراتِ الشوارعِ الجانبية لمتجرِ الحلوياتِ وكاميرات

شارعِ منزلها، تبينوا وجودَ سيارةٍ مُريبة وجدت بالقربِ من مكانِ وزمنِ القتلِ كما بينَ البحثُ أَن نفس السيارةِ، على الأَقل نفسَ العلامة التجارية، كانتَ مُتوقفة بالقربِ من الشارعِ المُواجهِ لمنزلها.. إِنهم يُحاولونَ التوصل لهويةِ صاحبها.

أَومأ الغزوانِي وقد تسارعتْ خطواتهُ:

- أَي نوعٍ من السياراتِ؟

-(واليسكار) رمادية اللون[1] ليستَ من النوعِ المُنتشرِ في تونس وبالتأكيدِ ليسَ في المظيلة.

***

جلسَ بجانب المريضِ على سريرِ المُستشفى.. بينما فضلت علياءُ أَن تجلسَ بعيدًا عنهما قربَ النافذةِ، كانَ وجهها شاحبًا ترتدي نفسَ التنورة والقميصِ الأَبيضِ الذي شاهدهُ عليها صبيحةَ اليوم، لم يعلم أَنهُ سيلتقيها هُنا

-لم أُصدق.. جئتُ للتأكد حتى هذا لَم يكنْ بوسعي فعلهُ!

أَبعدتْ أَنظارها عن الراقدِ وهيَ تبكي.

كانتْ الغرفةُ هادئة على عكسِ الضجةِ التي أُثيرت بينَ طواقم الأَطباءِ والتمريض منذُ صباحِ اليوم، لم يَصدق أَحَدُ أَنَهُ يُمكنُ لشاب وَدود مثلَ صهيب أَنَ يكونَ مُتورطًا في جَريمةٍ أَو عدةِ جرائم، ظلَ الغزوانيَ يتأملُ المُسنَ النائمَ، تفرسَ في ملامحهِ كيفَ لم ينتبه لهذهِ الخدعةِ؟ بالتأكيدِ أَن هناكَ نقاط تشابهٍ بينَ الرجلين: الطول، النحافة، ضمورُ عظامِ الوجهِ، ولونَ العينينِ.. لكن كانَ عليهِ أَن يَعرف لوحدهِ.

---

(١)-سيارة تونسية المنشأ.Wallyscar

أَكدَ الطبيبُ المُشرفُ عليهِ في وسطِ علاماتِ الذهولِ أَن المريضَ لم يتفوه بكلمةٍ واضحة منذُ انتقاله للمصحة قبلَ سنةٍ ونصفٍ وأَن حالتهُ العقلية المُتدنيةً، أَمرٌ منطقي لمضاعفَات الغيبوبةِ التي كانَ فيها، كما أَكدَ أَن قرارَ قطع ساقهِ حد الركبة كانَ ضروريًا مع تضررها قبلَ حادثةِ الحرقِ.

تنهدَ الغزواني وهوَ يراجعُ أَحداثَ اليوم، تمَ التأَكيدُ بمجال لا يدعو للشكِ على أَن النائمَ على السريرِ هو حسام الجريدِي؛ وفقًا لتحليل مطابقةِ الحمض النووي مع ابنتهِ.. ظل الرجلُ غافيًا بمرقدهِ بمنأى عن كل الصدمات التي يلقيها القدرُ عليهِ، أَمل فقط أَنهُ فاقدٌ لقدراته العقلية بالكامل، فما يحصل له صعبٌ عن أَيٍّ كانَ.

كانَ قدْ طلبَ من المصحةِ سجلاتِ ساعاتِ العملِ التي قضاها صهيب منذُ أُسبوع مقتلِ الوحيشي؛ وخاصةَ بتلكَ الليلةِ والأَمرُ ينطبقُ أَيضًا على ليلةِ مقتلِ سهام ومساءِ حادثةِ نصر الدين.

سأَلت بينَ دموعِها:

– كيفَ حدثَ هذا؟ لماذا حدثَ هذا؟

ابتلعَ الغزواني لُعابهُ ووضحَ لها:

– كان من الواضح أَن عم ضوء كان في حاجة لإيصال معلومةٍ للآخرين.. أَن يعلموا علم اليقين أَنه بعيد وأَنه لا يشكل خطرًا عليهم بعدَ خروجهِ منَ السجن، فدَبر هو وصهيب خطة إحراق الجريدِي، لا أَعلمُ إن كانت خطتهُما قد سارَتْ على مَا يرام بعدم موته ودخولهِ في غيبوبةٍ لكنهما استمرَا فيها.. ضوء في المستشفى بين الحياة والموت والجريدي مختفٍ بالكامل.. لا خطر، لا تهديد.

تنهدَ الغزواني وأَضافَ بعدَ أَن لمحَ أمارات عدم الاستيعاب على وجهها:
-قبل مقتل عادل بيوم كان هناك شاب من (جبنيَانة) يعملُ طبيبًا بالشركةِ المُتوسطيةِ يدعى هلال المحمدي، توصلَ إلى تفاصيلِ يريدُ بعضهم أَن لا تكتشفَ عن الشركة وتلوثِ المياه.. كان على معرفةٍ متينةٍ بخالك ضوء.. المهم دبرتْ لهُ حادثةٌ.. ماتَ محترقًا.. أَيذكركِ هذا بشيءٍ؟ نعم.. أَخو هذا الطبيب الشاب صهيب بعدَ ربع قرنٍ ويا للصدفة يتمُ انتدابهُ كممرضٍ في المصحةِ التي يرقدُ فيها الرجُلِ الَذِي سجلَ في سجلات المُستشفى، ثمَ هذهِ المصحةَ كـ (ضوء الصغير).. أَقصدُ الجريدي المُتهم الأَساسي بمقتلِ هلال ومشاركٌ في مقتلِ عادل.. آه نسيتُ ويصادفُ أَنه الشاهدُ على محاولةِ انتحارِ الجريدي بإحراقِ نفسهِ.. هذهِ الكثيرُ من المصادفاتِ!.

في هذهِ الأَثناءِ أَجابَ على اتصال وارد من مكتب البَصماتِ، أَومأ عدةَ مراتٍ بينما ظلتْ علياءُ تُراقبهُ، أَنهى مُكالمتهُ

«إِنهُ هو.. البصماتُ التِي وجدت بالنزلِ تعودُ لضوء».

***

فيما تُواصلُ الشمسُ انحدارها.. تتحددُ رؤيتهُ للعالمِ ومخلوقاته.. لقد أَسنَ وفهم.. لم يعد ضوء يحكم على النساءِ حسب طولَ فساتينهم أَو على الرجالِ من لحاهم، ولا لحظةَ غضبهم ولا رضاهم.. في الواقعِ لم يعدْ يحكم عليهم أَبدًا، فليعش من يعيش وليمت من يموت، فليرحمه اللهَ أَو لا يرحمه، رُبما ما عاشهُ قتلَ في نفسهِ ما بقيَ لهُ من إحساسٍ أَو اهتمام بالغير.

لم يعد البشرُ يشكلون بالنسبةِ لضوءَ تلكَ الأَهميةِ في حياته، ليسَ بقدرِ أَهميةِ عصفور الكناري على الأَقل، البعض فقط كانَ لهم محلٌ في قلبهِ، علياء منهم، لم يرها منذ خروجهِ منَ السَجنِ، لا يذكرُ أَنهم أَتيا على ذكرِ عادل في

ذلك النهارِ، كانَ ممتنا لذلك، ولتلكَ المعلومةِ التي أَخبرهُ عنها سالم بخصوصِ المنظارِ.. لاَم نفسهُ كثيرًا لأنهُ لم يفطن لذلكَ، لكنهُ سرعانَ ما يقول

«هل سيغيرُ هذا شيئًا؟»

قطعًا لا، لكن.. رُبما كان سيغيرُ شيئًا، كانَ عليهِ أَن يعرفَ منذُ الأَيامِ الأُولى للجريمةِ.

قطعَ عليهِ تأملهُ صوتُ زعيق وسلسة شتائم مرةً أُخرى.. للحظة بدا الصوتُ يتردد بين الجدرانِ الصخريةِ ليصلهُ متقطعًا.. كان لا يزالُ جالسًا تحتَ ظلِ صخرةِ التائب، عندما لمحَ ضوءًا مائلًا للصفرةِ يتوهجُ ثمَ يفترُ ويختفي ثمَ يعاودُ انبعاثَهُ من جديد.. أَبصرَ صهيب قادمًا يسبقهُ ضوء الفانوسِ.

***

«أولئك الذين ينغمسون في الانتقام ويأخذون العدالة في أيديهم، نادرًا ما يعرفون أين هو الحد».

ريشيل ميد.

تم تأكيد أَن قياسَ طبعةِ الحذاءِ الذي وجد في موقع جريمةِ الوحيشي مُطابقةٌ لطبعةِ الحذاءِ الصيفي الذي وجد في غرفةِ النزلِ الرَخيصِ، من جانبٍ آخر رفضَ الطرابلسي طلب الفحص والتحاليل، وأكد علَى أَنَ هذا غيرٌ ضروري وسيكلف الشؤون المالية مصاريف لن تسفر عن أَية نتائج ملموسة يمكن أَن تدفع التحقيق للأَمام.

خلالَ ربع ساعةٍ لخصَ الغزواني لرئيسهِ الطرابلسي آخر ما توصلوا إِليه، وعندما ذُكرَ اَسم سالم الشارنِي صرخَ رئيسهُ

-انتبه.. سالم بالنسبة لأغلبية سكان المَنسيَةِ هو زورق إنقاذٍ.. الابن البار بمسقط رأسهِ.. والذي لم يتركها رغم كل الإغراءاتِ، أَنتَ باتهامهِ لا تضعُ اصبعكَ عليهِ فقط بل تفتحُ النارَ ضدَ الشركةِ، بل ضد السكانِ.. الاقتراب منه يمكن أَن يكلفك وظيفتكَ.

-أَنا لا أَتهمهُ حاليًا بشيءٍ، فقط نحتاجُ إلى استجوابهِ.. وإصدار إذنَ تفتيشٍ لهاتفهِ على الأَقلِ.. أَنتَ تعلمُ أَنهُ تبينَ أَنهُ هو من استقدمَ صهيب للاعتناءِ بالجريدي في دارِ الرعايةِ.

-لا.

-يبدو أَنهُ ليس لنا نفس الهدفِ.. من المُفترض أَن هذهِ الوحدةُ تكونت لحل قضايا لِم تحل، لتضعَ كلَ مُتهم موضعَ الاتهامَ بغض النظرِ عن مكانتهِ، لكن ما أَراه أَن الكل يريدُ أَن يدلي بدلوهِ في جوفهاَ، سيادتُكَ تَريدُ حمايةَ رمز محلي بينما الشَركةُ المُتوسطيةُ لا تريدُ إلا إزاحة ثقل الاتهامات والشبوهاتً عنَ كاهلها في أَسرعِ وقتِ ممكن، قبل أَن يَهرب المُستثمرون حتى لو كانَ هذا يعني أَن سالم مُتورطٌ في الأَمر!.

-بدأتَ تتجاوزُ حدودَكَ.

-آسف، لماذا لا تدعمنِي الآن؟

-أَنا أَدعمك دائمًا، لكن أَنت تعرف كيف تسيرُ هذه الأُمور إِن لم تكن هناك نتائج واضحة فالمقصلة تنتظرنا جميعًا.. أنهِ القضية غزواني، لقدْ قتلَ الوحيشي قاتلُ عادل.

-أَمهلني بضعة أَيام.. هناك خيطُ ضوء الصغير إِننا نتتبعهُ.. سيدي سأقدرُ صبركَ عليَّ.. لازِلت قادرًا على اتخاذ القراراتِ.

تم إنهاءُ المحادثةَ، أَغلقَ الغزواني حاسوبهُ واتصلَ بمُحسن سائلًا

-هل تَحققتَ من الأَرقامِ المدرجةِ في هاتفِ صهيب؟

-نعم.

-أَرسل لي قائمةً مكالماتهِ خاصةً في ليلةِ مقتلِ الوحيشي وسهام بالتحديد.

-سأَفعلْ حالًا.. لكنْ لا مكالمات مشبوهة في قائمة المُكالمات الصَادرة أَو الواردة بالهاتفِ خلال هذا الشهرِ، نفس الأَمر ينطبق على الرسائلِ.

أَطرقَ الغزواني صامتًا لدقيقة قبلَ أَن يسأَل:

-كلهَا مُكالمات لأشخاص مُدرجين بدليل الهاتفِ؟

-نَعم أَرقام خاصة أَو من خطٍ أَرضي من المُستشفى أَو المصحةِ أَو بعضِ المُؤسساتِ الرسميةِ.. لكننِي منْ جانب آخر تمكنتُ من استردادِ مقطع من ملف سَمعي منْ هاتفِ صهيب، يبدو أَنها مُكالمةٌ هاتفية بينهُ وبينَ شخصٍ ما.

فكرَ بسالم

-رجل؟

-لا، إنها امرأة.. المقطعُ قصيرٌ جدًا.. ١٤ ثانية لكن الصوتَ واضحٌ.. سأُرسلهُ إِليكَ الآن.

***

الشمس لم تغرب بعد؛ لكن المكان بدا مُظلمًا في عيون سالم رغم الإضاءة التي ترسلها اللمبات الثلاث المثبتة بسقف المكتب، حدق بربطة عنقه التِي أَلقاها بجانب مُجسم شعار الشركة على سطح مكتبِه.. منذ أن جلس لم ينطق بكلمة، غادرَ كل الموظفين والإداريينَ.. طَلب من علياء أن تتركه لنفسه قليلًا.

لم يبقَ غيره وبضعةَ منظفاتٍ يعملنَ بالليل، إحداهن الخالة (فوزية)، يعملُ زوجها ووَلَداهَا بالمناجم التابعة للشركةِ، يَعرفُها كما يعرفُ أَغلب من يعمل تحتَ إدارته، سحبَ تلك الوثيقة التي أَمامهُ مرة أُخرى.

استرجعَ الحديثَ الناري الذِي دارَ بينهُ وبين صادق عكاشة عصرَ هذا اليوم، كانَ قدْ كلفَ علياء بالبحثِ عن التقاريرِ القديمةِ لفحوصاتِ المياهِ وهناكَ بينَ أَكوام الأَوراقِ المنسيةِ وجدتْ نسخةً عن تقريرِ السلامةِ الأَصلي في أَرشيفِ الشركَةِ، واجههُ بهِ في مكتبهِ، مقارنًا إياها بالتقَريرِ الذي زُورَ.. وفي وسطِ كلِ هذا عثرت علياءُ على عدة تقاريرَ أُخرى تعودُ لسنواتٍ مُتتاليةٍ

بعضها حديثٌ جدًا، كلها أَكدت أَنَ مُستوياتِ الإشعاعِ في المياهِ كانتْ دونَ الخطر.

-أَيها الوغد الحقِير، لقد كنت تعلم بأَمر الفحوصات المُزورة للمياهِ!! ضربَ سالم على سطحِ الطاولةِ الخشبيةِ في غرفةِ مكتبِ هذا الأَخيرِ.

-بل كنتُ وراءهَا!.

أَلجمتهُ الإِجابةُ المُباشرةُ

- ماذا؟ وتعترفُ أَيضًا.

أَومأ مؤكدًا

-نعم نعم.. لقد كنتُ أَحمي الشركة طوال هذه السنواتِ.

-مُهمتي أَن أَحميها ومُهمتك أَنت أَن تنفذَ.. كنت تعلم أَن المستويات فاقتْ المُعدل المَسموح به ولكنكَ صمَتَّ.. حتى الآنَ لهذهِ اللحظةِ لازلتَ تُزورُ تقاريرَ الشركةِ الخاصةِ بتحاليلِ المياهِ في المنسيةِ.. حقًا لقد تجاوزتَ حُدودكَ كثيرًا.

-ماذا كنتَ ستفعلُ لو كنتَ مكاني قبل خمسٍ وعشرينَ سنةٍ، حتى الآنَ؟ أَنتَ لم تفعل شيئًا.. ستضيعُ الشركةُ، ستفلسُ.. أَنا من نجحت في منعِ ذلكَ دائمًا.

-كنت سأَتصرفُ

صمتَ وهوَ ينظرُ في عينيهِ بريبةٍ وشكٍ:

- أَنت من أَصدرتَ أَوامر قتلِ عادل وَهلال، أَليس كذلكَ؟

ظلَّ عكاشةَ يرتجفُ غضبًا وقدْ ارتعشَت شواربهُ الرماديةُ، لم يجب بكلمةٍ

-سأَعودُ للعاصمةِ الآنَ حتى يتمُ القبضُ على المجرمِ.. أَنا.. سأَذهبُ.

غادرَ المديرُ المالي دونَ أَن يلتفتَ وراءهُ، أَخذَ مفاتيحَ سيارتهِ وحقيبته وخرجَ من أَمام سالم، كانَ ذلكَ قبلَ ساعتين على الأَقل، تنهدَ وهو يسترجعُ الغضبَ الذي انتابهُ في تلكَ اللحظة، كانتْ سُمعةُ شركته على المحكِ، رفعَ رأَسهُ عندما سمعَ حفيفَ أَقدامٍ قادمةً نحوَ غرفةِ مكتبهِ، برزَ أَحمدُ الغَزواني من وراءِ البابِ.

***

أَنهى صادق عكاشة مكالمته لمصلحة نقل السيارات المعطلة وهو يشتم، لم يفهم كيف يمكن لسيارته أَن تثقبَ عجلتيها الخلفيتينِ في هذا التوقيتِ، وفي مكانٍ خالٍ من البشرِ والطيرِ مثل هذا

«انتظر نصف ساعة»

أَجابهُ عاملُ المصلحةِ هاتفيًا، شتم مرةً أُخرى.

ترك النافذة مفتوحةً.. كانت الحرارة لا تطاقُ.. أمل أَن تدخلَ نسمة هواء جبليةٍ خفيفة تحركُ هذا السكونَ، أَشعل سيجارتهُ.. نفثَ عدة أعمدة دخانٍ قبل أَن يتوقف فجأة.. في البداية ظن أَنه الخوفُ قد هيأ له ما لا وجودَ لهُ، لكنه سمع الصوتَ مرة أُخرى من داخلِ سيارته.. كان بوسعهِ رؤيةُ ظل يتحركُ بالخارج مُستترًا بأَجنحةِ الظلام التي بدأَت تزحفُ منذُ دقائق.. ضيقَ عيناهُ، استقام عَنْ ظهر كرسيهِ وتحسسَ المُسدسَ بداخل درج السيارةِ.

أَصغَى.

كان صوت الأَقدام خفيفًا.. بالكاد مَسموعًا، تتبعت عيناهُ ما اعتقدهُ أَصواتُ حركة قادمةٍ في اتجاههِ، تحولتْ الأَصواتُ إِلى ظلٍ مُتحركٍ.

تقدم الظلُ نحوه.. نحو الضوء المنبعثِ من كشافات السيارةِ لم يتبين عكاشة هويتهُ وإِن ظلَ يمسكُ بهاتفهِ من وراءِ المقعدِ.

«مرحبًا»

برزَ للظلِ صوتٌ.

بالكادِ فكرَ عكاشة بردِ التحيةِ عندما شعرَ فجأَةً بقرصةٍ خفيفةٍ تحتَ ترقوة رقبته، سحبَ صهيب يدهُ حاملًا الإبرةَ.

انبثقَ الأَلمُ تدريجيًا خفيفًا أَولَ الأَمر قبلَ أَن يتعاظمَ، تحسست يدهُ ببطء موضع الأَلمِ، شعر أَنه يحمل أَثقالًا على أَصابعهِ بدت هذه الحركة الخفيفة بثقل الجبالِ، ثقلَتْ جفونهُ.

لم يكن بوسعِ عكاشة التحرك.. لكنهُ كانَ واعيًا بالكاملِ لخوفهِ، لرائحةِ الموتِ القادمِ.

***

١٩٨٨

كانَ الرضيعُ يزنُ فقط خمسة أَرطالٍ.

يتذكرُ ضوء أَن أُختهُ والدةُ علياء أَخبرتهُ وهيَ تحضنُ عادل في أَيامه الأُولى من هذه الدنيَا.. أَنَ الرضعَ لا يرونَ كما يرى الناسُ مشاهد واضحةً بالألوان، بل مجردُ خيالاتٍ ضبابية تتحركُ لا صفةَ ولا اسم لها.. لذلكَ حذرتهُ عدةَ مرات منْ أَن يقومَ بأية حركة خاطفة سيراها عادل وستخيفه، لذلكَ دأب على أَن يكون مرفقا حذرًا عندَ حمله وتقبيله لكي لا يجزعَ من حركتهِ.. الآن هو بين يديهِ جثة يكسوها كفنٌ أَبيضٌ.. تحيط بهِ كتل ثلج صناعِي.. تلمس رأسَ الكفنِ برفق فربما يفزعُ صغيرهُ.

دفنَ عادل في قبرٍ أَوصى ضوء أَن يُدفنَ بهِ بعدَ موتهِ، ستجمعها نفس الحفرةِ بعدَ أَن فرقتْ الدُنيَا بينهما.. حفر الحزن بإزميله على تجاعيدِ وجههِ واستَقرَ، انطفأ بريقُ عينيهُ مرةً واحدة وكأَنَ الضوءَ سرقَ منها على غفلةٍ منهُ.. رغماً عنهُ.. ماتَ ولدهُ الوحيدُ فلذةَ كبدهِ، بعد أَن انفضَّ الناسُ من حولهِ.. تركَ نفسه ينهارُ على الأَرضِ باكيًا بشفتين منفرجتينِ، وكمن أَفاقَ بعد إِغماءة طويلة.. التفتَ هنا وهناك.

كان يبحث عن وجهِ عادل.

***

"إلى أَي حدٍ مُستعدون للذهابِ من أَجل الحبِ؟"
تَفاني المُشتبه بهِ إكس،
كيجو هيجاشينو.

حدقَ الغزواني مليًا بالصورةِ التي يملكُ نسخةً عنها على جدارِ غرفتهِ بمنزلِ والدتهِ، عندما كانَ أَربعتهم مجتمعينَ، رفع سالم بصره عما كان يقوم به:

–سيبقَى طفلًا في عيني حتى لو عشتُ لأَرى أَبناءَ أَحفادِي

أَشاح صديقهُ بوجهه يخفي ضحكته وهو يقُولُ:

– كنتُ أُفكرُ دائما.. مالي أَراني أَكبر ويشيب شعري وهوَ لا يزالُ طفلًا؟

اهتز صوته بألم:

– أَلا تعتقد يا صديقي أَنهُ حان الوقت للنسيانِ؟

ضم سالمْ قبضته ثم فردها أَمامه:

– هناكَ أَشياء لا نفضلُ نِسيانها.. هذه الندبة التي في باطن يدي تذكير دائم بالوحشية التي رأَيتُها وإِن كل شيء سيء يمكن أَن يحصل لأفضل الناس حتى الأَطفال.

لم يكن لدى أَحمدُ شيءٌ ليقوله، لاحظَ أَنَ صوتُ سالم خلا من ذلك الإيمان الذي كانَ يشوبه حتَى في همسهِ في طفولتهِ.. لقد تغير، لم يتلمس هذا الآن بل منذ سنواتِ لقاءاتهم المُتقطعة، كان تغيرًا عاصفًا قاطعًا كعاصفة في وسط الصحراءِ.. لم يكن هنا رجوعٌ، سرح وهو يفكرُ بالصديقِ الذِي صارهُ..

رجلًا ضخمًا كجبال المظيلةِ، كفه لوحدها قادرة على تركِ فجوةٍ بقطر البئرِ.. بهتت علاقتهما مع مرور الزمن وكثرةِ الأَشغال حتى قطعتْ تقريبًا.

راحِ ينقر بأَصابعه على سطح الطاولة:

- أَنت متوتر، لماذا طلبتَ مُقابلتي؟

ضحكَ سالم وقدْ توقفَ عن النقرِ وبدأ في هرش رأْسه:

- أَنت تعرفني جيدًا يا أَحمد.. لم أَستطع القُدومَ لمركزِ الشرطةِ أَنت تعرفُ الشائعاتِ وسرعةِ انتشارها.

بلغَ الصمتُ بينهما لحظاتٍ طويلةٍ:

- كلانا يعلم أَنكَ لم تأتِ إِلى هنا من أَجل استرجاع الذكرياتِ.

لم تكن حركةُ السير خفيفة هذهِ المرةِ في وسطِ المظيلةِ هذَا المساء، عندما قادَ الغزواني سيارتهُ للوَصولِ لمقرِ الشركةِ، كانتْ علياء قدْ أَعلمتهُ أَن سالم يريدُ أَن يلتقَيهِ هنا لمعلوماتٍ مهمةٍ.

انتزعَ الورقة من الملفِ:

- هذَا.

بدأ سالم يتكلم، أَخبرهُ بكلِ شيءٍ بصوتٍ يكادُ يكونُ هامسًا، يضاهي هذا السكونَ في خفوتهِ.. لا يزالُ الغزوانِي يصغي وقد أَضاءت المصابيحُ جزءًا من جسمهِ

- فهمت.

بابتسامةٍ ساخرةٍ

- عكاشة قالَ أَنهُ سيعودُ للعاصمة.. لم يعترف بالقتلِ لكنني أَكادُ أَبصمُ على ذلكَ.

شخر متقززًا وهوَ يلوحُ بيدهِ.

-مَا نوعُ سيارتهِ؟

-سيارته؟ واليسكار رمادية.. لماذا؟

تكشفت أَمامَ عينيه الغزوانِي تلكَ النقاط والروابطِ التي كانتْ ناقصةً:

-شيءٌ يخصُ التحقيقَ.. تزوير التقاريرِ هيَ أَقلُ مشاكلهِ الآن.

- أَكدت الأَبحاثُ أَنَ السيارةَ التي شوهدت بعيدًا من مسرح جريمةِ سهام بشارعينِ فقط من هذا النوع خفيفة موديل العام الفارط، نَوع نادر مقارنة بالسيارَات التي يمكن مشاَهدتها بالمظيلةِ، ذكرتْ شوق أَنَ هناكَ تقريبًا ثلاثُ فقط يملكونها على محيط عدة كيلومتراتِ، هذا يُرجحُ احتمالية تورطهِ في مقتلِ زوجة الوحيشي أَيضًا.

-سالم، بالنسبةِ لتقاريرِ جودةِ المياه

تنهدَ متذكرًا تلكَ النباتاتِ الشوكيةِ التي تُميزُ المنسيةَ.. ذاتَ السيقان الجافة والميتة.. ميتة لكن لا تزالُ واقفةً

- الناس يمُوتُون يا سالم.

-الموتُ حقٌ

-أَهل بلدتنا يمرضون ويموتونَ

-أَهلنا عاشوا ويعيشون ويضعون الخبز على المائدة كل ليلة بفضلِ هذهِ الشركَةِ.. لأَن الفوسفات هو كل شيء هنا بل هو كل ما لديهم.. لَن نتَحمل أَية مسؤولية عن أَي اتهاماتٍ.

-يبدو أَنَهُ كخطاب رسمي نموذجي!

ضحكَ الغزوانِي مُسترجعًا كلامَ جد بوزيد:

- أَرأيتَ هذا المشطَ المخصص للقملِ؟ بمثلِه يجب إِصلاح الدولة.. بهكذا مِشط لا تترك قملة تنجُو من حقيقة المحاسبة.

اعتدل سالم في جلسته:

- لعلمكَ سأُدافعُ عن شركتِي.

رسم الغزوانِي على وجهه علامات التفهم:

-يجدرُ بك الاتصالُ بمحام.

عندَ مُغادرتهِ اتصلَ بشوقٍ وأَمرها بإعداد قوةٍ أَمنيةٍ من الشرطةِ المحلية تكونُ مُستعدة لأَيِ تحركٍ، كما اتصلَ برئيسهِ سيف الطرابلسي طالبًا منهُ مراقبة الطرقِ الرئيسية باتجاهِ العاصمةِ حيثُ سيكونُ عكاشة بعدَ ساعاتٍ قد وصلَ إِليها.

***

ظلَت شوق تُراقبُ مدخلَ الحَي، إنهُ المكانُ الوحيدُ الذي يُمكنُ أَن تلتقي بهِ بصاحبةَ صهيب التِي رجتها فِي المُكالمة الهاتفيةِ أَن لا تُحادثَها عندَ أَهلها الجاهلينَ لكلِ الأَمر.. كانَتْ تَشعرُ أَنهَا لوحدها في هذهِ المرحلةِ من القضيةِ، طبعًا إِذا استثنينا الغزواني الذي يحملُ الجبلَ كلهُ فوقَ كتفيهِ.

كانَ يقتربُ.. الأَوراقُ بدأَتْ تُكشفُ ببطء، تبصقُ الكثيرَ من أَسرارها، تنفسَت بحرقةٍ وهيَ تَسحبُ ستارةَ نافذةَ سيارتها وهيَ تختفي وراءها شمسَ الظهيرة، الأَبحاثُ أَكدت على عدمِ وجودِ أَية علاقةٍ ماليةٍ تربطُ بينَ علياء وخالها خلالَ هاتين السنتين.. أَوَ على الأَغلب أَنَ معاملاتها الماليةُ تتمُ مُباشرةً دونَ تركِ أَثرٍ ورقي أَوَ إلكتروني، الأمرُ ينطبقُ أَيضًا على سالم.

ظهرتْ الشابةُ قادمةً من أَمام الصيدليةِ، تنظرُ على يمينها وعلى شمالها، تتفحصُ إن كانَ هناكَ من يُراقبُهاَ، دخلتْ السيارةَ من بابِها الأمامي بجانب شوق التيَ لم تعرف ما الذِي سَتبحثُ عنهُ بالضبطِ معها، أو ما الذي يجبُ أَن تسألهُ لصديقةِ صهيب التي بدتْ جاهلةً لكلِ صفاتِه الأُخرى غيرَ «الحنانِ، والتفهمِ» كما وصفتهُ الشابةُ وعيناها تقطرُ دموعًا وذهولًا.

تصرفت شوق وكأنها تتعاطفُ معها، سلمتها منديلًا ورقيًا معطرًا

-إنني أَفهمُ حزنك.. لكنني أَسأَلُ عن أَي شيءٍ يُمكنُ أَن يفيدنا في هذهِ القضيةِ.. هل أخبركِ أَنهُ يقابلُ أحدًا مشبوهًا؟ لهُ مشاريع معينة معهُ؟

-تقصدينَ أَنهُ كانَ واقعًا في بعض المتاعب؟ لا لم يحصل أَبدًا كما أَخبرتُكِ كانَ مثاليًا.. لم أَر منهُ إلا كلَ الخيرِ.. كنا ينوي أَن يتعرفَ على عائلتي قريبًا.

-حدثك عن عائلته؟

-نعم.. قالَ أَن لهُ أَخٌ تُوفيَ في طفولته، وأخ يعملُ بالخارج، لا يملكُ سوى أُم.. حتى أَنني لم أُقابلها يومًا.. التقيتُ فقط بِقريبةً لهُ.. امرأة بِالستينَ من عُمرِها تقريبًا.. لطيفة مُتدينة.

-أَينَ التقيتِها؟ ما اسمها؟

-مرةً واحدة.. في خضم توزيع بعض المُساعدات على العائلات المُعوزة قبلَ يوم عيدِ الأضحى بالسَنةِ الفَارطةَ.. قالَ أَنها ملاك خير.. لكنْ بدت غريبةٌ عَنهُ.. لا تشبههُ.. حتى لهجتها كانتْ تشبهُ لهجاتِ سُكانِ الجنوبِ وليسَ الساحلِ.. ولكنهُ قالَ أَنها بمثابةِ والدتهِ.

-ما اسمها؟

-صوفية، مثل المطربة صوفية صادق!.

***

«أَينَ هو؟»

كانتْ صوفية جالسةً على نفس الجانب من الكنبةِ في غرفةِ جلوسِها، كما تركها قبلَ أَسابيع، غيرَ أَنهَا هذهِ المرةَ كانتْ تحملُ عدة خياطة وقطعةَ قُماشٍ في يدها بينما رقدَ بجانبها قطها الرمادِي وهوَ يُخرخرُ. وقفَ الغزواني بمدخلِ الباب بعدَ أَن وجدهُ مفتوحًا وكأنها في انتظارهِ، راقبها وهيَ تسحبُ الإِبرةَ بخيطها، ثمَ تقطعُ نهايتهُ بأَسنانها الأَماميةِ.. رآها أَكثرَ هدوءًا مما يتذكرهُ، امرأةٌ جريئة كانت تغسلُ الملابسَ يومَ عرفةَ وهاهيَ الآن متورطةٌ في جرائمَ قتلٍ.

كانت شوق قد اتصلتْ بهِ عندَ مُغادرته لمكتب سالم وأَعلمتهُ بإمكانية تورطِ صوفية في الجرائم حسبَ ما استنتجتهُ من كَلام صاحبةِ صهيب، كما كانَ المقطعُ الصوتي المُدرَجُ فِي هاتفِ صهيب بصوتها، كَانَ قصيرًا لكنْ كافيًا ليتعرفَ عليهِ.. الآنَ ينوي أَن يعرف كيفَ التقتْ طرقهم جميعًا.. ثلاثتهم.. ضوء، صهيب، وهيَ.

مرَ على مقر التحقيقاتِ وأَخذَ معهُ الحارسَ الشاب.. لم يعلمهُ بوجهتهِ ولا غايتهِ.. تركهُ عَندَ البابِ ودخلَ.

-أَينَ صهيب؟ أَينَ ضوء؟

دستْ ما كانت تحملهُ في علبةِ الخياطةِ والتفتتْ إِليهِ مبتسمةً:

- لا أَظنُ أَنك في حاجةٍ إِلى فنجانِ قهوةٍ

بتوتر تقدمَ إِلى الأَمام حتى أَصبحَ بجانبها، جلس.. رمقتهُ بحنانٍ

-كانَ عادل يضعُ كلَ يوم كسرتي خبز قُبالةَ باب منزلي.. كلَ يومٍ.. عندما لم يفعل ذلكَ في أَحدِ الصباحَاتِ علمتُ أَن خطبًا حصلَ لهُ.

تابعتْ دونَ أَن تحولَ أَنظارها عن وجههِ

أَنتَ تُذكرني بهِ!.

شردَ ذهنهُ لتلك اللحظاتِ التي كانَ يسألُ فيها عادل عن الخبزِ الذي يحملهُ في خرقةٍ قماشية.

-كنتِ أَنتِ من دعمتِ ضوء منذُ خروجه من السجنِ؟ لماذا؟ كيفَ تورطتِ في الجرائم التي قامَ بها وصهيب؟ ثمَ والأَهمُ منْ ذلكً.. هل سلمتِ مُتعلقاتِ هلال لصهيب؟

-نعم.. لقد سلمتهُ كل شيء عندما قدمَ إِليَّ لأَول مرةً مع ضوء قبلَ سنتينِ تقريبًا.. ظلتْ جميعُ الأَوراقِ عندهُ حتى استلمتَ أَنتَ قضيةَ مقتلِ عادل.. أَعادَ ضوء كلَ شيء.. أَبقى عندهُ نسخةً فقط.. كانَ مُتيقنًا أَنكَ ستتواصلُ معي وقدْ فعلتَ.

-لمِ تساعدينهُ؟ لمَ كلُ هذَا؟

ترددتْ قبلَ أَن تقولَ:

وماذا يُمكنُ أَن أَفعل أكثر.. لأبني!.

***

فتح عكاشةَ عينيه لكن من الغريب أَنَ أَول شيء التقطه هو رائحة العفن والصديد، المكان كان شبه مظلم، ظلمة قاسية.. التفتَ على يمينهِ ويسارهِ، كان مقيدًا على كرسيٍ، كان منً الواضح أَنهُ في نفقٍ، تفحصَ المكانَ وهوَ يلهثُ.

انتبه أَنَ تنفسه بدا يضيق مع كل نفسٍ يأخذهُ.. حاول بكل قوته أَنْ يرفع نفسه عن الكرسي ويحرك ساقيه ولكنَ محاولاته باءت بالفشل، تفحصَ

الحبالَ التي تعيقُ حركتهُ: حبالٌ تربط حزامهُ بظهرِ الكرسي الحديدِي وأُخرى تقيدُ رجليهِ، بينما كانت ذراعاه تحيطانِ ظهرَ الكرسي من الَخلفِ.

صرخ.. عدةَ مراتٍ ولا مُجيبَ.. برزَ الظلُ فجأةً، سكت كمن توقف الهواء عن المرور بين رئتيهِ..

تفحص الظلُ المطرقةَ مرة أُخرى، كانت تُستعملُ لكسر عظام الثيرانِ، ثقيلة، قوية، كان يمكنها كسر عظم ركبة بشرية بضربة واحدةٍ كان هذا أكثر من كافٍ بالنسبة لهُ، ابتسمَ

كم نبدو يا عزيزي هزيلين.. تافهين ونحن في ظلام النفق كما في القبرِ!

دقَقَ عكاشة مذعورًا في وجهِ الشابِ.

وجه صهيب.. كان يبتسمُ مرةً أُخرى مُعلنا بداية التعذِيبِ!.

***

حدقت به بعد صمت ترجمته المفاجأة التي عقدتْ لسان الغزواني، نظرت إليهِ صوفيةَ وحكتْ كيفَ التقتْ بضوء صدفةً عندما كانت بالجنوب لزيارةِ مَقام مشهورٍ هناكَ، كيفَ تحادثَا لساعات وكأنَ الابتِعاد عنَ المنسيةً قد فكَ قيودَ الكلامِ بينهما، كيفَ أَحبتهُ وكيفَ كانَ مُترددًا.

حدثتهُ عَن الصيفِ الذي حملت فيهِ بعادل، كيفَ وافقَ ضوء على انجابها للطفلِ على أن لا يعلَمَ أَحدٌ بذلكَ، لا بحملها ولا بإنجابها، ادعت لعدةَ أَشهرٍ أَنها مريضة بالزهري قبلَ أَن تُغادرَ البلدةَ للتطبب وقبلَ أَن تشفى وتعاوِدَ تقديمَ خدماتها للزبائنِ.. بعدها بعدةِ أَسابيعِ عادَ ضوء من الجنوبِ حاملاً الرضيعَ اليتيمَ..

-ظللتُ طوالُ قسم كبيرٍ من حياتي أُنكرُ الأَمرَ، أَهربُ منهُ، أَواصلُ الغرق فيما أَفعله، وكلما عَثرتُ على قرصي الخبزُ أَتذكرُ أَنني أُمٌ.

لم يكنْ أَمامها غيرَ اقتفاءِ أَخبارِ صغيرها ورؤيتهِ ينمو لكنْ حتى هذا أُخذَ منها.

تنهدَ الغزواني وهوَ يمسحُ رأسهُ، ربما يتفهمُ سريةَ هذهِ الأَخبارِ نظرًا لهويةِ ومهنة صوفية لكنْ أَن يعيشَ عادل يتيمَ الأُم وعينهُ حية؟ هذا ثقيلٌ ومؤلمٌ.. كانَ مثاليًا بشقاوتهِ وأَحلامه لكنهُ طالما بدا لهُ مهمومًا، مبتلىً بنقصٍ ما.

خيمَ الصمتُ عليهما قبلَ أَن تتابعَ:

لكننِي عرفتْ.. في تلكَ الليلةِ المشئومة كان الوحيشي عندي في منزلي.

-ماذا؟ كانَ هُنا؟!

أَومأَتْ برأَسِها باكيةً:

-نعم.. ذلكَ المُجرم.. لم أَكن أَعرف وقتها يا أَحمد.. لكنهُ كانَ يحملُ قطعة ورقٍ.. شعر؟ نثر؟ لا أَعرف.

من دونِ أَن تستأذن نهضت واتجهتْ إلى غرفةِ نومها، تبعها الغزواني بنظراتهِ دونَ أَن يجدَ في نفسهِ القدرةَ على منعها.. رجعتْ بعدَ قليلٍ وهي تحتضنُ ورقة، جلست وناولتها للغزواني الذي تعرَّفَ عليها وعلىً الخطِ الرقيقِ باللونِ الأَسودِ، كانت جزءًا من مجموعةِ أَوراقٍ كانتْ مع عادل في تلكَ الليلةِ التي كان من المفروضِ أَن يسلمها بعدَ انتهاءِ المسرحية للممثل عبد القادر مقداد.. تأملَ الكلماتِ.. كانَ صديقهُ متأثرًا في ذلكَ الوقتِ بأُسلوبِ جبران خليل جبران في روايتهِ الأَرواحِ المُتكسرةِ.

-ذلكَ الوحش كانَ يقرأ ما فيها وهوَ يضحكُ.. وأَنا.. يا الله.. لو عاد بي الزَمنُ!.

فركت أَصابعها بقوةٍ وغضبٍ:

– عرفتُ بعدَ ذلكَ بأَيام عندما أَخبرني أَحدُ الزبائنِ من أَفراد الشُرطةِ الذِينَ عملوا في القضيةِ أَنَ الشرطَةَ وجدتْ بالقرب من جثةِ عادل قصاصاتَ شعرٍ ومسرحياتٍ كانَ يحملها قبلَ مقتله.. ابني.. أَنَا استقبلتُ قاتلَ ابني في ليلةِ مقتلهِ يا أَحمد!.. ما أَذنبتهُ طوالَ حياتي لا يُقاسُ بذرةِ ترابٍ بذنبي تلكَ الليلةِ!.

–أَعلمتِ ضوء؟

–نعم.. في السجن

ابتلعتْ لعابها وأضافتْ:

– قدمتُ خدماتي لبعَض حراسِ السجنِ لأتمكنَ من زيارته.. أَخبرتهُ وقدْ كانَ يعلمُ ببعضِ التفاصِيلِ التي أَخبرهُ إياهَا ياسين الغُزي قبلَ أَن يقتله.. أَمرني بكتمانِ الخبرِ إِلى أَن يخرجَ.. وقد فعلتُ.

تنفستْ بقوةٍ:

– لم أَشعر أَبدًا أَنهُ بالإمكانِ أَن يتغيرَ الشخصُ كما شعرتهُ في النهار الذي رأَيتُ فيهِ ضوء في السجن.. وكأَن قالبهُ قد تشققَ وكُسرَ ليظهرَ قالبًا مختلفًا أَكثرَ صلابةً وخشونةً.

–كنت تعلمينَ عندَ خروجهِ بل حتى قبلَ هذا أَنهُ مدفوعٌ برغبةِ الانتقام وأَنتِ قدْ واصلتِ مُساعدتهُ.. لماذا لم تعلمي الشرطة؟ لماذا تركتهِ يخرجَ لينتقمَ؟.

وضعت يدها في حضن قطها الذي بدأ وكأَنهُ يلتهمُ أَصابعها وابتسمت مُرددةً:

–الشرطة؟ هل هناك أَي جدوى من ذلكَ؟ على كل لم يكنْ ضوء يثقُ بهم أَلا تتذكرُ ما حصلَ لحمدي؟ هل وجدَ له أَثرٌ لليومِ؟

-تلك.. تلكَ كانتْ حقبةٌ مؤلمة يا صوفية، الآن هناك محاولاتُ لاسترجاعِ الثقةِ.. أَلَم تقولي أَن عم ضوء كانَ يَتوقعُ حضوري.. لماذا لم يترك الأَمرَ لي؟.

انفجرت في وجههِ، توقفَ القطُ عن العبثِ:

- العتابُ الآنَ لا يُرجعُ ما حصلَ.. ماتَ ابنُنا!.

توقفت تمسحُ دموعها:

- ماتَ ابني الذي لم أُهنأ منه بكلمة (أُمي× تخرجُ من بينِ شفتيهِ.

-القتلُ لن يعيدهُ أَيضًا.

-كانا يملكانِ خططهما الخاصة، لم يشاركاني إياها إن كنتَ تصدقُ أَو لا تُصدقُ.. ولكنني علمتُ أَنهما لن يظلا يبكيانِ الأَطلالَ مثلي حتى ينتهي كل شيءٍ.. البعضُ كانوا آباءً لكن بعضهم كان أَكثرَ من ذلكَ.

-مع من سينتهي كل شيء؟ من هوَ الشريكُ الرابعُ في جريمتي قتلِ هلال وعادل؟.

-حتى وإن علمت الآن.. فقدْ فاتَ الأَوانُ.

-أُتركي لِي تحديدَ الأَمرِ.. من هوَ؟ وأَينَ هما؟ لا تكذبِي.

دفنت رأسها بين راحتيها المُرتعشتين:

- لا أَنوي الكذبَ.. لا أَعرفُ مكانَ ضوء.. لكن صهيب كانَ هنا صباحًا.. سلمتهُ بعَضَ الأَطعمةِ المعلبةَ قالَ أَنهُ سيظلُ مختبئًا في المنجم القديمِ حتى يعثرَ على طريقةِ تهربهُ لليبيا، لكن لن يتمَ الأمرُ إلا بعدَ التخلصِ من..

-مَن هو؟

أَلجمتْ نفسها عن الكلامِ، توقفَ نشيجُها، في هذهِ الأَثناءِ رنَ هاتفهُ، كانتْ شوق المُتصلة

«لقدْ اختفى صادق عكاشة، لم يصل إلى منزلهِ بالعاصمة، لقدْ عثرَ على سيارتهِ مفتوحةً بجانبِ أَحدِ الطرقاتِ.. هنا.. بالمَنسيةِ».

أَقفَل الخط.. للحظات ظلَ يفكرُ قبلَ أَن يقولَ

-سأَتركُ هذا الشرطي على بابكِ.. ستذهبينَ معهُ إلى مركزِ الشرطةِ، ستظلينَ موقوفةً في زنزانةِ غرفةِ التحقيقِ.. لا تتحدثي معَ أَحدٍ.. سأُوصي الشرطي بالتعليماتِ.

ندهت عليهِ قبلَ أَن يختفِي وراءَ البابِ بعيونٍ تفيضانِ بالدُموعِ

- انتبه لنفسكَ!.

***

بدون أَي تردد أَحدث قطعًا آخرَ في صدرِ عكاشةَ.

تلت لحظة السكونِ القصيرةِ صرخة أُخرى سُمعَ صداها في كلِ أَرجاءِ المينة القديمة، صرخة أَشبه بصرخة احتضار، تكونت بركة صغيرة تحت الذراعين الداميتين المقيدتين وراء الكرسي، واصلَ صهيب لهاثهُ وهو يرفعُ سروالهُ لخصرهِ، توجهَ للطاولةِ.. أَشعلَ سيجارةً وهو يوجهُ نيرانَ نظراتهِ لعكاشة المُقيد، بنطالهُ الأَسود تبقعَ ببقع الطين والدمِ وقميصهِ ممزقٌ بالكامل من الرقبة لآخر زرٍ.

ساعتينِ من التعذيب والاستجوابِ ولم يتكلم إلا صراخًا وشتائمَ ضدهُ.

السيجارة لم تخفف من قلقهُ المُتزايدُ الذي ترجمتهُ ضرباتهُ القاسية التي تركها على وجهِ المصاب الذي لا يبدو أَنهُ قد تجاوزَ عتبةَ الستيناتِ من عمرهِ، يجبُ أَن يخرجَ من إغماءته ليواصلَ استجوابهُ في هذا الوقتِ الذي قاربَ أَذانَ العشاءِ، في وقتٍ لازال الهدوء يخيم على المينة القديمة.

تأَمل سير الدماءِ، ثم سكبَ دلو الماء على وجهه ليشهقَ الأخير فزعًا، وجهٌ متورمٌ ودماءُ جديدة وأخرى جافة على فمهِ سعل بقوة باذلًا جهدًا ليتنفس بدون أَلم

-لنكمل.

خلت الغرفة من أَي صوت قريب ما عدا صوت أَنفاسه اللاهثة وقطرات الدم التي تضرب سطح الأَرضِ بانتظامٍ منبعثةً من ذراع يغطيها الدم.. بل ذراعانِ مقيدتانِ بكرسي خشبي.. واسعَ متين ككراسي الإعدام جف الدم على أَصابع يديهِ منزوعة الأَظافرِ.. صوتُ القطراتِ لم يكن كافيًا ليبردَ نارَ صهيب.

***

لم يبدُ أَنَ صهيب كانَ مستعدًا لتركِ المكانِ الآن، جمعَ أَدواتهُ، حقنهُ وسكاكينهُ ومطرقتهُ دونِ أَن يحزمها تمامًا في حقيبةِ ظهرهِ، ثمَ وقفَ أَمام ضوء وكأَنهُ يعتَرضُ طريقهُ، تجادلَا

-ماذا تنتظرُ؟ اذهب.. لقدْ سبقَ وأَن برمجتَ خطةَ هروبكَ.. فماذا تنتظر بعدَ أَن نلتَ مُبتغاكَ؟

منذُ ربع ساعةِ أَطلَ ضوء وهوَ يحملُ بعضَ الزادِ، كانَ يرتدي قبعتهُ وقميصًا بنيًا، ظنَ أَن شريكهُ قدْ تخلصَ من الجثةِ تمامًا وسوفَ يجدُ المخبأ فارغًا بعدَ أَن يكون الشابُ قدْ توجهَ إِلى الطريقِ الذي ستصلُ بهِ للحدودِ الليبيةِ.

خرجَ ضوء من السجنِ مريضًا.. بدأَ اليأسُ يستبد به والوقت يركضُ بهِ ركضا نحوَ حتفهِ، إِنهُ ليس في صالحه حتى اكتشفَ صهيب.. حتى وجد شابًا

أَكثر بُؤسا منه، شابٌ مُفعمٌ برغبةِ الانتقام.. هنا قام باستغلالهِ في انتقامهِ، على الأَقل هذا ما فكرَ بهِ في البدايةِ قبلَ أَن يصَطدمَ بدرجةِ جنونِ الشابِ.

الذي كان مُجرد طفلٍ صغيرٍ عندما ماتَ أَخاهُ.

تتالت الفجائع.. بعد وفاةِ هلال خسر والدهُ الكثيرَ، كانت دراسةُ ابنهِ قد امتصتْ كل القليلِ الذي امتلكهُ، حتى المنزل كان مَرهونا للبنك، لم يبقَ لعائلتهِ غيرَ بيعه وبيع الأَرض.. هوَ ظلَ عند ابنة خالة أُمهِ بفرنسا بينما نَزحت عائلتهُ المكسورة للساحل.

لا يزالُ يتذكرُ تجمُّعَ سكانِ حيهِ حولَ شجرة الزيتونِ.. حيث شنقَ والدهُ نفسهُ على أَحدِ أَغصانها الثقيلةَ.. يتذكرُ يدَ والدتهِ المُرتعشةِ التي جذبتهُ رغم هولِ المُصيبةِ للخلفِ، ظن كذلكَ غيرَ أَنها كانت تتكئ عليهِ بعدَ أَن شعرتْ بخدرٍ بركبتيها.. على صراخِ أُختهِ والنسوةِ فزعَ إليهم عددُ كبيرٌ من المارينَ..

جالَ صهيب ببصرهِ للملقى بكرسيهِ على الأَرضِ

-الحدودَ عاودتْ الإغلاقَ-

أَمعن نظراته في وجه المسنِ الذي يولي وجهه لجانب آخر:

- وجودَكَ في المظيلةِ خطرٌ على كلينا..

تقدمَ صهيب وطعن القتيلَ مرةً أُخرى:

- أُتركهُ يلفظ أَنفاسهُ بهدوءٍ!

طلب ضوء في سخريةٍ.

جلسَ وهو يتتبعُ صرارًا أَسود خرجَ من أَحدِ شقوقِ النفقِ المدعوم بأَعمدةٍ خشبيةٍ.. يذكرُ ضوء الحشراتِ التي كانتْ تحومُ فوقَ جثةِ ابنهِ، يذكرُ صراخَ سالمِ القادمِ جريًا، يعتقدُ الآن أَن يدَ الطفلِ اللاهثِ كانت مصابة بجرحٍ.. لم

ينتبه في ذلكَ الصباحِ للأمر فقط كانت يستمع بغرابة وغير تصديق لكلماته

-عا.. وجدنا.. وجدنا عادل.. بالقربِ من المينة القديمة.. إِنهُ.. إِنهُ ميت!.

تنهدَ ضوء بينمَا جرجر الصرارُ الليلي قائمتيه، وهوَ يُحدقُ بعينيهِ الواسعتين، مُتجاهلًا وجودَ الشخصين الواقفين أَو أَنهُ فقطْ لم ينتبه لهما، بينما اقتفى أَثَرَ الدماءِ على الأَرضِ وصولًا لجسمِ عُكَاشةَ.

***

١٩٨٨

قبضَ على رقبتها، ندت عنها صرخةٌ صامتةٌ عاجزةٌ، وهيَ تراقبُ تعابيرَ وجههِ المُرعبةِ.

أَخذها الذهولُ مع كلِ ثانيةٍ، بقيَ فمها مفتوحًا بشفتينِ بحمرةِ الدمِ، دمعت عيناها مع كلِ ضغطة منَ أَصابع ضوء، تمسكت بذراعهِ تدفعُها عنَ رقبتها لكنها فشلت في كلِ مرةٍ أَمامَ فارقَ القوةِ والطولِ.

-لم كذبتِ عليَ؟ لم؟ لم قلتِ أَنهم ١١ ساعةٍ فضية؟ هل قصدتِ خداعي؟ تراشقت بعضُ قطراتِ لعابهِ من فمهِ على وجهها.

-أَرجوك انتظر!.

راحت سهام تتوسلُ إِليهِ، تزايدت دقاتُ الرعب في قلبها بينما كانتْ تفكرُ بطريقة تخلصُ يديهِ من رقبتها، لم تكن تتوقعُ أَنهُ سيكشفُ كذبتها، كما لم تعرف كيفَ حصلَ هذا.

كانَ قدْ طلبها صبيحةَ هذا اليوم من هاتفِ صاحبِ متجرِ الموادِ الغذائيةِ، طلبَ لقاءها بالجدار الخلفِي من الفَندقِ بالقربِ من موقف السياراتِ عندَ الثالثةِ، قالَ أَنه يملكُ معلوماتٍ مهمة كما وعدها بأَن يكونَ آخر لقاءٍ بينهما.

هيَ بدورها كانتْ تتجنبُ لقاءهُ، خاصةً أَن ياسين الغزي حذرها منْ ذلكَ، وقد كانَ تحذيرهُ في محله، زاد الضغطُ على رقبتها

-سأُخبركَ.. اتركنِي!.

أَطلقها.. ترنحتْ، سعلتْ.. أَخذت نفسًا طويلًا وهيَ تستندُ على الجدار لتمنع نفسها من الوقوع، وقد شعرتْ بمفاصلها ترتعدُ، حدقتْ حولهُا.. كانَ يقفُ مُتأهبًا، لم يكنْ هناَك منفذًا للهربِ ولا جدوى من الصراخِ.

دارت حول نفسها دورةً كاملة وهي تفكرُ بما ستقوله

- ارتاحِي.. أَتحتاجينَ إِلى وقتٍ إِضافي؟

لانت أَساريرهُ قليلًا، بدا ضوء الصياد الذِي طالما عرفتهُ.

-تكلمِي

عادت جديتهُ وإِصرارهُ بسرعةٍ وكأنهُ ندمَ على لينه المُفاجئ، ضاق بؤبؤا عينيه واسودَ لونهما مرةً أُخرى، رفعت يدها نحوهُ بعدَ أَن شعرت أَن سيهجمُ عليها مرةً أُخرى:

-سأَتكلم سأَتكلم!.

ابتلعت لعابها وأَكملتْ:

- إِنهُ ليسَ خطئي يا ضوء.. أَنتَ تعرفُ مبلغَ حاجتِي للعملِ خاصةً مع مرضِ أَبي.

تساقطت دموعها على خديها المحمرينِ:

- لا أَستطيعُ خسارةَ عملي، أَنتَ تفهمنِي أَليسَ كذلكَ؟ هذا العملُ كلَ ما أَملكُ، أَنا..

خطا ضوء خطوةً للأَمامِ وهوَ يلكمُ الجدارَ:

- مالي ومال عملك؟ أَتكَلمُ عن سببِ كذبك عليَ.. إِنهم ١١ عشرة ساعةٍ ذهبية وواحدة فضية.

التفتتْ سوسو للجانبينِ لعلها تلمحُ أَحدًا ما:

- على رسلكَ، سأَصلُ للسببِ

تنهدتْ واقتربتْ منهُ:

- هل تظنُ أَن مُساعدتي لكَ كانتْ دونِ مخاطر؟ هل تظنُ هذه المعلومة وصلت إِليكَ بالتحليق منَ يدي ليديكَ؟ لَقد سرقتُها من شفاه أَحدٍ كبارِ الموظفينَ.. أَوتعلم؟ لقَدْ كشفنِي.. كشفَ أَنني أَجرهُ بالكلامِ لأَتعرفَ على أَسماءِ حاملي الساعاتِ.

اقتربتْ منهُ أَكثر متصنعةً القوةَ:

- وكادَ يطردُني.. بل لقدْ هددني بابلاغ الشرطةِ وتلفيق تهمةٍ لي، لكنْ أَتعلم أَنا كنتُ أَذكَى منهُ، لقدْ لمحتُ ملامحَ الخوفِ وليسَ الغضبِ في وجههِ، كانَ حريصًا على معرفةِ سببِ حاجتِي لمعرفة قائمةِ حاملي الساعاتِ عن الإبلاغ عني.. طبعًا لم أَفهم سببَ هذا الحرص على المعرفةِ.. لكنني فكرت.. نعم فكَرت.. إِن لم يكنْ يخشى شيئًا لما كانَ بذلكَ الخوفِ؟.

-ماذا تقصدينَ؟

بدا مُهتمًا.

-أَقصدُ أَنني شعرتُ بأَنَ هناك خطبًا ما، في طريقةِ سؤالهِ، حتى تذكرتُ أَينَ رَأَيتُ تلكَ الساعة المشؤومة، لحظتها تذكرتُ.. كانتْ ساعتهُ هو.. نعم كانَ الوحيد الذي أُهديَ في تلكَ الليلة ساعة فضية.

ظلَ يرمقها قبلَ أَن يطلبَ التوضيحَ:

- مَن كان؟

-المسؤولُ عن تجهيزات الحفلاتِ والأمسيات في الفندقِ، أَتعرفُ اسمهُ؟ أَنتَ تعرفهُ بالتأكيد.

أَومأت برأسها تشجعهُ.

-ياسين الغزي؟

-نعم نعم، هو نفسهُ من قتل ابنكَ وأسقطَ الساعةَ هُناكَ.

-وقدْ أَخبرتهُ كلَ شيء عن الساعةِ وعنكَ وعن حنقكَ وسعيكَ للانتقام، كنتُ أَخافهُ كما أَخافكَ الآن.. وهوَ من أَجبرنِي على إِخباركَ أَن كلَ الساعاتِ كانت فضية اللونِ.

-أَنتِ تكذبينَ، إنهُ أَضعفُ وأَجبنُ من قتلِ دجاجةٍ.. لا.. لا يمكن.

-»أنتَ شخصٌ طيب بحق، لقدْ أَخبرني بتفاصيلِ القتلِ بنفسهِ.. أَلم يكنْ ابنكَ يرتدِي معطفًا خفيفًا بقلنسوةٍ؟ أَلَم تعثَر الشرطةَ على أَوراقهِ المُبعثرةِ في مكانِ القتلِ؟.

لمحت في نظراتهِ وقعَ كلامها عليهِ، بدا مذهولًا، مُغيبًا، لو صدقها ولم يشك في كذبها فربما يتركها اليومَ بلا رجعةٍ، ستهربُ من البلدةِ ولن تعودَ إِليها أَبدًا

-أَلم يُطعن من الخلفِ؟

جثمَ على ركبتيهِ أَمامها هو يضعُ يدهُ على فمهِ، شعرَ أَنهُ سيتقيأ في هذهِ اللحظةِ، كما شعرَ بالبردِ يجتاحُ مفاصلهُ

-اصمتِي.

كما توقعتْ لقدْ صدقها:

- كيفَ سأَعرفُ هذا إِن لم يكنْ هو من أَخبرنِي بكلِ هذهِ التفاصيل؟ اعترفَ لي بنفسهِ.. أَعرفَ بكلِ ما حصلَ.

-لماذا لماذا؟ لماذا يقتلُ طفلًا بريئًا؟ ابنِي كانَ مُجردُ حالمٍ صغيرٍ بمستقبلٍ أَفضل؟!

اكتفتْ بهز كتفيها

-لستُ متأكدة.. لكنْ قتلَ بسببِ شيءٍ مُتعلق بأَبحاث ما، أَقصد أَنا لا أَعرف تحديدًا.. لقد رأى عادل شيئًا كانَ من المفروَضِ أَن لا يراهُ.

-وأَنتِ كنتِ ستخفينَ عني كلَ شيء.

اعتراها الغضبُ واستولى عليها

-هل يجدرُ بي أَن أَشعرَ بالذنب؟ كنتُ مُهددة.. الآن عرفتَ كلَ شيء.. سأَذهب ولن نتقابلَ مرةً أُخرى أَبدًا

خطت خطوةً مُترددةٍ للوراءِ واستدارتْ ببطء متأَهبةً للذهابِ.

طفحَ الكيلُ معهُ، استقامَ بينما راحت تنظرُ إليهِ بعيونٍ مذعورةٍ منَ الخلفِ

-أَينَ تظنينَ نفسكِ ذاهبة.. مهمتكِ لم تنته بعدُ!.

استدارتْ نحوهُ، حدقتْ بهِ بنظرةٍ يائسةٍ وهيَ تواجهُ عينيهُ باعتراض، عيناهُ التي استعادتْ كلَ الحنقِ والسوادِ الذي أَحاطَ بقلبهِ.. وهاهيَ بينَ قبضتهِ مرةً أُخرى.

***

«ثمة موتٍ يدركك وأَنتَ حَيٌ»

ثرثرة فوق النيلِ،

نجيب محفوظ.

استلَ الغزواني مسدسهُ من حافظة الحزام، وأَحكمَ إمساكَ مقبضهِ أَمامهُ بيديهِ، بينما ثبتَ الَهاتفَ بين كتفهِ ورقبتهِ.. سمَعَ صوت عاملةِ الهاتفِ «الرقمُ المطلوب غير..»

أَغلقَ الهاتفَ ودسهُ بجيبه وهوَ يشتمُ بصوتٍ خفيضٍ شبكةَ الاتصالاتِ، كانَ عليهِ أَن يعلم أَنه لا أَسوأ من هاتفٍ سيء إِلاّ شبكة خطوط هاتفيةٍ مفقودة في منطقة مرتفعةٍ مثلَ هذهِ.

انعطفَ يسارًا باتجاهِ المنجم، بدا المكانُ معتماً وموحشًا، تناثرتْ حولهُ قطعُ حديديةٌ بأَحجامٍ مختلفةٍ وكثبانٌ من الرمالِ، حدقَ بالمكانِ في اضطرابٍ وقلقٍ.

أَلقَى نظرة سريعة مُتخطيًا الجانبَ الأيسر، وتابعَ تقدمهُ الحذر بالجانب الثاني، عندما قاربَ الوصول للمدخلِ سمعَ صوتًا.. ازداد نبضهُ، ثبتَ مُسدسهُ دون أَن يُشيح بنظرهِ عما يُمكنُ أَن يظهرَ أَمامهُ.

تقدمَ قليلًا قبلَ أَن يتوقفَ فجأَةً.. كانَ هذا نفسُ المكانِ الذي أُصيبَ فيهِ نصر الدين بمهمتهِ، قبلَ أَن يرقدَ في المُستشفى، ليسَ ببعيدٍ عن صخرةِ التائبِ.

تمعنَ في المكانِ مجيلًا ببصرهِ، وقد نزلتْ من جبينه قطراتُ العرق.. رُبما يكونُ فخًا.. كانَ هذا أَكثرُ ما يخشاهُ.. أَينَ يمكنُ أَن يكونَ صهيب قدْ غرسَ

مُتفجراتهِ؟ ماهوَ المكانُ المُناسبُ؟ إن كانَ في مكانهِ كانَ قدْ نصبَ فخهُ بعيدًا عن مدخلِ المنجم ولكنْ ليسَ ببعيد عن مكانِ مراقبته.

راودهُ شعورٌ غريبٌ بأنهُ في المكانِ الصحيحِ، بالتأكيد أنَ صهيبَ قدْ علمَ أَو خمنَ أنَ الشرطةَ تلاحقهُ وبالتأكيدِ ستتوصلُ بطريقةٍ أَو بأُخرى إلى مَكانهِ هذا إن لم يفرّ بعدُ.

تعلقتْ عيناهُ على حزمة من النباتات الشوكيةِ، كانتْ أَمامهُ مُباشرةً كانَ لونُ التُراب حولها مختلفًا، أَقلَ جفافًا وأًغمقَ كأَنهُ ناتجٌ عن حرثٍ أَو حفر.. سبقَ لعينيهِ أَن اعتادت على تفاصيلِ المكانِ منذ زيارته الأَخيرة.. لا يذكرُ أَنهُ شاهدَ أَيةَ نباتاتٍ هنا.. فإما أَنها نبتتْ فجأةَ خلالَ عدةِ أَيامٍ، وإما أنها غرستْ هناكَ لغرضٍ ما.. مثل إخفاءِ قنبلة.

تراجعَ للوراءِ عدة أَمتار.. انحنى والتقطَ قطعَ حجارةٍ وسدد الأُولى بالقربِ من النباتاتِ.. ثم الثانيةِ والثالثةَ حتى سمع ذلكَ الصوتِ المألوفِ.

اضطربت أَنفاسهُ أَكثر وهو يقوم بحساباته بينما كان يرمي بنفسه بالاتجاه المُعاكسِ.

***

قطعتْ شوق المسافةَ الفاصلةَ بينَ مدخلِ مركزِ الشرطةِ بالمظيلة وسيارات فريق المُداهمةِ المُتوقفة، غيرَ بعيد عنها بخطواتٍ سريعةٍ وواسعة.. كانتَ قدْ تركتْ رئيسَ المركزِ وهوَ يُجري الاتصالاتَ بمن يهمهم الأَمرُ بعدَ أَن تم التأكيدُ على اختفاءِ صادق عكاشةَ وافتراضية اختطافه وقتله.

نظرت للساعةِ وأَخذت تُراجعُ في ذهنها آخر المعطياتِ المُتوفرة، فقدَ الاتصال بالغزوانيِ منذ ساعةٍ تقريبًا، الاتجاه الذي سلكهُ غير معروف لكنها

في المقابل تعلمُ أَنه توجه للمينة القديمةِ، بالنسبة للمجرم بل المجرمين أَحدهما خطيرٌ جدًا ومن المتوقع أَنهُ يمتَلكُ سلاحًا وهو يعرف مداخل ومخارج المنطقة جيدًا، التفتتْ إِلى (مبارك)، قائدِ فريقِ المُداهمةِ المُتكونِ من ستة أَفرادٍ

-هل أَنتم جاهزونَ؟

اكتفى مُبارك بإيماءةٍ خاطفة برأْسه .. كانَ ضابطًا في الأَربعيناتِ من عمرهِ، ذا جسم ضخم وقوي، كانَ قائدَ الفريقِ المُتوفرِ للمداهمةِ، كانَ المُتوفرَ حاليًا والأَكثرَ جاهزيةً كما كانَ من أَهلِ المنسيةِ وصلَ مع فريقهِ من المظيلةِ قبلَ نصفِ ساعةٍ بأَمرٍ من الطرابلسي.

استقلتْ كرسيًا بجانبِ السائقِ، كانت السيارة الخاصة تعودُ لفريق المُداهمة، حديثة.. مناسبة لتضاريسِ المنطقةِ الجبليةِ الوعرة.

نظرتْ للأَمام، وهيَ تعيدُ تفقدَ هاتفِ الغزواني الذي ظلَ مُغلقًا.. زفرتْ في ضيق وهيَ تُتابعُ الطريق التي بدت بلا نهاية لهَا.. إِذن تعرَّفَ صهيب على حسام الجريدي في حانة بالساحلِ، تقربَ منهُ، سردَ عليهِ رواية وهوية مُزيفة في الوقتِ الذِي وجدهُ مُناسبًا وبعزلةٍ عن الناسِ سكبَ عليهِ البنزينَ وحرقهُ في بلدته المنسيةِ، رغمَ ذلكَ لم تنطفئ نارهُ.

تحولَ بهِ للمستشفَى ومنها إِلى مركز رعاية، حيث انتدبَ للعملِ كممرض بديلٍ، حيث اكتسبَ قدرة على تغيير التحاليل ومُراقبته وإِصابته بفقدانِ الذاكرةِ التدريجي مستغلًا معرفتهُ بالسموم العصبيةِ، أَصابهُ بما يُشبهُ الشللِ. بهذه الطريقة تحفظَ على قاتل أَخيهِ هلال تحتَ اسم ضوء الصغير وبإِعانَة منهُ، واضعًا إِياهُ تحت عينيهِ ورعايتهِ الفائقة.

كانَ هذا ملخص ما حكتهُ صوفية لشوق في محبسِها

«كيف حدث هذا؟ كيف يتم احتجاز شخص تحت اسم شخص آخر وتخديره طوال سنتينِ دون أَن ينتبه أَحد من الإِطَّار الطبي أَن حالةَ الَّمريضِ مُفتعلة؟»

كانَ منَ الصعبِ الإِجابةُ على أَسئلتها أَمامَ صدمةِ الإِطارِ الطبي الذي تولى حالةَ حسام الجَريديَ.

لذلكَ لم تكن متأكدةً إن كانَ عكاشةَ قد قُتلَ أَم هوَ فقط لا يزالُ يحتفظُ بأَنفاسهِ.. فليسَ من عادةِ المرضِ أَن يتركَ ضحيتهُ تموتُ بسهولةٍ.. لكنْ في نفسِ الوقتِ وأَمام تضييقِ الخنَاقِ حولهُ رُبما خططَ لتسريعِ الأَمرِ قبل أَن يختفي تمامًا.

فجأة رفعَ الجميعُ أَنظارهم باتجاهِ الشرقِ، حيثُ صدرَ انفجارٌ.. بالمينة القديمةِ.. بشرقها تحديدًا.. وقدْ بدأَتْ غابة من الغبار تحيطُ بالمكانِ.

عرفت شوق الآن إِلى أَينَ تتوجهُ تحديدًا، لكنها أملتْ فقط أَنها لم تتأَخر.

***

أَطلق الغزواني صيحة فزعٍ مكتومةٍ، سقطتْ كتل الحجارة في المكان الذي كان واقفا فوقهُ.. ارتدت الأَرضُ ومادت من تحتهِ.

أَلقى الانفجار به لعدة أَمتار قبل أَن يسقطَ.. كان بالكاد يَستطيع حمل رأْسهِ على الاستقامة.. الصداع رهيبٌ، خدر في أَطرافه.. اختنقت أَنفاسهُ، امتلأَ صدرهُ بالغبار وحبيبات التراب الجاف.. سعلَ وهوَ يتلمسُ الأَرضَ باحثًا عن مُسدسهِ بين الركام كالأَعمى.. لابدَ أَن يكون صهيب قريبًا الآنَ.

باءت مُحاولاتهُ بالفشلِ، فلا يقبض سوى على الحصى.. فتحُ عَينيهِ كَانَ كمحاولةِ فتحِ صدرهِ أَمامَ اللهبِ.. شعرَ بسائلٍ ساخنٍ على رأْسهِ بدأَ يغطي

عينهُ اليسرى، لا يمُكنُ أَن يكونَ العرقُ قد فاضَ بهذهِ الكثافةِ أَو السخونةِ، إنهُ جرحٌ.. استقامَ قليلًا وَلمس موضع الجرح بجبهتهِ، دماءٌ حارةٌ.. لا يزال ينزف بغزارة لكن ما أثار روعَهُ حقًا هو أنه استطاع تلمس قطعة جلدٍ لازالت مُثبتتة بجبهته.

أَصغى.. أَيقنَ أَنها خطواتٌ، إنهُ في موضعِ الخاسرِ دونِ مُسدسهِ.. شتم لماذا يفقدهُ دائمًا في أَوقاتِ غيرُ مُناسبةٍ؟ أَجرَى حسَاباتهُ مرةً أُخرى على الأَغلبِ أَن فريقَ المُداهمةِ قريبٌ ولن يكونَ التوصلُ إلى مكانهِ بشيءٍ صعبٍ بعدَ هذَا الانفجارِ، تأَوهَ مرةً أُخرى قبلَ أَن يبتلعَ لعابهُ على صوتِ صهيب.

-لقدْ فقدتَ مُسدسك

قالها صهيب ببرودٍ رغمَ الكلماتِ اللاهثةِ التي خرجتْ منْ شفتيهِ.

فتحَ المُحققُ عينيهِ مصدومًا، هزَ رأْسهُ وكأنهُ يطردُ تلكَ الكلماتِ التي سمعها وبما بقيَ من قوتهِ، جرَ نفسهِ وراءَ صخرةِ التائبِ.. إنهُ غيرُ مُسلحٍ وعلى مرمى مُباشرٍ وسهلٍ من رصاصاتِ مُسدسهِ الذي استولى عليهِ صهيب.

***

قفز الغزواني مختبئًا وراء الصخرة مُتجنبًا الرصاصةَ التي استقرتْ بالأعلى مُطلقة غبارًا ودويًا مكتومًا، تنفسَ بقوةٍ.. ينوي صهيب أن يقتله، كان هذا واضحًا.. كان بمقدوره أن لا يتحرك من مكانه إيمانًا بهذا، لكن لا مفر من أَن لا يُخاطر بروحهِ وإلا أَنْ يكُونَ مُجرد رجل بثقبٍ في الرأَسِ لو عاكسه إيمانهُ.

شعر بالعرق يَفيضُ من تحت قميصه لهذه الفكرةِ، كان صهيبْ سريعًا ودقيقًا وكأنهُ خبرَ إطلاقَ النارِ طوالَ حياتهِ، لم يرمش وهوَ يطلقُ ما في مُسدسهِ، أَغمض الغزوانِي عينيه، ودعا أَن لا يموت في هذا المكانِ، فتحهما،

كان من المستحيل على صهيب أَن يُطلق النار عليه من مكانهِ غيرَ المكشوفِ.

كانتْ فرصتهُ.. تحركَ.. على عكسِ اتجاهِ صوتِ المُمرضِ رغمَ الرضوضِ التي أَصابت جسمهُ، وقبلَ أَنْ يكملَ دورتهُ لعلهُ يتمكنُ منَ القبضِ عليهِ من الخلفِ مطلقًا كلَ قوتهِ الباقيةِ، برزَ أَمامهُ ضوء وهوَ يحملُ قَضيبًا حَديديًا.

–ماذا تفعلُ هنا؟.

***

تجمَّدَ لاهثًا بينما استدارَ صهيب على صوتِ ضوء، شعرَ الغَزواني وكأَنه طفلٌ وقدْ تلبسَ بجريمةِ التسللِ منَ المنزلِ ليلًا، بنظراتٍ مُتحجرة تَطلُ من خلفِ وجهٍ متجهم تابعَ ضوء عَتابهُ دونَ أَن يتركَ من يدهِ القضيبَ.

نظرَ الغزواني للأَمامِ وقدْ تجاوزَ مدخلَ النفقِ للداخلِ بعدةِ أَمتارٍ.. بينما كانَ ضوء وراءهُ حاملًا القضيبَ الحديدي وصهيب يغمغمُ

–ماذا تريدُ، أَن تتكلمَ معهُ؟ لما لا نقتلهُ الآن؟

–اصمت الآن!

نهرهُ ضوء وتابع:

– لا حركةً مفاجئة يا أَحمد.

تقدمَ الغزواني رافعًا يديهِ، كانَ يُفكرُ كيفَ يُمكنُ أَن يتخلصَ من هذه الورطةِ.. برزَ نورٌ بالداخلِ قادمًا من فانوسي إِضاءةٍ، لمحَ طاولةً صغيرةً وكرسي وكومة أَنابيب حديديةٍ وحقيبة ظهرٍ.. كَانتْ مساحةٍ شبهَ فارغة.. يتوسطها جسمُ عكاشَةَ.

كان فكاه متباعدين وكأَنهُ ماتَ وهوَ يصرخُ، وقد تدلَى زبد أَبيضِ جافٌ من جانب شفتهِ، تَحركَ فجأةً.. سعلَ.. كانَ لا يزالُ يقبضُ على روحهِ إِذن..

فكرَ الغزواني أَنَهُ على الأَقلِ وصلَ قبلَ أَن يُقتلَ.. لكنْ لا يبدو الآنَ أَنهما سيخرجانِ أَحياءً من نفقِ المَنجمِ.

كانَ يُهمهمُ ببعضِ الأَصواتِ بعينينِ متورمتينِ مكسوتينِ بالدمِ، بالتأكيدِ يستنجدُ بهِ.. فيداهُ كَانتا مربوطتينِ للخلفِ وقد كسرَ جزء من ظهرِ الكرسيِ الذي كانَ يجلس عليهِ.

-أَنزل ذراعيكَ واجلس

جلسَ الغزواني مع أَمرِ ضوء بينما ظلَ صهيب يهزُ رأَسهُ مُتشككًا دونَ أَن يخفض مسدسهُ.. كانَ رفضهُ لما يَجري واضحًا، حاولَ تفادي نظراتَ ضوء الذي لم يخفِ تحذيرهُ لهُ، اتسعتْ عيناهُ في دهشةٍ قبلَ أَن تتحولا إِلى الغضبِ:

- ماهو الأَمرُ المهمُ الآن يا عم ضوء؟ دعنَا نقتلهُ فحسب.

-سنتكلمُ قليلًا

أَجابهُ المُسنُ.

لم يتعرف عليه.. كان عليه أَنْ يتذكر تلك العينين التي كانت تشع كما نجوم الصحراء، الآنَ هو لا يرى فيهما غيرَ الشر والغضب، تفرس في وجهه الذي تحيط به التجاعيد لعله يتذكرُ بهما كم كان طيبًا عزيز النفس كريمًا

- ماذا حصل لك يا عم ضو؟

ابتسمَ الغزواني مُوجهًا حديثهُ لهُ:

- مدةٌ طويلة لتُخطط للأَمرِ يا عم ضوء.. أَرى أَن قدمكَ بخير.

قرفصَ المُسنُ، نزعَ قبعتهُ ووثبتَ بطنها على ركبتهِ، رفعَ عينيهِ إِليهِ.. عيونٌ بدتْ صفراءَ جافة كرملِ المنسيةِ

-كانَ عندي وقتٌ طويلٌ بالسجن، لم أَكن في حاجةٍ لشحذِ عزيمتِي، كنتُ فقط بحاجةٍ لأَبقى حيًا.

عرفهُ وهوَ على أَبوابِ الكهولةِ.. الآنَ بعد مرور جيلٍ كامل لازالَ يَراهُ بسحنته الصفراء وكأنهُ تجرعَ رمل البلدةِ وأمراضها، يتحزمُ بحزام غليظ من جلد الماعز الجبلي فوق موضع السرة بالضبطِ، جالتْ نظراتهُ بالمكانِ، استوعبهم رغم ضيقهِ

-كانوا يتقابلون هنا، أَربعتهم، الوحيشي، الجريدي ياسين، وعكاشة.. هذا المكان مليء بالكراهية، بالشر.

-لا أَظنُ أَن أَفعالكُما قدْ محتْ ظلمتهُ.. هل كانَ عليكما قتلُ كلِ هؤلاء؟ لمَ لم تلجأ للشرطةِ يا عم ضوء؟ وأَنت يا صهيب لقدْ أَضعت شبابكَ ومُستقبلكَ جريًا وراءَ الانتقام.. منَ المؤسفِ أَنكَ لازلتَ شابًا.. هل كانَ الأَمرُ يستحقُ كلِ ذلكَ؟ هل تعتقدُ أَن هلال ووالدكَ ارتاحَا في قبريهما الآن؟.

-أَنتم السبب.. الشرطة.. ما الذي يتطلبه قلبٌ ينفر من كل الحياة ولا يرى سوى الانتقام؟ عدالة عمياء واسترخاص لحياة الناسِ.. لسنوات طلبَ أَبي إعادةِ البحث في حادثةِ موتِ هلال لكن دون جَدوى، حتى أَنهُ قدمَ احتجاجات لرئاسة الجمهورية.. لا شيء لسنوات نَامَ بعيون مفتوحة أَملًا في أَن يصغِي لهُ أَحدٌ.. حتى استسلمَ للموتِ.

هزَ ضوء رأسهُ وكأَنهُ يوافقُ وجهةَ نظرِ الشابِ

-لذلكَ إما أَن أَتخلى عن الأَمر للموتِ كما فعلَ والدهُ أو أَن أَنتظرَ لكيْ لا تظل ناري مُوقدة.

حدَقَ الغزواني بصادق عكاشة المُغمى عليهِ وقالَ موجهًا كلامهُ لهما:

–وقدْ انطفأت ناركُما.. سلما نفسيكُما للشرطةِ.

–ليسَ قبلَ أَن أَقتُلك

بدأت أَصابعُ صهيب تهتزُ غيظًا من فوقِ الزنادِ عندما نهضَ ضوء وافتكهُ من بينِ يَديهِ

–كفَى قتلًا!.

تقدمَ الشابُ خطوتينِ نحوَ ضوء منفعلًا:

– لماذا تأخذهُ مني؟ لم تَمنعُني؟ أَنسيتَ أَنهُ المُلامَ الأَولَ عن قتلِ عادل؟ أَنسيتَ أَنهُ هوَ من أَضاعَ حقَ أَخي؟

ظل الغزواني مُتوجسًا وهوَ يحدقُ بوجهِ ضوء، منتظِرًا تفسيرهُ وردةَ فعله لكنهُ فضلَ الاهتمام بحشرِ المُسدسِ في حقيبتهِ بينما استدارَ صهيب نحوهُ فجأةً، وقدْ امتقعَ لونَهُ:

– أَنتَ.. كل ما فعلتَه أَنكَ استدَرتَ ومضيتَ.

عقدَ الكفينِ أَمامهُ ونظرَ بطرفٍ عينيهِ لضوء

– أَنتَ أَخبرتني بذلكَ.

كانَ أَقصرَ من الغزواني لكنْ أَكثرَ قوةً بجسدٍ مفتولٍ، مالَ بجذعهِ الأَعلى للإمام وهو يهمسُ بعدَ أَنَ حدقَ إليهِ بغضب:

– لَقدْ كنتَ شاهدًا ليلةَ مقتلِ أَخي هلالٍ، رأَيتَ قاتليهِ ولم تتكلم.. ليسَ عادل، إِنما أَنتَ صاحبُ المنظارِ.

***

١٩٨٨

بخطوات متعثرة بطيئةٍ اقتربَ ياسين من المنزلِ المهجور وهوَ يحملُ مصباحًا، كانَ الظلامُ دامسًا مربكًا خاصةً بالنسبةِ لهُ، لم يكنْ يخافُ الظلامَ لكنْ في مكانٍ مهجورٍ مثلَ هذا مَن لا يخافهُ؟ التفتَ حولهُ مراتٍ ومراتٍ.

حتى قبلَ أَن يلمحَ أَنقاضَ المنزلِ شعرَ بهولٍ ما يحيطُ بهذهِ الخَرابةِ.

شتمَ سوسو، التي لم تجد مكانًا أَفضلَ لتلتقي بهِ بعيدًا عن الأَعينِ، طلبتْ منهُ تسليمَ الأَموالَ المُتفق عليها في هذا المكانِ بعدَ أَن غابت عن العملِ ليومين متتاليين لتتصلَ به لتعلمهُ فجأةً أَنها ستتركُ العَملَ وترحلُ لولايةٍ أُخرى رفقةَ عائلتهاَ بالفجرِ، وأَنها مُستعجلةٌ لتسلم نصيبها، كانَت في لهجتها نبرةُ تهديدٍ واضحةٍ، وهو كانَ أَجبن من تركها تنفذُ وعيدها بإفشاء الأَمرِ للسلطاتِ أَو لضوء.

حرٌ.. رائحة مُقززة.. حشراتُ ليل.. تأَففَ وهوَ يقتربُ أَكثرَ من المنزلِ وقدْ ظهرَ مدخلهُ من بعيدٍ على ضوءِ القَمرِ، كانَ قدْ اقترحَ عليها لقاءها قربَ محطةِ النقلِ الريفي لكنها رفضتْ وتحججتْ بوجودِ والدها الذي لا علمَ لهُ بأَي صفقةٍ، فكرَ ياسين أَن هذا أَفضل لهُ سيتخلصُ من عبئها وعبء هذهِ المسأَلةِ برمتها.

وجهَ مصباحهُ للداخلِ وهو يقفُ أَمامَ المدخلِ، ظهرَ داخلهُ فارغًا إلا من بعضِ الخردواتِ والأَوراقِ المُتناثرةِ في جميعِ الجهَاتِ، مقعدُ كرسي بدونِ أَرجلٍ، نَعلٌ مطاطِي، وقضيبٌ مقحمٌ في عجلةِ دراجةٍ والمزيدُ منَ الأَوراقِ..

وفي وسطِ الغرفةِ وقعتْ عيناهُ عليها وهيَ جالسةٍ على ما بدا لهُ صخرةً.. دخلَ مُبتسماً

-لا توجه الضوء نحوَ وجهي.. هل جلبتَ ما اتفقنَا عليهِ؟

-نعم.. أَلم تجدي غيرَ هذا المكانِ القذرِ لنلتقِي به؟!

نهضتْ ودونِ أَن تنظرَ إِليهِ قالت وهيَ ترفعُ أَحدَ حاجبيها:

- لم يكنْ هذا المكانُ اقتراحِي أَبدًا.

هربتْ ابتسامتهُ وظهرَ عدمُ الفهم بوضوحٍ في نظراتهِ حتى أَنهُ استطاعَ الشعورَ بقطراتِ العرقِ تنسابُ على ظَهرهِ:

- لم أَفهم!

سمع صوتًا خلفهُ، استدارَ وقد اتسعت عيناهُ وبالكادِ سمعَ شيئًا أمامَ ضرباتِ قلبهِ التي ارتفعت فجأةً.. كانَ ضوء خلفهُ.

-ما.. ما معنى هذا يا سهام؟

اختطفَ ضوء المصباحَ من بينِ يديْ هذا الأَخيرِ قبلَ أَن يعمي بهِ بصرهُ وتقدمَ بينما تراجعَ ياسين للخلفِ ناقلًا نظراتهُ المَذعورةِ بين وجه سهام وضوء:

- ماذَا أَخبرتهِ يا بنت الكلب؟!

-لا تشتم أَبي.. ونعم.. لقدْ أَخبرتهُ بالحقيقةِ لا غيرَ.

-اذهبي!

أَمرَها ضوء بهدوءٍ وقامتهُ الطويلةِ تغطي الجزء الأَكبرَ منَ المدخلِ بينما ظلتْ عيناهُ تراقبانِ ردودِ فعلِ ياسين.

تقدمتْ سوسو ومدتْ يدها تلتقطُ كيسَ النقودِ من بينِ أَصابعِ ياسين ذي ملامحِ الوجهِ المرعبةِ.

ارتمى عليها وأَمسكها من كتفها وشعرها جارًا إِياها

-اتركنِي.. ضوء.. ضوء.. أنقذني!

صرختْ باسمهِ بينَ أَسنانها، بينما حاولتْ رفسَ ياسين بكعبِ حذائها.

ظلَ ضوء يراقبهما، قبلَ أَن يتحركَ بعدَ عدةِ ثوانٍ مسددًا لكمةِ لوجهِ ياسين الذي تراجعَ للخلفِ دونِ أَن يسقطَ مطلقًا صرخةً.. هيَ أَفلتتْ من قبضتهِ بصعوبةٍ وسقطتْ على الأَرضِ وهيَ لا تزالُ تقبضُ على الكيسِ البلاستيكي منتحبة.

-لا تلم الفتاة.. إِنها مجرُدُ حبلٍ لجركَ لهذا المكانِ وقدْ انتهتْ مهمتُها.. اذهبِي.

ركضت نحو المدخلِ دونَ أَن تهتمَ بخصلاتِ شعرها التي تناثرت على وجهها وكتفيها، وهيَ تُكابدُ التواءَ كاحلها.

في نفسِ الوقتِ حاولَ ياسين اللحاقَ بها، حتى شعرَ بيدٍ غليظةٍ تسحبهُ للخلفِ

-إِلى أَينَ أَنتَ ذاهبٌ؟ لم نبدأ كلامنا حتى.

ارتَخى جسدهُ وهوَ يسقطُ على الأَرضِ، اقتربَ منهُ ضوء وانحنى للأَسفلِ ناظرًا لعينيهِ:

- هذا المنزلُ القذرُ كما تقولُ هو المكانُ الذي يحفظُ روحَ ابنِي الذِي قتلتهُ.

خرابة.. منزل متداع.. يبدأ بدرجات ترابية محفورة بالأَرض أو هي مشابهة للون التُراب يفضي مدخله إِلى غرفةٍ واسعة كانت بالتأكيد غرفةَ جلوسٍ في

السابق، مليئة بالتجاويفِ والنتوءات حتى جدرانها الباقية مشققة، هيَ المكانُ الوحيدُ الذي ضمَ اجتماعاتهم الطفولية رغمَ القذارةِ والرائحةِ والحرِ والحشائش التي نبتت فجأة في أركانها.

-أَنا لم أَقتلهُ.. إنها تكذبُ عليكَ.. بماذَا أَخبرتكَ؟

سحبَ ضوء حبلًا كانَ يخفيهِ وراءَ معطفهِ وهوَ يقولُ

- لا يهم.

بسرعةِ خبيرٍ انقضَ عليهِ وأَطلقَ الحبلَ حولَ عنقِ الأَخيرِ الذي حاولَ النهوضَ لكنهُ تعثرَ بساقِ ضوء الذي ثبتهُ على ركبتيهِ، بينما بدأَ بسحبِ طرفي الحبلِ منَ الخلفِ، تصلبت يداهُ وهما يحاولانِ انتزاعَ الحبلِ عن عنقهِ دونِ جدوى

- أَنا لم أَقتلهُ.

شدَ ضوء الحبلَ للوراءِ، سحق شظايا الزجاجِ والحجارةِ التي تحتَ حذاءهِ، أَطلقَ ياسين صرخةَ أَلمٍ

- لم أَكن وحدِي

خففَ ضوء من شدِ الحبلِ على رقبةِ الأَخيرِ الذي تنفسَ بعمقٍ وهوَ يُوضحُ بصوتٍ أَجشٍ:

- لم أَقتلهُ.. لقدْ.. لقدْ أَمرتُ حمادِي الوحيشي بالقتلِ لكنني لم أَكن موجودًا، لقدْ كنتُ أُنفذُ الأَوامرَ فقط.

غادرت الثقةُ نفسَ ضوء وحل الارتباك محلها سألهُ بحذرٍ:

- أَلقِ بكلِ ما في جوفكَ الآن، مَن الوحيشِي؟

كانتْ عيناهُ دامعتينِ، مخاطُ ولعاب يخرجُ من فمهِ وأَنفهِ يتنفسُ هواءً ثقيلًا، تبينَ ضوء أَثر الرعَبِ في وجههِ وصوتهِ، نظرَ من الخلفِ بعينيهِ، فكرَ إِن كانَ يكذب أَو لا؟

***

لمعتْ أَضواءُ زرقاءَ من بعيدٍ.. وصلتْ سياراتُ الشرطةِ، كانَ عماد أَول شرطي يصلُ للمكانِ عندما وجدَ ضوء جالسًا بجانبِ الجثةِ.. جثةٌ عرفَ ضوء أنها لن تكونَ الوحيدةُ في قائمتهِ.

***

«وهي رغم كل ذلك الحياة،
ونحن مُطالبونَ أن نَحياهَا كمَا هيَ»
هتافُ المُعذبينَ،
عبد الرحمن مطاوع.

لم يكنْ يعرف، بل أَقنعَ نفسهُ أَنهُ كذلكَ.

لقد اختَارَ الطفلُ أَحمد أَن يتجَاهلَ الأَمر، وحتى الآن وقدْ أَضحى ضابطًا ظلَ يَكذبُ ويَقول أَن ما رآه قبل ٢٥ سنة كان مجردُ عرض مسرحي، جزءٌ من تلكَ المسرحيةِ، لأَن أَية فكرة غير هذه تعني فقط أَنهُ كانً من المفروضِ أَن يُقتلَ هوَ، صاحبُ المنظارِ في تلكَ الليلةِ.

وأَنَ عادلْ قُتلَ فقطْ لأَنهم اعتقدوا أَنه حاملُ المنظار.. مهما حاولَ بجدٍ أَن يُقنعَ نفسهُ أَنهُ لم ير شيئًا مهماً فهذا لم يغير من حقيقة أَنَهُ تسترَ دونَ أَن يعي على جريمةِ قتلٍ وأَنهُ تسببَ في مقتلِ صديقهِ دونَ أَن يدري.. رُبما فقط لو بلغَ الأَمنَ صبيحةَ ذلكَ اليومِ.

رُبما.

كانَ أَحمدُ قدْ تسللَ تلكَ الليلةِ لمراقبةِ طيرِ الحجلِ.. وبعدَ أَن شاهدَ ما شاهدَ لم يعرف ماذا عليه أَن يفعل، هل يخبرَ والدهُ المريضُ؟ هل يعلمُ أَصدقاءهُ؟ لقدْ أَخبرَ سالم لكن هل عليهِ إخبارُ الحرسِ؟ لكنه فضل أَن ينتظر عودة ضوء من الصيدِ، هو العارف بكل شيءٍ.

طلبَ ضوء من صهيب أَن يهدأ لما رأى منهُ المُبالغةُ في الغضبِ والانفعالِ؛ لكنه الأَخيرَ قاطعهُ في حدةٍ وعيناهُ لا تزالا مُسمرتانِ على الغزوانِي الذي بدا شاحبًا:

- ماذا؟ تظنُ أَن أَحدٍ لم يعرف؟ لقدْ أَعلمنِي ضوء

أَعادَ كلامهُ على مسمعهِ وكأَنهُ لم يكتفِ بعدُ.

وقفَ الغزواني ببطءٍ رافعًا ذراعيهِ:

- لم أَعِ الأَمرَ إلا بعدَ مُرورِ سنواتٍ.. من أَخبركَ؟

-سالم.

تحركَ صهيب جيئةً وذهابًا ماسحًا العرقَ الذي تصببَ من وجهه، كانَ تنفسهُ غيرَ منتظم كمن ينفثُ غضبًا بين النفس والآخر.. دنا نحوَ المُتكلم، كانَ يرتدي حذاءً عسكريًا أَسود، رغم هذا الحَر، أَطلقَ ضحكة سَاخرةٍ قبلَ أَن تنقلبَ ملامحهُ فجأةً

- لم تعِ؟ تلك الأَسرار التي كتمْتَها أضاعت حق أَخِي.. وشوهت سُمعتهُ قالوا سكيرِ قالوا مُبتز.. أَتعرفُ كيفَ انتحرَ أَبي؟

كانَ الغزواني صادقًا في كلامهِ لكنْ لا يبدُو أَن صهيب مهتمًا جدًا بذَلكَ، فورة غضبهِ تَكَادُ تكونُ مَسموعةً مع ارتفاع دعساتِ حذائه على الأَرض وسرعة تواتُرها.. لكن هذا لم يكنْ كافيًا لاَستنتاج ردِ فعلهِ أَو كافيًا لرؤيةِ وميضَ رأْسَ السكينِ التي أَخرجها من وراءِ ظهرهِ، سكينٍ مبللٍ بالدماءِ.. دماءُ حُسام الجريدي على الأَرجح.

***

باغتهُ بالهجوم، دفعهُ للخلفِ مصطدمًا بالجدارِ رافعًا يدهُ اليُمنى بالسكينِ الذي اخترقهُ لمنتَصفه، كانَ الانفجارُ قدْ سبقَ وذَهبَ ببعضِ قوةِ الغزواني، بدا غيرُ قادرٍ على الحركةِ أَو المُقاومةِ، غرزَ صهيب سكينه فِي الجانبِ الأيسرِ من جانبِ الغزواني وسحبهُ دونَ أَن يتراجعَ، ترقرقَ الدمُ.

هبَ الغزواني رغمَ أَلمِهِ وقبضَ على رسغِ الأَخيرِ قبلَ أَن يطعنَهُ مرةً ثانيةً، اصطدم جسمَ الأَخيرِ بجدارِ المنجمِ الصلبِ، لم يردع الأَلم الغزواني ليلقي بثقل جسمه عليهِ، بينما تدفقَ الدم منَ جنبهِ، تمتمَ المرضُ من بين أَسنانهِ

- أَنتَ السببُ في ضياعِ حقِ أَخي.

أَدركَ المحققُ فِي تلك الليلةِ أَنه أَخطأَ لكنه لم يعلم أَن الأَحداث المُؤسفة التي حدثتْ في الأَيَام اللاحقة كانتْ بسببِ جبنهِ أَو عدمِ إدراكهِ لأَهميةِ ما شاهدهُ، كان قرارًا اتخذه وقد عاش طوال عمُره مع هذا القرَارِ، رغم مُحاولاته أَن لا يُفكر في ما رآهُ والآنَ يتحمل تبعاتِ ذلكَ.

بدأت مُقاومتهُ في الانهيار، كانتْ أَنفاسهُ ثقيلةً وجسدهُ يفقدُ صمودهُ، وعندما فكرَ في جزء منَ الثانيَةِ أَن يتركُ تلكَ اليدِ التي تحملُ السكينَ برزَ ضوء الصغير من الخلفِ.

دارَ ضوء وراءَ صهيب ولفَ رقبتهُ بحبلٍ بسرعةٍ وسحبَ بينما وضعَ المُحققُ يدهُ علِى الجرحِ وضغط، شعرَ بالدوارِ يسحبهُ للأَسفلِ ويثقلُ رأسهُ.. تهاوى على الأَرضِ.

اخترقت الصرخة سمعهُ، التفتَ مَصعوقًا، كانَ الحبلُ قد التفَ حولَ رقبةِ الشابِ

- عم ضوء توقف

صرخ.. سحبَ رجله ووقف بترنح محاولًا أَن يعتمدَ على الجدار لتثبيتِ نفسهِ، لكن تهاوى إِلى مكانهِ مرةً أُخرى، كانت رجلاهُ ضعيفتينِ مع فقدانِ الدمِ.. كانَ غيرَ قادرٍ على نجدتهِ في وضعهِ الحالي وجسمهُ يضخُ الأَلمِ والذعرَ.

رفعَ عينيه عندها، شاهدَ صهيب ينتفض يُجاهدُ ليتنفسَ ويتكلمَ وهو يحاولُ نزعَ الحبلِ عن رقبته

- توقف لا تقتلهُ

تكلم الغزواني بين لهثاتهِ

"مهما كانت قوةُ الفريسةِ تبقى الرقبة أَضعفَ نقطةٍ فيهَا"

تذكرَ الكلمات التي تلفظ بها ضوء قبل ربعِ قرنٍ الآنَ وهو يُشاهدهُ يخنقُ صهيب

-توقف.

كفَ صهيب عن المقاومة، تراخى جسدهُ ومال رأسه ببطء على صدر ضوء، تفقد ضوء نبضهُ بعد أَكثرِ من دقيقةٍ، استقامَ وهوَ ينفضُ ثيابهُ

-لقد أفلتَ زمامهُ

وقفَ عندَ جسم صهيبْ لثوانٍ، قبلَ أَن يتحركَ بهدوءٍ كمن يعرفُ ماذا يفعلُ، أَبعدَ السكينَ وسحبَ الغزوانِي قليلًا حتى ثبتَ ظهرهُ على الجدارِ مرر يده على وجهه

-اصمد.. هل هناكَ قادمونَ؟.

أَضواء.. أَلوانٌ باهتة تتراقصُ.. اختفى ضوء من أَمام عينيهِ أَو هكذَا تهيأ لهُ.. كانَ عادل واقِفًا بجانبهِ، تذكر رائحة الإكليل، وخيطَ شحمةُ أُذنِ علياء، ومنظارَ عادل، وضحكاتهم مع آخر نفسٍ في البرَاءة، لكن لم يكن ذلكَ دائمًا،

تذكرَ أَيضًا تلك الأَيام التي أَكلهُ الجبنُ فيها وبصقه، المنظار، الظلام، صرخة بين جنباتِ الفجوجِ قَبلَ أَن تكتمَ للأَبد.. كل هذا يُطاردُهُ.. وسيطاردهُ دائماً.

***

استيقظ.. شعر أَن هنامك من صفعهُ، اختفَى ضوء لثوانٍ قبلَ أَن يظهرَ وهو يحملُ قطعةً قُماشيةٍ

-أَمسك هذا واضغط على الجرحِ، وواصل الكلام لا تفقد وعيكَ.

اسند جذعه على الجدار الصخري

- دعنِي أَرى.. أَبعد أَصابعكَ

تفحص ضوء الجرح:

- لا تقلق، كان يمكن أَن تكون الإصابة أَسوأ، ولكنك محظوظ،، لطالما كنتَ محظوظا، أَنت تعرف بالتَأكيد.. كانَ من المفروض في ذلكَ اليومِ أَن تموتَ مكانَ عادل.

شعرَ المحققُ بالانقباض في معدته مع كلماتِ الأَخيرِ

"أَحمد يا أَحمد"

يشعر أَنهُ يعود إلى سنين الطفولة.. أَن يكون هو السببُ.. أَن تكون الغلطة غلطتهُ، أَن يكَونَ القدرُ أَعمى كالعدالةِ البشريةِ، أَو أَن يكون القرارُ بهذه السذاجة

"اقتلوا صاحبَ المنظار"

لطالما بدا هذا له شديد القسوةِ مفجعًا غير حقيقي، لكنه وقعَ كان هو من رمى الحبل ليعصر رقبة عادل، كما في ذلكَ الكابوسِ، كونت بدايةُ غصة تجمعت في حلقه.

-لم أَعرف.

-إنهُ ليسَ خطأك.. كنتَ مُجردَ طفلٍ رأَيتَ منَ المفترضِ أَن لا ترهُ، وهم قتلوا طفلًا من المُفترضِ أَن لا يُقتل.

كز المُحققُ على أَسنانهِ منَ الأَلمِ، ورفعَ رأْسهُ دون أَن ترمش عيناه، لم يعلم إِلى ماذا سيفضي بينهما هذا الكلامَ، ضحك ضوء.. التقت عيونهم

-أَنتَ مُتسخٌ.. القذارة تغطيكَ كما كنت وعادل

كانت ابتسامة صادقة غير متكلفة.

-أَلن تهرب يا عم ضوء؟ إِنهُ الوقتُ المُناسبُ لذلكَ.

استعادَ وجههُ ذلكَ التعبيرَ الجدي

-اقلق على نفسكَ لا عليَ.. وواصل الكلام.. لا تغمض عينيكَ

لم يعد ضوء مباليًا حتى لسلامتهِ الشخصيةَ، كان بمقدوره أَن يهربَ الآنَ لو لا أَن نظراته بدأتْ مثبتة على وجه العزواني الذي تأَوهَ أَلمًا.

كان الضوء المنبعث من الفانوسين يتراجع، يخف.. النفقُ بدا له أَنهُ يتلاشَى.. بذل جهدًا لكي لا يستسلم للإِغماءِ لكنهُ استجمعَ نفسهُ وسأَلَ

-أَليسَ مرهقًا كل هذا الكرهِ يا عمِي؟.

استأنفَ عكاشةَ مُحاولاتهُ الضعيفةِ في تحريرِ نفسه، ركلَ.. حركَ يديهِ، هزَ كاحليهِ.. مُحاولاتٌ انتهت بضربةٍ على رأسهِ بعدَ أَن انتبهَ ضوء إِلى صريرِ الكرسي على الأَرضيةِ.

-إِنهِ ليس الكُره، إِنهُ وعدٌ قطعتهُ على نفسي أَمامَ جثةِ ابني.. ليسَ بالغريبِ عن الوعدِ الذي قطعتهُ عندما أَصبحتَ شرطيًا.. أَليسَ كذلك؟.. متى عرفتَ؟

-عندما وجدتُ المنظارَ في صندوقِ الأَدلةِ.. يومها فهمتُ أَنني المَقصودُ بذلكَ.

تحركَ ضوء في الظلام، سمعَ خطواته، لم يكن أَبدأ حريصًا على إخفائها ظنَ أَن حرارةَ جسمهِ ودمهِ الحار المُتدفق رغمَ قطعةِ القماش سيشعرانه بدفقاتِ الحرارةِ أَكثر، لكن الغريبَ أَنهُ بدَأ يستشعرُ البرودةِ وهيَ تتلحفهُ بظلها وتخزهُ بإبرها الجليديةِ، دعا أَن تكونَ التعزيزاتُ قريبة.. لا يعرف إِن كان قد تكلم بصوت عالٍ لكن ضوء قالَ

-ستكونُ بخير.

-لم فعلتَ ذلكَ يا عم ضوء؟ موتهم لن يريحكَ رغمَ ذلكَ.

-مَن أَنا إن لم آخذ بحق ابني؟ ما نفعُ حياتي إن لم أَقتَص منهم؟ لم يجبُ أَن نعيشَ أَنا وغيري في حزنٍ طوالَ أَعمارنَا في وقت يعيش فيه هؤلاءُ بكل كذبهم وظلمهم؟!.

-أَشعرتَ بالندم؟

-أَظل أَسأَلُ نفَسي.. ماذا لو عاش عادل.. لكان في عمركَ.. ماذا سيصبحُ؟ ممثلًا؟ كاتبًا؟ أَتساءل عن هذا ربما سيكون لي أَحفاد في هذا العُمر.. لذلكَ لا، إِنني لا أَشعر بأي ندم، فلقد نسيتُ كيف يجب أَن أَشعر منذ دهرٍ يا أَحمد.

سكتَ.. جاهدَ مرةً أُخرى لفتح عينيهِ.. لكنهُ كانَ يُجرُ جرًا للنومِ يشعرُ أَنهُ يطفو على سطحِ الماءِ.. أَراحهُ هذَا الإِحساس.

هرولَ ضوء نحوهُ، ركع.. تركَ قارورةَ الماءِ على الأَرض، أَجلسهُ وساعدهُ في رفعِ رأسهِ ليتجرعَ بعضَ الماءِ.. جلسَ بجانبهِ شملهم الصمتُ للحظاتٍ.

أَصبح إخراجُ بعضِ الكلماتِ من فمهِ شاقًا.. ابتلعَ الغزوانِي لعابهُ

-لم يفت الأَوانُ.. فلتخبر العالم بكلِ هذَا.

-لم يعد هذا مُهمًا.

بدا جسمُ الغزوانِي رخوًا، شبه فاقدٍ للوعي

-أَحمد

سعلَ مرة أُخرى، اختلطتْ دُموعهُ بلعابهِ.. ارتخَت أَصابعُ الغزوانِي بشكلٍ تدريجي قبلَ أَن يفقدَ الوعيَ مغلقًا عيونهُ على وجهِ عادل المُبتسمَ.

***

لم يخطر في بال علياء أَن تحقيقا بوليسيًا يُمكن أَن يورطَ شركة سالم في دوامةِ اتهاماتٍ لا يَزالُ صداها يرتفع في كل يومٍ يمرُ، ولكنها آمنت بأَنه بإمكانهِ السيطرة دومًا على كل التقلباتِ مادام هُناكَ من يُساندهُ من أَبناءِ الجهةِ والمسئولين، ومادامتْ الوعود لازالت تفعلُ فعلَ السحرِ في الجميعِ أَو أَغلبهم.

تذَكرت كلامَ والدهِ في إحدى المناسباتِ الاحتفاليةِ إِبانَ تعيينها كمستشارةِ علاقاتٍ عامة قبلَ سنواتٍ

"كن محط الانتباه في أَيِ مكانٍ تكون فيهِ"

وهاهو الآنَ أَمام كاميرات وميكروفونات القنوات التلفزية الوطنية. تراجعت للخلف قليلًا سامحة له بالمرور منْ أَمامها ليدلي بتصريحه المُنتظرِ حول مُستقبل شركة المُتوسطيةِ التي لطالما شكلت بالنسبة لهمَا كل شيءٍ، الصداقة.. الرابطة.. المستقبلُ.. تنصهر كل هذه الأَحاسيس لتكون كيانًا

واحدًا وهو الحياةُ، لم تكن تريد أَن تخسرهُ أَيضًا بعد أَن كانوا أَربعة أَصبحوا بالكاد ثلاثة.. وهاهم الآن اثنانِ بطموحٍ واحدٍ.

التزمَا الصمتَ مع نهاية اللقاءِ. جلسَا على أَريكة مكتبهِ. أَرخى سالم ربطة عنقهِ ثمَ راح يقرأُ استدعاء النيابةِ العمومية للمرة السابعةِ، رفعَ رأسهُ وتأملها، كانَ وجهها خاليًا من المكياج تقريبًا إلا من نفحةِ كريم مضادٍ لأَشعةِ الشَمسِ وخطِي ماسكارا حولَ عينيهَا، تنهدَ وهو يسأَلُ:

-عم ضوء؟

تنهدتْ، أَبعدت شعرها عن عينيها وقالتْ:

- شكرًا لتوصيتكَ لكنْ الزيارةُ ممنوعة، رغمَ أَنَ أَخبارهُ تصلُني عبرَ المُحامي الذي عينتهُ.. يقول

تنهدت مرةً أُخرى وقد دمعت عيناها

-يقولُ أَنَهُ في موقف صعب.. رغمَ أَنَ خالي يُبدي اللامبالاة لوضعهِ.. نجاةُ الصادق عكاشة يُمكنُ أَن تكونَ في صالحهِ.

-أَظنهُ ارتاحَ قليلًا وقدْ بلغَ مُرادهُ.. لقدْ زرتُ أَحمد.. إِنهُ بخير.. سيعيش رغمَ أَنني لا أَستطيعُ أَن أَصفَ صداقتنا بذلكَ.

استرجعتْ علياءُ الكلامَ الذي دارَ بينها وبينَ أَحمد منذُ يومين خلالَ الزيارةِ الوحيدةِ إلى غرفتهِ، كانَ بصحةٍ جيدةٍ رغمَ الأَدوية، والمحاليل والَفُحوصاتِ وذلكَ الجرح الذي يتوسطُ أَعلى جبهتهِ وتلكَ الإصابةَ تحتَ صدرهِ، ربما دفعتهُ المهدئاتُ ليُفصحَ عما في نفسهِ بكلِ راحةٍ لكنهُ تكلمَ عن ضوء وعن المنظارَ والطفل الشاهدُ تلكَ اللَيلة، لم يكتم مَشاعرهُ.. تكلمَ.

كلامٌ لم يثلج صدرها لكنهُ أَراحها.. لنْ تنسى اعترافهُ عندما قالَ لها "لقد فكرتُ في سؤالكِ الكثيرَ من المراتِ.. ربما تنقصُني نعمةُ الأَنانيةِ، أُقرُ بذلك لكننِي حاولتُ معكِ ومع نفسي أَيضًا، لكن في كل مرة لا أَرى سوى الانفصال كمخرجٍ لنَا.. كان حلًا سَهلًا.. فكرتُ لو كان بيننَا طفلٌ يَملأُ حياتَنا ويخففُ منً تَعنتِي رُبما.. رُبما تمسكتُ بكل شبرٍ.. بل ذرةٍ فيكِ ربما ما تركتُكِ ولا جعلتُكِ تتركينِني، ربما كنا سُعداء.. هذه الـ (رُبما).. ربما لو لم يقتل عَادل بتلك الطريقة لَما كنت شرطيًا ولا فكرتُ في تتبع هذا المجالِ أَصلًا، أَو رُبمَا هي أَقدار فقط ستصلنَا بوجهتنَا مهما كانت رغبتنَا".

كانَ عليها قولُ شيءٍ لهُ لكنها كما فعلت قبلَ سنواتٍ خرجت دونِ أَن تقولَ أَيُ شيء يُمكنُ أَن يبررُ الفراقَ.

***

كانتْ غرفةُ المُستشفى ساكنة.. الشيء الوحيد الذي كان يصدر صوتًا هُو صوتُ المُذيع المنبعثِ من هاتفِ نصر الدين

" ..أَصدر وكيل الجمهورية أَمرًا بفتحِ قضيةٍ في خصوص الاتهامات والوثائق التي تركها هلال المحمدي، كما أَمر بإرسالِ لجنة محايدة لإِعادة تقييم جودة المياهِ".

ظلَ الغزواني رغم المهدئات مُستيقظًا منذُ مدة طويلة لذلك كان من غير المفاجئ أَنهُ يحاول معاركة شكوى النومِ التي تكاد تطيح برغبته في مواصلة الاستماع لآخر الأخبار، وهو محبوس بَين جدران الإِصابة وحرارة الغرفة التي زادت من حدة عبئه رغم محاولات مساعده الذَي أَسرف في اختلاق طرقٍ للتخفيف عنهُ.

تابعَ مذيعُ إذاعةِ إف إم "..استدعتْ النيابةُ العُمومية كلًّا من سالم الشارني المُدير التنفيذي الحالي للشركةِ المُتوسطيةِ، والمديرينَ السابقينَ لها، والمديرَ السابقَ والأسبَق لقسم المُراقبةِ بوزارة البيئة والرؤساءِ السابقينَ لمخابر العَاصمةِ، كما ألزمتْ الشركة المُتوسطية بتسليم نسخًا ورقية لجميعِ الفحوصاتِ المتعلقةِ بالمياهِ التي تولت الشركة القيامَ بهاَ منذ إنشائها".

-أرأيتَ لقدْ فعلوا شيئًا.. لا أُصدق ألم تقل..

-إنهُ مجرد ذر رمادٍ على عيونِ الرأيِ العامِ يا أَخي

فترت حماسة نصر الدين لهذا الردِ.

تابعَ المُذيعُ يتلو ورقتهُ الإخبارية:

"وقدْ وجهَ سالم الشارني صباحَ اليوم خطابًا وعدَ فيهِ أهل المظيلةِ بالكثيرَ.. نستمعُ معًا لمقتطفَاتٍ من خطابهِ "..من جهتنا كمسئولين عن المجمع الكيماوي نتعهدُ بتقليص نسبة التلوث إلى النصف، فقد بدأنا بانجاز كراس شروط يعمل على إيجاد آلية فعالةٍ لامتصاص مُسببات التلوث وإعادة نقلِ المَصب إلى منطقةٍ بعيدةٍ عن التجمعات السُكانية والمساحاتِ الزراعيةِ، وسنلتزم من جهتنا بمنع تلوث المِياه الجَوفية. كما هناكَ اتجاهٌ لبناء وحدة جديدة تحترم المَعايير الدولية في السلامة البيئية سنركزُ بها مغاسل جديدة أكثر حفاظًا على البيئة، وستساهم في تقليص نسب التلوث في المدينة، وسيوفرُ بناءُ هذه الوحدة فُرصة عمل لنحو ٣٠٠ شابٍ وشابةٍ من بلدتنَا".

رفعَ نصر الدين حاجبهُ:

-آه.. إنهم يسيرُونَ بمبدأ الموتُ هنا أَمرٌ حتميٌ، فعلى الأقل فلنسكتكم بمنحكم عملًا بالمنجم أو الشركة أو المجمع الكيماوي.. لن تعترف الشركة

بتقصيرها في مراقبة معالجة التسربات الناتجة عن فضلات الفوسفات أَليسَ كذلكَ؟!

قالَ ذلكَ وقد تدلى أُنبوب وريدي في استرخاء تام خارج سريرهِ.

وعندما لم يرد الغزوانِي على سؤالهِ أَضافَ:

-التسمم.. هل يمكن إثباته حقًا؟

-هل يمكنُ التأكيدُ على أَن هناك علاقة بين الاحتباس الحراري ونفسية الدجاج الأَبيضِ؟

-"ماذا؟ ما دخل هذا في هذا؟

-وأَنا أَيضا أَقول أَثبت أَن هذا له علاقةٌ بهذا.. هل سمعت بعقدة كاسندرا؟

-تقصد المسلسل المكسيكي؟

-حقًا إِن مصادرَ معلوماتكَ غريبةٌ.. على كلِ حال إِنهُ مسلسل فنزويلي وليسَ مكسيكي.. ليس هذا ما أَقصده على كل حَال.

رأَى نصر الدين طيفًا ظللَ وجه الغزواني قبل أَن يدركَ سريعًا أَنهُ يتأَلمُ

-كاسندرا كانت متنبئة عظيمة رفضت الزواج من أَبولو، هو إِله شيءٍ ما هناك عند الإغريق قديمًا.. دعني أَتذكر.. إله البحرِ أَو الشمس.. المهم هذا السيدُ الراقي لم يتقبل الرفضَ بروح رياضية أَوليمبيةَ، ماذا فعلَ؟ لعنَ المرأة.. جعل كل من يستمع إِلى تنبؤاتها يُنكرها ولا يُصدقها مهما فعلت، مهما قالت المِسكينةُ.. كانت عاجزة عن تغيير رأي الناسِ، عن تحذيرهم.. كانوا يجابهون تحذيراتها بالسخرية والضحكِ.

رفع كتفيه في استسلامٍ

-لذلكَ التلوث والتسمم والأمراض وارتباط الفوسفات بها هي أُمور معروفة سلفًا.. لكنْ هناك حالة انكار تام.

بعدَ صمت طويل بينهما قاطعتهُ أغنيةً للفنانة عُلية[1] قالَ نصر الدِين وهوَ يلاحظُ الألَمَ الذي يُكَابدهُ الغزواني عندما يتحركُ فجأَةً:

- سيدي، هل أَعجبك المكانَ إِلى حد أَنك قررتَ أَن تبيت عدة أَيام هنا أَيضًا؟

نزولًا عندَ إصرار ورغبة الغزواني تم تغييرُ غرفة نقاهته لغرفةِ نصر الدين

-لا.. لكنه يبقى أَفضل من غرفة العمليات المتطرفةِ، أَشعرُ فيها وكأَننا منفيينَ.

تململ نصر الدين، نظرَ إلى جبيرة ساقهِ متأَففًا:

- ماذَا تفعلُ شوق يا تُرى؟

ارتشفَ الغزواني آخر قطراتِ الماء من كأسهِ ثمَ قالَ:

- تجهزُ التقاريرَ.. هيَ في حالٍ أَسوأ من حالتينا، لا تنسَ الأَدلة التي عُثرَ عليها في سيارةِ صادق عكاشة.. إِن نجا مما أَصابهُ سيعيشُ بقية حياتهِ في السجنِ.

-كانَ يَخشى سهام، قتلها لأَنهُ ظنَ أَنها ستتكلم بعدَ مَقتلِ زوجها.

فوقَ سريريهما تبادلا الاعتراف بالملل من الرقود على أَسرة المستشفى، رفعَ رئيسهُ وسادتيهِ وثبتَ ظهرهُ على الوضعِ الذي اعتقدَ معهُ أَنهُ الأَكثرَ راحةً:

---

(١)فنانة تُونسية.

- أَليس من المفروض أَن تجهز لنا غرفًا بمصحة خاصة مثلًا؟ أَلا ينزل هذا في إطارِ المصاريفِ العلاجية الاستثنائيةِ لأَفرادِ الوحدةِ المُستحدثة؟!

-هل أَحتاجُ إِلى تذكيركِ بمستوى الغرفةِ التي نطلق عليها غرفة العمليات الخاصة؟ إِنهم مفلسون من كل النواحي!.

شعرَ بوخز في جانبه المُصابِ، قالَ الطبيبُ أَن جراحتهُ جرتْ على ما يُرامُ وأَنهُ لا يوجد عضو حيوي في جسمهِ تعرضَ للتلفِ؛ لكنه يحتاج إِلى فترة نقاهةٍ طويلة ليستعيدَ القليلَ من لياقتهِ وصحتهِ، وهو شيء لم تستوعبه والدتهُ عندما منعتها الممرضات من تهريبِ كسكسي بلحمِ الخروف للغرفةِ ظهرَ البارحةِ!.

بإِصبعيه أَدارَ نصر الدين خاتم الخطوبة، كانَ بالتأكيدِ يفكرُ بخطيبته.

-إِنها فتاة مبهرة مُحبةٌ!.

ابتسمَ بسعادة لهذَا الرأي

-هل تظنُ ذلكَ؟ لازلتُ مُترددًا حولَ الزواجِ خاصةً بعدَ الذي حصلَ لي.

-هل حبكَ لها كافٍ ليدوم لعقودٍ وعقود رغم الإغراءات والزمن والملل؟ إِن كان كذلك فتقدم هذا أَفضل من أَن تنضم لقافلة الوحدة للأبدِ.

-لا أَعلم

قال ذلك وهو يتذكرُ خصلات شعرها الأَسود وهي مُلتصقة بعنقها من الخلفِ بينما أَحاطت بعضها بوجهها وقدْ تألقَ خاتم الخطوبة الذهبي المُلتف برقة حول بنصرهَا.

وضع الغزواني قدميْهِ على الأَرض طلبًا لبعض البرودة

-سيتعفن جرحي بسبب هذه الحرارةِ

ثمَ نهضَ من سريرهِ.

-ماذا تفعل؟ لقدْ حذركَ الطبيبُ من..

-أَخفض صوتكَ وإلا سأَطلبُ العودةَ إلى غرفتِي الخاصة.. لن يعلمَ الطبيبُ إن لم تخبرهُ أيُها الواشي.. ثمَ إياكَ أن تُخبرَ أُمي بذلك أيضًا!.

التزمَ نصر الدِين الصَمتَ وهوَ يضحكُ ساحبًا إحدَى القصص المُصورةَ من فوقِ المنضدةِ، بينما توجهَ الغزواني بخطوات بطيئة وثابتةٍ نحوَ النافذةِ.. سحبَ طرفَ الستارةِ ونظرَ للنجومِ.. لا تبدو كالنجوم التِي يراها في سماءِ المنسيةِ، ليستْ أَقلَ إضاءةً لكن حتىَ النجومَ هناكَ مختلفةَ.. ربما تكونَ بسببِ الصحبةِ.. بسببِ الصَداقةِ لكنها مُختلفةَ حتى في انطفائها حتى في توقفِ الزمنِ المُندسِ بينَ جنباتِ كحلةِ سمائها.. حتى في مُرورهِ.

زفرَ بحسرةٍ وهوَ يَتذكرُ كلماتِ ضوء في تلكَ الليلة

"توقف الزمن لا يقتلنا توقفه يعني أَننا موتَى.. أَننا في سلام، إنما يتعلق الأَمر ببطء مُروره الذي يتغذى على أَعصابنا، يدمرنَا كما يُدمر هذاَ العطشُ الأَصفرُ الحلق والحواشي.. يَحرقنَا جفافهُ وجفاهُ، لذلكَ لن يظلَ لنا أَملٌ إلا بمرورِ تلكَ الثوانِي".

***

يُصنفُ الفوسفوجيبس كنفاياتٍ مُتأَتيةٍ من كيمياء الفوسفات في قائمةِ النفاياتِ الخطرةِ حسبَ مرسوم ٢٣٣٩ لسنة ٢٠٠٠ والمُؤرخ في ١٠ أُكتوبر ٢٠٠٠.

وزارة البيئةِ والتهيئة التّرابية التّونسية.

السلامُ عليكم

وصولكَم لهذهِ الصفحةِ من الكتابِ يعني أَنكَم قد أَنهيتم قراءةَ الرواية، أَشكرُكم لاختياركم لها.

أَرجو أَن تكتبوا مراجعةً حولها إن أَعجبتكم، وإن لم تعجبكم فأَتمنى أَن توضحوا تلكَ الأجزاء التي لم تنلْ إِعَجابكم، وهذا أَمرُ يهمني بقدر ما تهمني النصيحةُ.

أَتقبلُ برحابةِ صدرٍ آراءكم على صفحتي الشخصية في الفايسبوك:

www.facebook.com.basma.djobbi

أَو على صفحتي الشخصية في الجودريدز

Goodreads.com.basma-djobbi

وخاصةً على صفحة الروايةِ في الجودريدز.

وشكرًا.

دار البشير